كتاب الشعب

إحياء علوم الدين

للإمام أبي حامد الغزالي

الجزء الثامن

دار الشعب
٩٢ شارع قصر العينى القاهرة ٣١٨١٠

كتاب شرح عجائب القلب

كتاب شرح عجائب القلب

وهو الأول من ربع المهلكات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى تتحير دون إدراك جلاله القلوب والخواطر ، وتدهش فى مبادى أشراق أنواره الأحداق والنواظر . المطلع على خفيات السرائر ، العالم بمكنونات الضمائر ، المستغنى فى تدبير مملكته عن المشاور والموازر . مقلب القلوب ، وغفار الذنوب ، وستار العيوب ومفرج الكروب . والصلاة على سيد المرسلين ، وجامع شمل الدين ، وقاطع دابر الملحدين وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وسلم كثيرا

أما بعد ، فشرف الإنسان وفضيلته التى فاق بها جملة من أصناف الخلق ، باستعداده لمعرفة الله سبحانه ، التى هي فى الدنيا جماله وكماله وفخره ، وفى الآخرة عدته وذخره . وإنما استعد للمعرفة بقلبه ، لا بجارحة من جوارحه . فالقلب هو العالم بالله ، وهو المتقرب إلى الله وهو العامل لله ، وهو الساعى إلى الله ، وهو المكاشف بما عند الله . ولديه . وإنما الجوارح أتباع وخدم ، وآلات يستخدمها القلب ، ويستعملها استعمال المالك للعبد ، واستخدام الراعى للرعية ، والصانع للآلة . فالقلب هو المقبول عند الله ، إذا سلم من غير الله . وهو المحجوب عن الله ، إذا صار مستغرقا بغير الله . وهو المطالب ، وهو المخاطب ، وهو المعاتب ، وهو الذى يسعد بالقرب من الله فيفلح إذا زكاه ، وهو الذى يخيب ويشقى إذا دنسه ودساه . وهو المطيع بالحقيقة لله تعالى ، وإنما الذى ينتشر على الجوارح من العبادات أنواره . وهو العاصى المتمرد على الله تعالى ، وإنما السارى إلى الأعضاء من الفواحش آثاره . وبإظلامه واستنارته تظهر محاسن الظاهر ومساويه ، إذ كل إناء ينضح بما فيه . وهو الذى إذا عرفه الإنسان فقد عرف نفسه ، وإذا عرف نفسه فقد عرف ربه . وهو الذى إذا جهله الإنسان فقد جهل نفسه ، وإذا جهل نفسه فقد جهل ربه . ومن جهل قلبه فهو بغيره أجهل ، إذ أكثر الخلق جاهلون بقلوبهم وأنفسهم ، وقد حيل بينهم وبين أنفسهم ، فإن الله يحول بين المرء وقلبه وحيلولته بأن يمنعه عن مشاهدته ومراقبته ومعرفة صفاته ، وكيفية تقلبه بين أصبعين

من أصابع الرحمن، وأنه كيف يهوى مرة إلى أسفل السافلين ، وينخفض إلى أفق الشياطين وكيف يرتفع أخرى إلى أعلى عليين ، ويرتقى إلى عالم الملائكة المقربين

ومن لم يعرف قلبه ليراقبه ويراعيه ، ويترصد لما يلوح من خزائن الملكوت عليه وفيه فهو ممن قال الله تعالى فيه (نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١)) فمعرفة القلب وحقيقة أوصافه أصل الدين ، وأساس طريق السالكين

وإذ فرغنا من الشطر الأول من هذا الكتاب من النظر فيما يجرى على الجوارح من العبادات والعادات ، وهو العلم الظاهر ، ووعدنا أن نشرح فى الشطر الثانى مايجرى على القلب من الصفات المهلكات والمنجيات ، وهو العلم الباطن ، فلا بد أن نقدم عليه كتابين كتابا فى شرح عجائب صفات القلب وأخلاقه ، وكتابا فى كيفية رياضة القلب وتهذيب أخلاقه . ثم نندفع بعد ذلك فى تفصيل المهلكات والمنجيات. فلنذكر الآن من شرح عجائب القلب بطريق ضرب الأمثال مايقرب من الأفهام ، فإن التصريح بعجائبه وأسراره الداخلة فى جملة عالم الملكوت مما يكل عن دركه أكثر الأفهام .

بيان

معنى النفس والروح والقلب والعقل وما هو المراد بهذه الأسامى

اعلم أن هذه الأسماء الأربعة تستعمل فى هذه الأبواب ، ويقل فى فحول العلماء من يحيط بهذه الأسامى ، واختلاف معانيها وحدودها ومسمياتها . وأكثر الأغاليط منشؤها الجهل بمعنى هذه الأسامى ، واشتراكها بين مسميات مختلفة . ونحن نشرح فى معنى هذه الأسامى مايتعلق بغرضنا

اللفظ الأول : لفظ القلب ، وهو يطلق لمعنيين . أحدهما اللحم الصنوبرى الشكل المودع فى الجانب الأيسر من الصدر ، وهو لحم مخصوص ، وفى باطنه تجويف ، وفى ذلك التجويف دم أسود ، هو منبع الروح ومعدنه . ولسنا نقصد الآن شرح شكله وكيفيته ، إذ يتعلق به غرض الأطباء ، ولا يتعلق به الأغراض الدينية . وهذا القلب موجود للبهائم

(١) الحشر : ١٩

بل هو موجود للميت . ونحن إذا أطلقنا لفظ القلب فى هذا الكتاب لم نعن به ذلك ، فإنه قطعة لحم لاقدر له، وهو من عالم الملك والشهادة، إذتدركه البهائم بحاسة البصر فضلا عن الآدميين

والمعنى الثانى: هو لطيفة ربانية روحانية ، لها بهذا القلب الجسمانى تعلق . وتلك اللطيفة هى حقيقة الإنسان ، وهو المدرك العالم العارف من الإنسان ، وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب ، ولها علاقة مع القلب الجسمانى ، وقد تحيرت عقول أكثر الخلق فى إدراك وجه علاقته ، فإن تعلقه به يضاهى تعلق الأعراض بالأجسام ، والأوصاف بالموصوفات أو تعلق المستعمل للآلة بالآلة ، أو تعلق المتمكن بالمكان وشرح ذلك مما نتوقاه لمعنيين أحدهما: أنه متعلق بعلوم المكاشفة ، وليس غرضنا من هذا الكتاب إلا علوم المعاملة والثانى: أن تحقيقه يستدعى إفشاء سر الروح ، وذلك مما [1] لم يتكلم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فليس لغيره أن يتكلم فيه

والمقصود أنا إذا أطلقنا لفظ القلب فى هذا الكتاب ، أردنا به هذه اللطيفة . وغرضنا ذكر أوصافها وأحوالها ، لاذكر حقيقتها فى ذاتها . وعلم المعاملة يفتقر إلى معرفة صفاتها وأحوالها ، ولا يفتقر إلى ذكر حقيقتها

اللفظ الثانى : الروح ، وهو أيضا يطلق فيما يتعلق بجنس غرضنا لمعنيين . أحدهما: جسم لطيف ، منبعه تجويف القلب الجسمانى ، فينشر بواسطة العروق الضوارب إلى سائر أجزاء البدن . وجريانه فى البدن ، وفيضان أنوار الحياة والحس والبصر والسمع والشم منها على أعضائها ، يضاهى فيضان النور من السراج الذى يدار فى زوايا البيت ، فإنه لاينتهى إلى جزء من البيت إلا ويستنير به ، والحياة مثالها النور الحاصل فى الحيطان ، والروح مثالها السراج ، وسريان الروح وحركته فى الباطن مثال حركة السراج في جوانب البيت بتحريك محركه . والأطباء إذا أطلقوا لفظ الروح أرادوا به هذا المعنى ، وهو بخار لطيف أنضجته حرارة القلب ، وليس شرحه من غرضنا ، إذ المتعلق به غرض الأطباء الذين يعالجون الأبدان . فأما غرض أطباء الدين ، المعالجين للقلب حتى ينساق إلى جوار رب العالمين

---

(١) حديث انه صلى الله عليه وسلم لم يتكلم فى الروح: متفق عليه من حديث ابن مسعود فى سؤال اليهود عن الروح وفيه فأمسك النبي صلى الله عليه فلم يرد عليهم فعلمت أنه يوحى اليه ـ الحديث : وقد تقدم

فليس يتعلق بشرح هذه الروح أصلا .

المعنى الثاني :هو اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان ، وهو الذي شرحناه فى أحد معانى القلب ، وهو الذى أراده الله تعالى بقوله (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي [١]) وهو أمر عجيب ربانى ، تعجز أكثر العقول والأفهام عن درك حقيقته .

اللفظ الثالث : النفس ، وهو أيضا مشترك بين معان ، ويتعلق بغرضنا منه معنيان أحدهما : أنه يراد به المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة فى الإنسان ، على ماسيأتى شرحه وهذا الاستعمال هو الغالب على أهل التصوف ،لأنهم يريدون بالنفس الأصل الجامع للصفات المذمومة من الإنسان ، فيقولون لابد من مجاهدة النفس وكسرها ، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام [١] « أَعْدَى عَدُوِّكَ نَفْسُكَ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ »

المعنى الثانى: هى اللطيفة التى ذكرناها ، التى هى الإنسان بالحقيقة ، وهى نفس الإنسان وذاته ، ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها . فإذا سكنت تحت الأمر ، وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات ، سميت النفس المطمئنة .قال الله تعالى فى مثلها (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً [٢]) والنفس بالمعنى الأول لايتصور رجوعها إلى الله تعالى ، فإنها مبعدة عن الله ، وهى من حزب الشيطان وإذا لم يتم سكونها ، ولكنها صارت مدافعة للنفس الشهوانية ، ومعترضة عليها ، سميت النفس اللوامة ، لأنها تلوم صاحبها عند تقصيره فى عبادة مولاه . قال الله تعالى (وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ [٣]) وإن تركت الاعتراض ، وأذعنت وأطاعت لمقتضى الشهوات ودواعى الشيطان ، سميت النفس الأمارة بالسوء . قال الله تعالى إخبارا عن يوسف عليه السلام أو امرأة العزيز (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ [٤]) وقد يجوز أن يقال المراد بالأمارة بالسوء هى النفس بالمعنى الأول . فإذاً النفس بالمعنى الأول مذمومة غاية الذم وبالمعنى الثانى محمودة، لأنها نفس الإنسان، أى ذاته وحقيقته العالمة بالله تعالى وسائر المعلومات

---

(١) حديث أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك :البيهقى فى كتاب الزهد من حديث ابن عباس وفيه محمد بن عبد الرحمن بن غزوان أحد الوضاعين

---

(١) الاسراء : ٨٥ (٢) الفجر : ٢٧ (٣) القيامة : ٢ (٤) يوسف : ٥٣

اللفظ الرابع : العقل ، وهو أيضا مشترك لمعان مختلفة ذكرناها فى كتاب العلم . والمتعلق بغرضنا من جملتها معنيان : أحدهما أنه قد يطلق ويراد به العلم بحقائق الأمور ، فيكون عبارة عن صفة العلم الذى محله القلب ، والثانى أنه قد يطلق ويراد به المدرك للعلوم ، فيكون هو القلب ، أعنى تلك اللطيفة . ونحن نعلم أن كل عالم فله فى نفسه وجود هو أصل قائم بنفسه ، والعلم صفة حالة فيه ، والصفة غير الموصوف . والعقل قد يطلق ويراد به صفة العالم ، وقد يطلق ويراد به محل الإدراك أعنى المدرك . وهو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم (٢) « أَوَّلُ مَاخَلَقَ اللهُ الْعَقْلُ » فإن العلم عرض لايتصور أن يكون أول مخلوق ، بل لابد وان يكون المحل مخلوقا قبله أو معه ولأنه لايمكن الخطاب معه . وفى الخبر أنه قال له تعالى أقبل ، فأقبل . ثم قال له أدبر ، فأدبر الحديث

فإذاً قد انكشف لك أن معانى هذه الأسماء موجودة ، وهى القلب الجسمانى ، والروح الجسمانى ، والنفس الشهوانية ، والعلوم . فهذه أربعة معان يطلق عليها الألفاظ الأربعة ومعنى خامس وهي اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان ، والألفاظ الأربعة بجملتها تتوارد عليها . فالمعانى خمسة ، والألفاظ أربعة . وكل لفظ أطلق لمعنيين . وأكثر العلماء قد التبس عليهم اختلاف هذه الألفاظ وتواردها ، فتراهم يتكلمون فى الخواطر ، ويقولون هذا خاطر العقل ، وهذا خاطر الروح ، وهذا خاطر القلب ، وهذا خاطر النفس . وليس يدرى الناظر اختلاف معانى هذه الاسماء ولأجل كشف الغطاء عن ذلك ، قدمنا شرح هذه الأسامى وحيث ورد فى القرءان والسنة لفظ القلب ، فالمراد به المعنى الذى يفقه من الإنسان ويعرف حقيقة الأشياء وقد يكنى عنه بالقلب الذى فى الصدر ، لأن بين تلك اللطيفة وبين جسم القلب علاقة خاصه ، فإنها وإن كانت متعلقة بسائر البدن ، ومستعملة له ، ولكنها تتعلق به بواسطة القلب . فتعلقها الأول بالقلب ، وكأنه محلها ومملكتها ، وعالمها ومطيتها ، ولذلك شبه سهل التسترى القلب بالعرش ، والصدر بالكرسى ، فقال القلب هو العرش ، والصدر هو الكرسى . ولا يظن به أنه يرى أنه عرش الله وكرسيه ، فإن ذلك محال ، بل أراد به أنه مملكته ، والمجرى الأول لتدبيره وتصرفه ، فهما بالنسبة إليه كالعرش والكرسي بالنسبة إلى الله تعالى . ولا يستقيم هذا التشبيه أيضا إلا من بعض الوجوه وشرح ذلك أيضا لا يليق بغرضنا فلنتجاوزه

(٢) حديث أول ماخلق الله العقل : وفى الخبر أنه قال له أقبل فأقبل وقال أدبر فأدبر الحديث تقدم فى العلم

بيان جنود القلب

قال الله تعالى (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ [١]) فلله سبحانه فى القلوب والأرواح وغيرها من العوالم جنود مجندة ، لايعرف حقيقتها وتفصيل عددها إلا هو . ونحن الآن نشير إلى بعض جنود القلب ، فهو الذى يتعلق بغرضنا . وله جندان : جند يرى بالأبصار ، وجند لا يرى إلا بالبصائر . وهو فى حكم الملك ، والجنود فى حكم الخدم والأعوان : فهذا معنى الجند

فأما جنده المشاهد بالعين ، فهو اليد والرجل ، والعين والأذن واللسان ، وسائر الأعضاء الظاهرة والباطنة ، فإن جميعها خادمة للقلب ، ومسخرة له ، فهو المتصرف فيها ، والمردد لها وقد خلقت مجبولة على طاعته ، لا تستطيع له خلافا ، ولا عليه تمردا فإذا أمر العين بالانفتاح انفتحت ، وإذا أمر الرجل بالحركة تحركت ، وإذا أمر اللسان بالكلام وجزم الحكم به تكلم . وكذا سائر الأعضاء . وتسخير الأعضاء والحواس للقلب يشبه من وجه تسخير الملائكة لله تعالى ، فإنهم مجبولون على الطاعة ، لا يستطيعون له خلافا ، بل لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون . وإنما يفترقان فى شىء ، وهو أن الملائكة عليهم السلام عالمة بطاعتها وامتثالها ، والأجفان تطيع القلب فى الانفتاح والانطباق على سبيل التسخير ولا خبر لها من نفسها ومن طاعتها للقلب

وإنما افتقر القلب إلى هذه الجنود ، من حيث افتقاره إلى المركب والزاد لسفره الذى لأجله خلق ، وهو السفر إلى الله سبحانه ، وقطع المنازل إلى لقائه . فلأجله خلقت القلوب قال الله تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ [٢]) وإنما مركبه البدن ، وزاده العلم وإنما الأسباب التى توصله إلى الزاد ، وتمكنه من التزود منه ، هو العمل الصالح . وليس يمكن العبد أن يصل إلى الله سبحانه ، مالم يسكن البدن ، ولم يجاوز الدنيا ، فإن المنزل الأدنى لابد من قطعه للوصول إلى المنزل الأقصى . فالدنيا مزرعة الآخرة ، وهى منزل من منازل الهدى ، وإنما سميت دنيا لأنها أدنى المنزلتين . فاضطر إلى أن يتزود من هذا العالم ، فالبدن مركبه الذى يصل به إلى هذا العالم . فافتقر إلى تعهد البدن وحفظه . وإنما يحفظ البدن

---

(١) المدثر : ٣١ (٢) الذاريات : ٥٦

بأن يجلب إليه ما يوافقه من الغذاء وغيره ، وأن يدفع عنه ما ينافيه من أسباب الهلاك . فافتقر لأجل جلب الغـذاء إلى جندين : باطن وهو الشهوة ، وظاهر وهو اليد والأعضاء الجالبة للغذاء . فخلق فى القلب من الشهوات ما احتاج إليه ، وخلقت الأعضاء التى هى آلات الشهوات فافتقر لأجل دفع المهلكات إلى جندين : باطن وهو الغضب الذى به يدفع المهلكات، وينتقم من الأعداء ، وظاهر وهو اليد والرجل الذى بهما يعمل بمقتضى الغضب . وكل ذلك بأمور خارجة . فالجوارح من البدن كالأسلحة وغيرها . ثم المحتاج إلى الغذاء : مالم يعرف الغذاء لم تنفعه شهوة الغذاء والفه . فافتقر للمعرفة إلى جندين : باطن وهو إدراك السمع والبصر والشم واللمس والذوق ، وظاهر وهو العين والأذن والأنف وغيرها . وتفصيل وجه الحاجة إليها ووجه الحكمة فيها يطول ، ولا تحويه مجلدات كثيرة ، وقد أشرنا إلى طرف يسير منها فى كتاب الشكر ، فليقتنع به .

فجملة جنود القلب تحصرها ثلاثة أصناف : صنف باعث ومستحث ، إما إلى جلب النافع الموافق كالشهوة ، وإما إلى دفع الضار المنافى كالغضب . وقد يعبر عن هذا الباعث بالإرادة والثانى هو المحرك للأعضاء إلى تحصيل هـذه المقاصد ، ويعبر عن هذا الثانى بالقدرة ، وهى جنود مبثوثة فى سائر الأعضاء ، لاسيما العضلات منها والأوتار . والثالث هو المدرك المتعرف للأشياء كالجواسيس ، وهى قوة البصر والسمع ، والشم والذوق واللمس . وهى مبثوثة فى أعضاء معينة ، ويعبر عن هذا بالعلم والإدراك . ومع كل واحد من هذه الجنود الباطنة جنود ظاهرة ، وهى الأعضاء المركبة من الشحم واللحم والعصب ، والدم والعظم ، التى أعدت آلات لهذه الجنود . فإن قوة البطش إنما هى بالأصابع ، وقوة البصر إنما هى بالعين وكذا سائر القوى . ولسنا نتكلم فى الجنود الظاهرة ، أعنى الأعضاء ، فإنها من عالم الملك والشهادة . وإنما نتكلم الآن فيما أيدت به من جنود لم تروها

وهـذا الصنف الثالث ، وهو المدرك من هذه الجملة ، ينقسم إلى ما قد أسكن المنازل الظاهرة ، وهى الحواس الخمس ، أعنى السمع والبصر ، والشم والذوق واللمس ، وإلى ما أسكن منازل باطنة ، وهى تجاويف الدماغ ، وهى أيضا خمسة . فإن الإنسان بعد رؤية الشىء يغمض عينيه ، فيدرك صورته فى نفسه وهو الخيال ، ثم تبقى تلك الصورة معه بسبب شىء يحفظه

وهو الجند الحافظ ، ثم يتفكر فيما حفظه فيركب بعض ذلك إلى البعض ، ثم يتذكر ما قد نسيه ويعود إليه ثم يجمع جملة معانى المحسوسات فى خياله بالحس المشترك بين المحسوسات ففى الباطن حس مشترك ، وتخيل وتفكر ، وتذكر وحفظ . ولولا خلق الله قوة الحفظ والفكر ، والذكر والتخيل ، لكان الدماغ يخلو عنه ، كما تخلو اليد والرجل عنه . فتلك القوى أيضا جنود باطنة ، وأماكنها أيضا باطنة

فهذه هى أقسام جنود القلب . وشرح ذلك بحيث يدركه فهم الضعفاء بضرب الأمثلة يطول . ومقصود مثل هذا الكتاب أن ينتفع به الأقوياء ، والفحول من العلماء ، ولكنا نجتهد فى تفهيم الضعفاء بضرب الأمثلة ، ليقرب ذلك من أفهامهم

بيان

أمثلة القلب مع جنوده الباطنة

اعلم أن جندى الغضب والشهوة قد ينقادان للقلب انقيادا تاما ، فيعينه ذلك على طريقه الذى يسلكه ، وتحسن مرافقتهما فى السفر الذى هو بصدده : وقد يستعصيان عليه استعصاء بغي وتمرد ، حتى يملكاه ويستعبداه ، وفيه هلاكه ، وانقطاعه عن سفره الذى به وصوله إلى سعادة الأبد . وللقلب جند آخر ، وهو العلم والحكمة والتفكر كما سيأتى شرحه ، وحقه أن يستعين بهذا الجند ، فإنه حزب الله تعالى على الجندين الآخرين ، فإنهما قد يلتحقان بحزب الشيطان . فإن ترك الاستعانة ، وسلط على نفسه جند الغضب والشهوة ، هلك يقينا ، وخسر خسرانا مبينا . وذلك حالة أكثر الخلق ، فإن عقولهم صارت مسخرة لشهواتهم فى استنباط الحيل لقضاء الشهوة ، وكان ينبغى أن تكون الشهوة مسخرة لعقولهم ، فيما يفتقر العقل إليه . ونحن نقرب ذلك إلى فهمك بثلاثة أمثلة

المثال الأول : أن نقول ، مثل نفس الإنسان فى بدنه ، أعنى بالنفس اللطيفة المذكورة كمثل ملك فى مدينته ومملكته . فإن البدن مملكة النفس وعالمها ومستقرها ومدينتها ، وجوارحها وقواها بمنزلة الصناع والعملة ، والقوة العقلية المفكرة له كالمشير الناصح ، والوزير العاقل . والشهوة له كالعبد السوء يجلب الطعام والميرة إلى المدينة ، والغضب والحمية له كصاحب

الشرطة ، والعبد الجالب للميرة كذاب مكار ، خداع خبيث ، يتمثل بصورة الناصح ، وتحت نصحه الشر الهائل ، والسم القاتل ، وديدنه وعادته منازعة الوزير الناصح فى آرائه وتدبيراته ، حتى أنه لا يخلو من منازعته ومعارضته ساعة . كما أن الوالى فى مملكته إذا كان مستغنيا فى تدبيراته بوزيره ، ومستشيرا له ، ومعرضا عن إشارة هذا العبد الخبيث ، مستدلا بإشارته فى أن الصواب فى نقيض رأيه ، أدّبهُ صاحب شرطته ، وساسه لوزيره ، وجعله مؤتمرا له ،مسلطا من جهته على هذا العبد الخبيث وأتباعه وأنصاره ، حتى يكون العبد مسوسا لا سائسا ، ومأمورا مدبرًا لا أميرا مدبرا ، استقام أمر بلده ، وانتظم العدل بسببه فكذا النفس ، متى استعانت بالعقل ، وأدبت بحمية الغضب ، وسلّطتهاَ على الشهوة واستعانت باحداها على الأخرى ، تارة بأن تقلل مرتبة الغضب وغلوائه بمخالفة الشهوة واستدارجها وتارة بقمع الشهوة وقهرها بتسليط الغضب والحمية عليها وتقبيح مقتضياتها ، اعتدلت قواها وحسنت أخلاقها ، ومن عدل عن هذه الطريقة كان كمن قال الله تعالى فيه (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ[1]) وقال تعالى(وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث[2])وقال عزوجل فيمن نهى النفس عن الهوى (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ[3]) وسيأتى كيفية مجاهدة هذه الجنود ، وتسليط بعضها على بعض ، فى كتاب رياضة النفس إن شاء الله تعالى

المثال الثانى : اعلم أن البدن كالمدينة ، والعقل أعنى المدرك من الإنسان كملك مدبر لها وقواه المدركة من الحواس الظاهرة والباطنة كجنوده وأعوانه ، وأعضاؤه كرعيته ، والنفس الأمّارة بالسوء التى هى الشهوة والغضب كعدو ينازعه فى مملكته ، ويسعى فى إهلاك رعيته فصار بدنه كرباط وثغر ، ونفسه كمقيم فيه مرابط . فإن هو جاهد عدوه وهزمه ، وقهره على ما يحب ، حمد أثره إذا عاد إلى الحضرة ، كما قال تعالى (وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً[4]) وإن ضيع ثغره ، وأهمل رعيته ، ذم أثره ، فانتقم منه عند الله تعالى [1] فيقال له يوم القيامة ، ياراعى السوء

(١) حديث يقال يوم القيامة ياراعى السوء أكلت اللحم وشربت اللبن ولم ترد الضالة :الحديث لم أجد له أصلا

(١) الجاثية : ٢٣ (٢) الاعراف : ١٧٦ (٣) النازعات : ٤٠ ، ٤١ (٤) النساء : ٩٥

أكلت اللحم ، وشربت اللبن ، ولم تأو الضالة ، ولم تجبر الكسير ، اليوم أنتقم منك : كما ورد فى الخبر . وإلى هذه المجاهدة الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم (١) « رَجَعْنَا مِنَ الْجِهَادِ الأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الأَكْبَرِ »

المثال الثالث : مثل العقل مثال فارس متصيد ، وشهوته كفرسه ، وغضبه ككلبه . فمتى كان الفارس حاذقا ، وفرسه مروضا ، وكلبه مؤدبا معلما ، كان جديرا بالنجاح . ومتى كان هو فى نفسه أخرق ، وكان الفرس جموحا ، والكلب عقورا ، فلا فرسه ينبعث تحته منقادا ولا كلبه يسترسل بإشارته مطيعا ، فهو خليق بأن يعطب ، فضلا عن أن ينال ما طلب . وإنما خرق الفارس مثل جهل الإنسان ، وقلة حكمته ، وكلال بصيرته وجماح الفرس مثل غلبة الشهوة ، خصوصا شهوة البطن والفرج . وعقر الكلب مثل غلبة الغضب واستيلائه نسأل الله حسن التوفيق بلطفه

بيان

خاصية قلب الإنسان

اعلم أن جملة ما ذكرناه قد أنعم الله به على سائر الحيوانات سوى الآدمى . إذ للحيوان الشهوة والغضب والحواس الظاهرة والباطنة أيضا ، حتى أن الشاة ترى الذئب بعينها ، فتعلم عداوته بقلبها ، فتهرب منه . فذلك هو الإدراك الباطن فلنذكر ما يختص به قلب الإنسان ؛ ولأجله عظم شرفه ، واستأهل القرب من الله تعالى . وهو راجع إلى علم وإرادة

أما العلم ، فهو العلم بالأمور الدنيوية والأخروية ، والحقائق العقلية . فإن هذه أمور وراء المحسوسات ، ولا يشاركه فيها الحيوانات . بل العلوم الكلية الضرورية من خواص العقل إذ يحكم الإنسان بأن الشخص الواحد لا يتصور أن يكون فى مكانين فى حالة واحدة . وهذا حكم منه على كل شخص . ومعلوم أنه لم يدرك بالحس إلا بعض الأشخاص ، فحكمه على جميع الأشخاص زائد على ما أدركه الحس . وإذا فهمت هذا فى العلم الظاهر الضرورى فهو فى سائر النظريات أظهر

---

(١) حديث رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر : البيهقى فى الزهد من حديث جابر وقال هذا اسناد فيه ضعف

وأما الإرادة ، فإنه إذا أدرك بالعقل عاقبة الأمر ، وطريق الصلاح فيه ، انبعث من ذاته شوق إلى جهة المصلحة ، وإلى تعاطى أسبابها ، والإرادة لها. وذلك غير إرادة الشهوة ، وإرادة الحيوانات ، بل يكون على ضد الشهوة ، فإن الشهوة تنفر عن الفصد والحجامة ، والعقل يريدها ويطلبها ويبذل المال فيها والشهوة تميل إلى لذائذ الأطعمة فى حين المرض ، والعاقل يجد فى نفسه زاجرا عنها . وليس ذلك زاجر الشهوة . ولو خلق الله العقل المعرّف بعواقب الأمور ، ولم يخلق هذا الباعث المحرك للأعضاء على مقتضى حكم العقل ، لكان حكم العقل ضائعا على التحقيق .

فإذاً قلب الإنسان اختص بعلم وإرادة ، ينفك عنها سائر الحيوان ، بل ينفك عنها الصبي فى أول الفطرة . وإنما يحدث ذلك فيه بعد البلوغ . وأما الشهوة والغضب ، والحواس الظاهرة والباطنة ، فإنها موجودة فى حق الصبي . ثم الصبي فى حصول هذه العلوم فيه له درجتان . إحداهما أن يشتمل قلبه على سائر العلوم الضرورية الأولية ، كالعلم باستحالة المستحيلات ، وجواز الجائزات الظاهرة ، فتكون العلوم النظرية فيها غير حاصلة إلا أنها صارت ممكنة قريبة الإمكان والحصول ، ويكون حاله بالإضافة إلى العلوم ، كحال الكاتب الذي لا يعرف من الكتابة إلا الدواة والقلم والحروف المفردة دون المركبة ، فإنه قد قارب الكتابة ولم يبلغها بعد

الثانية أن يتحصل له العلوم المكتسبة بالتجارب والفكر ، فتكون كالمخزونة عنده ، فإذا شاء رجع إليها. وحاله حال الحاذق بالكتابة ، إذ يقال له كاتب ، وإن لم يكن مباشرا للكتابة ، بقدرته عليها . وهذه هى غاية درجة الإنسانية . ولكن فى هذه الدرجة مراتب لا تحصى ، يتفاوت الخلق فيها بكثرة المعلومات وقلتها ، وبشرف المعلومات وخستها ، وبطريق تحصيلها ، إذ تحصل لبعض القلوب بإلهام إلهى على سبيل المبادأة والمكاشفة ، ولبعضهم بتعلم واكتساب . وقد يكون سريع الحصول ، وقد يكون بطيء الحصول . وفى هذا المقام تتباين منازل العلماء والحكماء ، والأنبياء والأولياء ، فدرجات الترقى فيه غير محصورة إذ معلومات الله سبحانه لا نهاية لها وأقصى الرتب رتبة النبي ، الذي تنكشف له كل الحقائق

أو أكثرها ، من غير اكتساب وتكلف ، بل بكشف إلهي في أسرع وقت . وبهذه السعادة يقرب العبد من الله تعالى قربا بالمعنى والحقيقة والصفة ، لا بالمكان والمسافة . ومراقي هذه الدرجات هي منازل السائرين إلى الله تعالى ، ولا حصر لتلك المنازل ، وإنما يعرف كل سالك منزله الذي بلغه في سلوكه ، فيعرفه ويعرف ما خلفه من المنازل . فأما ما بين يديه فلا يحيط بحقيقته علما ، لكن قد يصدق به إيمانا بالغيب ، كما أنا نؤمن بالنبوة والنبي ، ونصدق بوجوده ، ولكن لا يعرف حقيقة النبوة إلا النبي . وكما لا يعرف الجنين حال الطفل ، ولا الطفل حال المميز وما يفتح له من العلوم الضرورية ، ولا المميز حال العاقل وما اكتسبه من العلوم النظرية ، فكذلك لا يعرف العاقل ماافتتح الله على أوليائه وأنبيائه من مزايا لطفه ورحمته . ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها . وهذه الرحمة مبذولة بحكم الجود والكرم من الله سبحانه وتعالى ، غير مضنون بها على أحد ، ولكن إنما تظهر في القلوب المتعرضة لنفحات رحمة الله تعالى ، كما قال صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ لَنَفَحَاتٍ أَلَا فَتَعَرَّضُوا لَهَا » والتعرض لها بتطهير القلب وتزكيته من الخبث والكدورة الحاصلة من الأخلاق المذمومة كما سيأتي بيانه

وإلى هذا الجود الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « يَنْزِلُ اللهُ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأَسْتَجِيبُ لَهُ ؟ » وبقوله عليه الصلاة والسلام ، حكاية عن ربه [2] عز وجل « لَقَدْ طَالَ شَوْقُ الْأَبْرَارِ إِلَى لِقَائِي وَأَنَا إِلَى لِقَائِهِمْ أَشَدُّ شَوْقًا » وبقوله تعالى [3] « مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا » كل ذلك إشارة إلى أن أنوار العلوم لم تحتجب عن القلوب لبخل ومنع من جهة المنعم تعالى عن البخل والمنع علوا كبيرا ، ولكن حجبت لخبث وكدورة وشغل من جهة القلوب فإن القلوب كالأواني ، فادامت ممتلئة بالماء لا يدخلها الهواء فالقلوب المشغولة بغير الله لا تدخلها المعرفة بجلال الله تعالى . وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث ان لربكم في ايام دهركم نفحات ـ الحديث: متفق عليه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد وقد تقدم

(٢) حديث يقول الله عز وجل لقد طال شوق الأبرار الى لقائي الحديث: لم أجده أصلا إلا أن صاحب الفردوس خرجه من حديث أبي الدرداء ولم يذكر له ولده في مسند الفردوس اسنادا

(٣) حديث يقول الله من تقرب الى شبرا تقربت اليه ذراعا: متفق عليه من حديث أبي هريرة

(١) « لَوْلَا أَنَّ الشَّيَاطِينَ يَحُومُونَ عَلَى قُلُوبِ بَنِي آدَمَ لَنَظَرُوا إِلَى مَلَكُوتِ السَّمَاءِ »

ومن هذه الجملة يتبين أن خاصية الإنسان العلم والحكمة . وأشرف أنواع العلم هو العلم بالله وصفاته وأفعاله . فبه كمال الإنسان ، وفى كماله سعادته وصلاحه لجوار حضرة الجلال والكمال . فالبدن مركب للنفس ، والنفس محل للعلم ، والعلم هو مقصود الإنسان وخاصيته التى لأجله خلق ، وكما أن الفرس يشارك الحمار فى قوة الحمل ، ويختص عنه بخاصية الكر والفر وحسن الهيئة ، فيكون الفرس مخلوقا لأجل تلك الخاصية . فإن تعطلت منه نزل إلى حضيض رتبة الحمار . وكذلك الإنسان . يشارك الحمار والفرس فى أمور ، ويفارقهما فى أمور هى خاصيته . وتلك الخاصية من صفات الملائكة المقربين من رب العالمين ، والإنسان على رتبة بين البهائم والملائكة ، فإن الإنسان من حيث يتغذى وينسل فنبات ، ومن حيث يحس ويتحرك بالاختيار فحيوان ، ومن حيث صورته وقامته فكالصورة المنقوشة على الحائط . وإنما خاصيته معرفة حقائق الأشياء . فمن استعمل جميع أعضائه وقواه على وجه الاستعانة بها على العلم والعمل ، فقد تشبه بالملائكة ، فحقيق بأن يلحق بهم ، وجدير بأن يسمى ملكا وربانيا ، كما أخبر الله تعالى عن صواحبات يوسف عليه السلام (مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٢)) ومن صرف همته إلى اتباع اللذات البدنية ؛ يأكل كما تأكل الأنعام ، فقد انحط إلى حضيض أفق البهائم ، فيصير إما غمرا كثور ، وإما شرها كخنزير ، وإما ضريا ككلب أوسنور ، أو حقودا كجمل ، أو متكبرا كنمر ، أو ذاروغان كثعلب ، أو يجمع ذلك كله كشيطان مريد . وما من عضو من الأعضاء ولا حاسة من الحواس ، إلا ويمكن الاستعانة به على طريق الوصول إلى الله تعالى ، كما سيأتى بيان طرف منه فى كتاب الشكر فمن استعمله فيه فقد فاز ، ومن عدل عنه فقد خسر وخاب

وجملة السعادة فى ذلك أن يجعل لقاء الله تعالى مقصده ، والدار الآخرة مستقره ، والدنيا منزله ، والبدن مركبه ، والأعضاء خدمه ، فيستقر هو ، أعنى المدرك من الإنسان ، فى القلب الذى هو وسط مملكته كالملك ، ويجرى القوة الخيالية المودعة فى مقدم الدماغ مجرى صاحب بريده ، إذ تجتمع أخبار المحسوسات عنده ، ويجرى القوة الحافظة التى مسكنها مؤخر الدماغ

---

(١) حديث لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم ـ الحديث : أحمد من حديث أبى هريرة بنحوه وقد تقدم فى الصيام

(٢) يوسف : ٣١

مجرى خازنه ، ويجرى اللسان مجرى ترجمانه ، ويجرى الأعضاء المتحركة مجرى كتابه ، ويجرى الحواس الخمس مجرى جواسيسه ، فيوكل كل واحد منها بأخبار صقع من الأصقاع ، فيوكل العين بعالم الألوان ، والسمع بعالم الأصوات ، والشم بعالم الروائح ، وكذلك سائرها ، فإنها أصحاب أخبار يلتقطونها من هذه العوالم ، ويؤدونها إلى القوة الخيالية التي هي كصاحب البريد ويسلمها صاحب البريد إلى الخازن وهي الحافظة ، ويعرضها الخازن على الملك. فيقتبس الملك منها مايحتاج إليه في تدبير مملكته ، وإتمام سفره الذي هو بصدده ، وقمع عدوه الذي هو مبتلى به ، ودفع قواطع الطريق عليه . فإذا فعل ذلك كان موفقا سعيدا ، شاكرا نعمة الله . وإذا عطل هذه الجملة. أو استعملها لكن في مراعاة أعدائه ، وهي الشهوة والغضب وسائر الحظوظ العاجلة ، أو في عمارة طريقه دون منزله ، إذ الدنيا طريقه التي عليها عبوره ، ووطنه ومستقره الآخرة ، كان مخذولا شقيا ، كافرا بنعمة الله تعالى ، مضيعا لجنود الله تعالى ، ناصرا لأعداء الله ، مخذلا لحزب الله . فيستحق المقت ، والإبعاد في المنقلب والمعاد ، نعوذ بالله من ذلك

وإلى المثال الذي ضربناه أشار كعب الأحبار حيث قال : دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت [1] الإنسان عيناه هاد ، وأذناه قمع ، ولسانه ترجمان ، ويداه جناحان ، ورجلاه بريد والقلب منه ملك ، فإذا طاب الملك طابت جنوده . فقالت هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول . وقال علي رضي الله عنه في تمثيل القلوب : إن لله تعالى في أرضه آنية وهي القلوب ، فأحبها إليه تعالى أرقها وأصفاها وأصلبها . ثم فسره فقال : أصلبها في الدين ، وأصفاها في اليقين ، وأرقها على الإخوان وهو إشارة إلى قوله تعالى (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ [1]) وقوله تعالى (مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ [2]) قال أبي بن كعب رضي الله عنه : معناه مثل نور المؤمن وقلبه . وقوله تعالى (أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ [3]) مثل قلب المنافق . وقال زيد بن أسلم في قوله تعالى (فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ [4]) وهو قلب المؤمن. وقال سهل : مثل القلب والصدر مثل العرش والكرسي . فهذه أمثلة القلب

---

(١) حديث عائشة الانسان عيناه هاد واذناه قمع ولسانه ترجمان ـ الحديث : أبو نعيم في الطب النبوي والطبراني في مسند الشاميين والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة نحوه وله ولأحمد من حديث أبي ذر اما الأذن فقمع وأما العين فمقرة لما يوعى القلب ولايصح منها شيء

---

(١) الفتح : ٢٩ (٢) النور: ٣٥ (٣) النور : ٤٠ (٤) البروج : ٢١

بيان

مجامع أوصاف القلب وأمثلته

اعلم أن الإنسان قد اصطحب فى خلقته وتركيبه أربع شوائب ، فلذلك اجتمع عليه أربعة أنواع من الأوصاف ، وهى الصفات السبعية ، والبهيمية ، والشيطانية ، والربانية فهو من حيث سلط عليه الغضب يتعاطى أفعال السباع ،من العداوة والبغضاء ،والتهجم على الناس بالضرب والشتم . ومن حيث سلطت عليه الشهوة يتعاطى أفعال البهائم ،من الشره والحرص والشبق وغيره . ومن حيث إنه فى نفسه أمر ربانى، كما قال الله تعالى (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى[1]) فإنه يدعى لنفسه الربوبية ، ويحب الاستيلاء والاستعلاء ؛ والتخصص والاستبداد بالأمور كلها ، والتفرد بالرياسة ، والانسلال عن ربقة العبودية والتواضع ، ويشتهى الاطلاع على العلوم كلها ، بل يدعى لنفسه العلم والمعرفة والإحاطة بحقائق الأمور ، ويفرح إذا نسب إلى العلم ، ويحزن إذا نسب إلى الجهل . والإحاطة بجميع الحقائق ، والاستيلاء بالقهر على جميع الخلائق من أوصاف الربوبية . وفى الإنسان حرص على ذلك . ومن حيث يختص من البهائم بالتمييز ، مع مشاركته لها فى الغضب والشهوة ، حصلت فيه شيطانية ، فصار شريرا ، يستعمل التمييز فى استنباط وجوه الشر ، ويتوصل إلى الأغراض بالمكر والحيلة والخداع ، ويظهر الشر فى معرض الخير ، وهذه أخلاق الشياطين. وكل إنسان فيه شوب من هذه الأصول الأربعة ، أعنى الربانية والشيطانية والسبعية والبهيمية . وكل ذلك مجموع فى القلب ، فكأن المجموع فى إهاب الإنسان خنزير وكلب وشيطان وحكيم . فالخنزير هو الشهوة ، فإنه لم يكن الخنزير مذموما للونه وشكله وصورته ، بل لجشعه وكلبه وحرصه . والكلب هو الغضب، فإن السبع الضارى والكلب العقور ليس كلبا وسبعا باعتبار الصورة واللون والشكل، بل روح معنى السبعية الضراوة والعدوان والعقر ، وفى باطن الإنسان ضراوة السبع وغضبه، وحرص الخنزير وشبقه .فالخنزير يدعو بالشره إلى الفحشاء والمنكر والسبع يدعو بالغضب إلى الظلم والإيذاء، والشيطان لا يزال يهيج شهوة الخنزير وغيظ السبع

(١) الاسراء : ٨٥

ويغرى أحدهما بالآخر ،ويحسن لهما ماهما مجبولان عليه . والحكيم الذى هومثال العقل مأمور بأن يدفع كيد الشيطان ومكره ، بأن يكشف عن تلبيسه ببصيرته النافذة . ونوره المشرق الواضح ، وأن يكسر شره هذا الخنزير بتسليط الكلب عليه ، إذ بالغضب يكسر سورة الشهوة ، ويدفع ضراوة الكلب بتسليط الخنزير عليه ؛ ويجعل الكلب مقهورا تحت سياسته . فإن فعل ذلك وقدر عليه . اعتدل الأمر ، وظهر العدل فى مملكة البدن وجرى الكل على الصراط المستقيم . وإن عجز عن قهرها ، قهروه واستخدموه ، فلا يزال فى استنباط الحيل وتدقيق الفكر ليشبع الخنزير ، ويرضى الكلب ، فيكون دائما فى عبادة كلب وخنزير ،وهذا حال أكثر الناس مهما كان أكثر همتهم البطن والفرج ومنافسة الأعداء

والعجب منه أنه ينكر على عبدة الأصنام عبادتهم للحجارة ، ولو كشف الغطاء عنه ، وكوشف بحقيقة حاله ، ومثل له حقيقة حاله ، كما يمثل للمكاشفين إما فى النوم أوفى اليقظة ، لرأى نفسه ماثلا بين يدى خنزير ، ساجداله مرة ، وراكعا أخرى ، ومنتظراً لإشارته وأمره ، فمهما هاج الخنزير لطلب شىء من شهواته ، انبعث على الفور فى خدمته ، وإحضار شهوته. أو رأى نفسه ماثلا بين يدى كلب عقور ، عابداله ، مطيعاسامعالما يقتضيه ويلتمسه، مدققا بالفكر فى حيل الوصول إلى طاعته . وهو بذلك ساع فى مسرة شيطانه ، فإنه الذى يهيج الخنزير ويثير الكلب ، ويبعثهما على استخدامه ، فهو من هذا الوجه يعبد الشيطان بعبادتهما

فليراقب كل عبد حركاته وسكناته : وسكوته ونطقه ، وقيامه وقعوده ، ولينظر بعين البصيرة فلا يرى إن أنصف نفسه إلا ساعيا طول النهار فى عبادة هؤلاء ، وهذا غاية الظلم ، إذ جعل المالك مملوكا ، والرب مربوبا ، والسيد عبدا ، والقاهر مقهورا . إذ العقل هو المستحق للسيادة والقهر والاستيلاء ، وقد سخره لخدمة هؤلاء الثلاثة ، فلاجرم ينتشر إلى قلبه من طاعة هؤلاء الثلاثة صفات تتراكم عليه ، حتى يصير طابعا ، وريناً مهلكا للقلب ومميتا له

أما طاعة خنزير الشهوة ، فيصدر منها صفة الوقاحة والخبث ، والتبذير والتقتير ، والرياء والهتكة ، والمجانة والعبث ، والحرص والجشع ، والملق والحسد ، والحقد والشماتة وغيرها

وأما طاعة كلب الغضب ، فتنتشر منها إلى القلب صفة التهور ، والبذالة والبذخ ، والصلف والاستشاطة ، والتكبر والعجب ، والاستهزاء والاستخفاف وتحقير الخلق ، وإرادة الشر ، وشهوة الظلم وغيرها

وأما طاعة الشيطان بطاعة الشهوة والغضب ، فيحصل منهما صفة المكر والخداع ، والحيلة والدهاء ، والجراءة ، والتلبيس والتضريب والغش ، والخب والخنا وأمثالها

ولو عكس الأمر ، وقهر الجميع تحت سياسة الصفة الربانية ، لاستقر في القلب من الصفات الربانية العلم والحكمة واليقين ، والإحاطة بحقائق الأشياء ، ومعرفة الأمور على ماهى عليه والاستيلاء على الكل بقوة العلم والبصيرة ، واستحقاق التقدم على الخلق لكمال العلم وجلاله ولاستغنى عن عبادة الشهوة والغضب ، ولا نتشر إليه من ضبط خنزير الشهوة ورده إلى حد الاعتدال صفات شريفة ، مثل العفة ، والقناعة والهدو ، والزهد والورع والتقوى ، والانبساط وحسن الهيئة ، والحياء والظرف ، والمساعدة وأمثالها . ويحصل فيه من ضبط قوة الغضب وقهرها ، وردها إلى حد الواجب ، صفة الشجاعة والكرم والنجدة ، وضبط النفس والصبر ، والحلم والاحتمال والعفو ، والثبات والنبل ، والشهامة والوقار وغيرها

فالقلب فى حكم مرآة قد اكتنفته هذه الأمور المؤثرة فيه ، وهذه الآثار على التواصل واصلة إلى القلب . أما الآثار المحمودة التى ذكرناها ، فإنها تزيد مرآة القلب جلاء وإشراقا ونورا وضياء ، حتى يتلألأ فيه جلية الحق ، وينكشف فيه حقيقة الأمر المطلوب فى الدين وإلى مثل هذا القلب الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم [1] « إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْراً جَعَلَ لَهُ وَاعِظاً مِنْ قَلْبِهِ » وبقوله صلى الله عليه وسلم [2] « مَنْ كَانَ لَهُ مِنْ قَلْبِهِ وَاعِظٌ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ حَافِظٌ » وهذا القلب هو الذى يستقر فيه الذكر . قال الله تعالى (أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ[1])

---

(١) حديث اذا أراد الله بعبده خيرا جعل له واعظا من قلبه : أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أم سلمة واسناده جيد

(٢) حديث من كان له من قلبه واعظ كان عليه من الله حافظ : لم أجد له أصلا

---

(١) الرعد : ٢٨

وأما الآثار المذمومة ، فإنها مثل دخان مظلم يتصاعد إلى مرآة القلب . ولا يزال يتراكم عليه مرة بعد أخرى ، إلى أن يسود ويظلم ، ويصير بالكلية محجوبا عن الله تعالى ، وهو الطبع وهو الرين . قال الله تعالى (كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ[١]) وقال عز وجل (أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ[٢]) فربط عدم السماع بالطبع بالذنوب ، كما ربط السماع بالتقوى . فقال تعالى (وَاتَّقُوا اللهَ وَاسْمَعُوا[٣]) (وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ[٤])

ومهما تراكمت الذنوب طبع على القلوب ، وعند ذلك يعمى القلب عن إدراك الحق وصلاح الدين ، ويستهين بأمر الآخرة ، ويستعظم أمر الدنيا ويصير مقصور الهم عليها . فإذا قرع سمعه أمر الآخرة وما فيها من الأخطار ، دخل من أذن وخرج من أذن ، ولم يستقر في القلب ولم يحركه إلى التوبة والتدارك ، أولئك الذين يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور

وهذا هو معنى اسوداد القلب بالذنوب : كما نطق به القرآن والسنة . قال ميمون بن مهران إذا أذنب العبد ذنبا نكتت في قلبه نكتة سوداء ، فإذا هو نزع وتاب ، صقل ؛ وإن عاد زيد فيها حتى يعلو قلبه ، فهو الران . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم[١] « قَلْبُ الْمُؤْمِنِ أَجْرَدُ فِيهِ سِرَاجٌ يُزْهِرُ ، وَقَلْبُ الْكَافِرِ أَسْوَدُ مَنْكُوسٌ » فطاعة الله سبحانه بمخالفة الشهوات مصقلة للقلب ، ومعاصيه مسودات له . فمن أقبل على المعاصي اسود قلبه ، ومن أتبع السيئة الحسنة ومحا أثرها لم يظلم قلبه ، ولكن ينقص نوره ، كالمرآة التي يتنفس فيها ثم تمسح ، ويتنفس ثم تمسح ، فإنها لا تخلو عن كدورة .

وقد قال صلى الله عليه وسلم[٢] « الْقُلُوبُ أَرْبَعَةٌ قَلْبٌ أَجْرَدُ فِيهِ سِرَاجٌ يُزْهِرُ فَذَلِكَ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ وَقَلْبٌ أَسْوَدُ مَنْكُوسٌ فَذَلِكَ قَلْبُ الْكَافِرِ وَقَلْبٌ أَغْلَفُ مَرْبُوطٌ عَلَى غِلاَفِهِ فَذَلِكَ قَلْبُ الْمُنَافِقِ وَقَلْبٌ مُصْفَحٌ فِيهِ إِيمَانٌ وَنِفَاقٌ فَمَثَلُ الْإِيمَانِ فِيهِ كَمَثَلِ الْبَقْلَةِ

---

(١) حديث قلب المؤمن أجرد فيه سراج يزهر ـ الحديث : أحمد والطبراني في الصغير من حديث أبي سعيد وهو بعض الحديث الذي يليه

(٢) حديث القلوب أربعة قلب أجرد فيه سراج يزهر ـ الحديث : أحمد والطبراني في الصغير من حديث أبي سعيد الخدري وقد تقدم

---

(١) المطففين : ١٤ (٢) الاعراف : ١٠٠ (٣) المائدة : ١٠٨ (٤) البقرة : ٢٨٢

يَمُدُّهَا المَاءُ الطَّيِّبُ وَمَثَلُ النِّفَاقِ فِيهِ كَمَثَلِ القَرْحَةِ يَمُدُّهَا القَيْحُ وَالصَّدِيدُ فَأَيُّ المَادَّتَيْنِ غَلَبَتْ عَلَيْهِ حُكِمَ لَهُ بِهَا » وفى رواية « ذَهَبَتْ بِهِ » قال الله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ[1])فأخبر أن جلاء القلب وإبصاره يحصل بالذكر ، وأنه لايتمكن منه إلا الذين اتقوا . فالتقوى باب الذكر ، والذكر باب الكشف، والكشف باب الفوز الأكبر ، وهو الفوز بلقاء الله تعالى

بيان

مثل القلب بالإضافة إلى العلوم خاصة

اعلم أن محل العلم هو القلب ، أعنى اللطيفة المدبرة لجميع الجوارح ، وهي المطاعة المخدومة من جميع الأعضاء ، وهى بالإضافة إلى حقائق المعلومات كالمرآة بالإضافة إلى صور المتلونات. فكما أن للمتلون صورة ، ومثال تلك الصورة ينطبع فى المرآة ويحصل بها ، كذلك لكل معلوم حقيقة ، ولتلك الحقيقة صورة تنطبع فى مرآة القلب وتتضح فيها . وكما أن المرآة غير ، وصور الأشخاص غير ، وحصول مثالها فى المرآة غير ، فهى ثلاثة أمور ، فكذلك ههنا ثلاثة أمور ، القلب ، وحقائق الأشياء ، وحصول نفس الحقائق فى القلب وحضورها فيه . فالعالم عبارة عن القلب الذى فيه يحل مثال حقائق الأشياء ، والمعلوم عبارة عن حقائق الأشياء ، والعلم عبارة عن حصول المثال فى المرآة

وكما أن القبض مثلا يستدعى قابضا كاليد ، ومقبوضا كالسيف ، ووصولا بين السيف واليد بحصول السيف فى اليد ويسمى قبضا ، فكذلك وصول مثال المعلوم إلى القلب يسمى علما . وقد كانت الحقيقة موجودة ، والقلب موجودا ، ولم يكن العلم حاصلا ، لأن العلم عبارة عن وصول الحقيقة إلى القلب . كما أن السيف موجود ، واليد موجودة ، ولم يكن اسم القبض والأخذ حاصلا ، لعدم وقوع السيف فى اليد

نعم القبض عبارة عن وصول السيف بعينه فى اليد ، والمعلوم بعينه لايحصل فى القلب ، فمن علم النار لم تحصل عين النار فى قلبه ، ولكن الحاصل حدها وحقيقتها المطابقة لصورتها ، فتمثيله بالمرآة أولى ، لأن عين الإنسان لا تحصل فى المرآة ، وإنما يحصل مثال مطابق له .

---

[1] الاعراف : ٢٠١

وكذا حصول مثل مطابق لحقيقة العلوم فى القلب يسمى علما . وكما أن المرآة لاتنكشف فيها الصورة لخمسة أمور .

أحدها : نقصان صورتها ، كجوهر الحديد قبل أن يدور ويشكل ويصقل

والثانى : لخبثه وصدئه وكدورته ، وإن كان تام الشكل

والثالث . لكونه معدولا به عن جهة الصورة إلى غيرها ، كما إذا كانت الصورة وراء المرآة

والرابع . لحجاب مرسل بين المرآة والصورة

والخامس : للجهل بالجهة التى فيها الصورة المطلوبة ، حتى يتعذر بسببه أن يحاذى بها شطر الصورة وجهتها

فكذلك القلب مرآة مستعدة لأن ينجلى فيها حقيقة الحق فى الأمور كلها . وإنما خلت القلوب عن العلوم التى خلت عنها لهذه الأسباب الخمسة

أولها : نقصان فى ذاته ، كقلب الصبى ، فإنه لا ينجلى له المعلومات لنقصانه .

والثانى : لكدورة المعاصى والخبث الذى يتراكم على وجه القلب من كثرة الشهوات ، فإن ذلك يمنع صفاء القلب وجلاءه فيمتنع ظهور الحق فيه لظلمته وتراكمه . وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم [1] « مَنْ قَارَفَ ذَنْباً فَارَقَهُ عَقْلٌ لاَ يَعُودُ إِلَيْهِ أَبَداً » أى حصل فى قلبه كدورة لايزول أثرها . إذ غايته أن يتبعه بحسنة يمحوه بها ، فلوجاء بالحسنة ولم تتقدم السيئة ، لازداد لامحالة إشراق القلب . فلما تقدمت السيئة ، سقطت فائدة الحسنة ، لكن عاد القلب بها إلى ما كان قبل السيئة ، ولم يزدد بها نورا . فهذا خسران مبين، ونقصان لاحيلة له . فليست المرآة التى تتدنس ثم تمسح بالمصقلة ، كالتى تمسح بالمصقلة لزيادة جلائها من غير دنس سابق . فالإقبال على طاعة الله ، والإعراض عن مقتضى الشهوات : هو الذى يجلو القلب ويصفيه . ولذلك قال الله تعالى (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا [1]) وقال صلى الله عليه وسلم [2] « مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَرَّثَهُ اللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ »

---

(١) حديث من قارف ذنبا فارقه عقل لايعود اليه أبدا : لم أر له أصلا

(٢) حديث من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم : أبو نعيم فى الحلية من حديث أنس وقد تقدم فى العلم

---

(١) العنكبوت : ٦٩

الثالث . أن يكون معدولا به عن جهة الحقيقة المطلوبة . فإن قلب للطيع الصالح، وإن كان صافيا ، فإنه ليس يتضح فيه جلية الحق ، لأنه ليس يطلب الحق ، وليس محاذيا بمرآته شطر المطلوب ، بل ربما يكون مستوعب الهم بتفصيل الطاعات البدنية ، أو بتهيئة أسباب المعيشة ، ولا يصرف فكره إلى التأمل فى حضرة الربوبية ، والحقائق الخفية الإلهية فلا ينكشف له إلا ماهو متفكر فيه من دقائق آفات الأعمال ، وخفايا عيوب النفس ، إن كان متفكرا فيها ، أو مصالح المعيشة إن كان متفكرا فيها . وإذا كان تقييدا لهم بالأعمال وتفصيل الطاعات مانعا عن انكشاف جلية الحق ، فما ظنك فيمن صرف الهم إلى الشهوات الدنيوية ولذاتها وعلائقها ؟ فكيف لا يمنع عن الكشف الحقيقى !

الرابع : الحجاب . فإن المطيع القاهر لشهواته ، المتجرد الفكر فى حقيقة من الحقائق قد لا ينكشف له ذلك ، لكونه محجوبا عنه باعتقاد سبق إليه منذ الصبا ، على سبيل التقليد والقبول بحسن الظن ، فإن ذلك يحول بينه وبين حقيقة الحق ، ويمنع من أن ينكشف فى قلبه خلاف ماتلقفه من ظاهر التقليد . وهذا أيضا حجاب عظيم ، به حجب أكثر المتكلمين والمتعصبين للمذاهب ، بل أكثر الصالحين المتفكرين فى ملكوت السموات والأرض ، لأنهم محجوبون باعتقادات تقليدية ، جمدت فى نفوسهم ، ورسخت فى قلوبهم وصارت حجابا بينهم وبين درك الحقائق

الخامس الجهل بالجهة التى يقع منها العثور على المطلوب . فإن طالب العلم ليس يمكنه أن يحصل العلم بالمجهول ، إلا بالتذكر للعلوم التى تناسب مطلوبه ، حتى إذا تذكرها ، ورتبها فى نفسه ترتيبا مخصوصا يعرفه العلماء بطرق الاعتبار ، فعند ذلك يكون قد عثر على جهة المطلوب ، فتنجلى حقيقة المطلوب لقلبه . فإن العلوم المطلوبة التى ليست فطرية ، لا تقتنص إلا بشبكة العلوم الحاصلة . بل كل علم لا يحصل إلا عن علمين سابقين ، يأتلفان ويزدوجان على وجه مخصوص ، فيحصل من ازدواجهما علم ثالث ، على مثال ما يحصل النتاج من ازدواج الفحل والأنثى . ثم كما أن من أراد أن يستنتج رمكة لم يمكنه ذلك من حمار وبعير وإنسان بل من أصل مخصوص من الخيل الذكر والأنثى ، وذلك إذا وقع بينهما ازدواج مخصوص فكذلك كل علم فله أصلان مخصوصان ، وبينهما طريق فى الازدواج ، يحصل من ازدواجهما العلم المستفاد المطلوب

فالجهل بتلك الأصول، وبكيفية الازدواج، هو المانع من العلم . ومثاله ماذكرناه من الجهل بالجهة التي الصورة فيها . بل مثاله أن يريد الانسان أن يرى قفاه مثلا بالمرآة . فإنه إذا رفع المرآة بازاء وجهه لم يكن قد حاذى بها شطر القفا، فلا يظهر فيها القفا . وإن رفعها وراء القفا وحاذاه، كان قد عدل بالمرآة عن عينه، فلا يرى المرآة ولا صورة القفا فيها، فيحتاج الى مرآة أخرى ينصبها وراء القفا، وهذه في مقابلتها بحيث يبصرها، ويرعى مناسبة بين وضع المرآتين، حتى تنطبع صورة القفا في المرآة المحاذية للقفا، ثم تنطبع صورة هذه المرآة في المرآة الأخرى التي في مقابلة العين، ثم تدرك العين صورة القفا فكذلك في اقتناص العلوم طرق عجيبة ، فيها ازورارات وتحريفات أعجب مما ذكرناه في المرآة، يعز على بسيط الارض من يهتدي إلى كيفية الحيلة في تلك الازورارات

فهذه هي الاسباب المانعة للقلوب من معرفة حقائق الأمور . وإلا فكل قلب فهو بالفطرة صالح لمعرفة الحقائق ، لأنه أمر رباني شريف ، فارق سائر جواهر العلم بهذه الخاصية والشرف . وإليه الاشارة بقوله عز وجل (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ [1]) اشارة الى أن له خاصية تميز بها عن السموات والارض والجبال ، بها صار مطيقا لحمل أمانة الله تعالى وتلك الأمانة هي المعرفة والتوحيد ، وقلب كل آدمي مستعد لحمل الأمانة ومطيق لها في الاصل ، ولكن يثبطه عن النهوض بأعبائها والوصول الى تحقيقها ، الأسباب التي ذكرناها . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [1] « كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ وَإِنَّمَا أَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ » وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] « لَوْلَا أَنَّ الشَّيَاطِينَ يَحُومُونَ عَلَى قُلُوبِ بَنِي آدَمَ لَنَظَرُوا إِلَى مَلَكُوتِ السَّمَاءِ » إشارة إلى بعض هذه الاسباب التي هي الحجاب بين القلب وبين الملكوت . وإليه الاشارة بما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قيل لرسول الله يارسول الله [3] اين الله ؟ في الارض أو في السماء ؟ قال « فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ » وفي الخبر قال الله تعالى

---

(١) حديث كل مولود يولد على الفطرة ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة

(٢) حديث لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم ـ الحديث : تقدم

(٣) حديث ابن عمر أين الله قال في قلوب عباده المؤمنين : لم أجده بهذا اللفظ وللطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني يرفعه الى النبي صلى الله عليه وسلم قال ان لله آنية من اهل الارض وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين الحديث فيه بقية بن الوليد وهو مدلس لكنه صرح فيه بالتحديث

(١) الاحزاب : ٧٢

[1] « لَمْ يَسَعْنِي أَرْضِي وَلاَ سَمَائِي وَوَسِعَنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ اللَّيِّنِ الْوَادِعِ » وفي الخبر أنه [2] قيل يارسول الله ، من خير الناس؟ فقال « كُلُّ مُؤْمِنٍ مَخْمُومِ الْقَلْبِ » فقيل وما مخموم القلب؟ فقال « هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ الَّذِي لاَ غِشَّ فِيهِ وَلاَ بَغْيَ وَلاَ غَدْرَ وَلاَ غِلَّ وَلاَ حَسَدَ » ولذلك قال عمر رضى الله عنه : رأى قلبي ربي. إذ كان قد رفع الحجاب بالتقوى ، ومن ارتفع الحجاب بينه وبين الله تجلى صورة الملك والملكوت فى قلبه ، فيرى جنة عرض بعضها السموات والارض ، أما جملتها فأكثر سعة من السموات والأرض ، لأن السموات والأرض عبارة عن عالم الملك والشهادة ، وهو وإن كان واسع الأطراف ، متباعد الأكناف ، فهو متناه على الجملة ، وأما عالم الملكوت ، وهى الأسرار الغائبة عن مشاهدة الأبصار ، المخصوصة بإدراك البصائر ، فلانهاية له. نعم الذى يلوح للقلب منه مقدار متناه، ولكنه فى نفسه وبالإضافة إلى علم الله ، لانهاية له . وجملة عالم الملك والملكوت إذا أخذت دفعة واحدة، تسمى الحضرة الربوبية ، لأن الحضرة الربوبية محيطة بكل الموجودات ، إذ ليس فى الوجود شىء سوى الله تعالى وأفعاله ، ومملكته وعبيده من أفعاله . فما يتجلى من ذلك للقلب هى الجنة بعينها عنه قوم : وهو سبب استحقاق الجنة عند أهل الحق، ويكون سعة ملكه فى الجنة بحسب سعة معرفته، وبمقدار ما تجلى له من الله وصفاته وأفعاله. وإنما مراد الطاعات وأعمال الجوارح كلها تصفية القلب وتزكيته وجلاؤه، قد أفلح من زكاها، ومراد تزكيته حصول أنوار الإيمان فيه ، أعنى اشراق نور المعرفة ، وهو المراد بقوله تعالى (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلاَمِ [1]) وبقوله (أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلاَمِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ [2])

نعم هذا التجلى وهذا الإيمان له ثلاث مراتب :

المرتبة الأولى : إيمان العوام ، وهو إيمان التقليد المحض

والثانية: إيمان المتكلمين، وهو ممزوج بنوع استدلال، ودرجته قريبة من درجة إيمان العوام

---

(١) حديث قال الله ماوسعنى أرضى ولاسمائى ووسعنى قلب عبدى المؤمن اللين الوادع : لم أر له أصلا وفى حديث أبى عتبة قبله عند الطبرانى بعد قوله وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين وأحبها اليه ألينها وأرقها

(٢) حديث قيل من خير الناس قال كل مؤمن مخموم القلب ـ الحديث: هـ من حديث عبدالله بن عمر باسناد صحيح

(١) الأنعام : ١٢٥ (٢) الزمر : ٢٢

والثالثة : إيمان العارفين ، وهو المشاهد بنور اليقين

ونبين لك هذه المراتب بمثال ، وهو أن تصديقك بكون زيد مثلا فى الدار له ثلاث درجات :

الأولى : أن يخبرك من جربته بالصدق ، ولم تعرفه بالكذب ، ولا اتهمته فى القول ، فإن قلبك يسكن إليه ، ويطمئن بخبره بمجرد السماع ، وهذا هو الإيمان بمجرد التقليد وهو مثل إيمان العوام . فإنهم لما بلغوا سن التمييز ، سمعوا من آبائهم وأمهاتهم وجود الله تعالى ، وعلمه وإرادته وقدرته وسائر صفاته ، وبعثة الرسل وصدقهم وما جاءوا به ، وكما سمعوا به قبلوه ، وثبتوا عليه ، واطمأنوا إليه ، ولم يخطر ببالهم خلاف ما قالوه لهم ، لحسن ظنهم بآبائهم وأمهاتهم ومعلميهم . وهذا الإيمان سبب النجاة فى الآخرة ، وأهله من أوائل رتب أصحاب اليمين ، وليسوا من المقربين . لأنه ليس فيه كشف وبصيرة وانشراح صدر بنور اليقين ، إذ الخطأ ممكن فيما سمع من الآحاد ، بل من الاعداد ، فيما يتعلق بالاعتقادات فقلوب اليهود والنصارى أيضا مطمئنة بما يسمعونه من آبائهم وأمهاتهم ، إلا أنهم اعتقدوا ما اعتقدوه خطأ ، لأنهم ألقى إليهم الخطأ . والمسلمون اعتقدوا الحق ، لا لإطلاعهم عليه ، ولكن ألقى إليهم كلمة الحق .

الرتبة الثانية : أن تسمع كلام زيد وصوته من داخل الدار ، ولكن من وراء جدار ، فتستدل به على كونه فى الدار . فيكون إيمانك وتصديقك ويقينك بكونه فى الدار أقوى من تصديقك بمجرد السماع . فإنك إذا قيل لك إنه فى الدار ، ثم سمعت صوته ، ازددت به يقينا ، لأن الأصوات تدل على الشكل والصورة عند من يسمع الصوت فى حال مشاهدة الصورة ، فيحكم قلبه بأن هذا صوت ذلك الشخص . وهذا إيمان ممزوج بدليل . والخطأ أيضا ممكن أن يتطرق إليه ، إذ الصوت قد يشبه الصوت ، وقد يمكن التكلف بطريق المحاكاة ، إلا أن ذلك قد لا يخطر ببال السامع ، لأنه ليس يجعل للتهمة موضعا ، ولا يقدر فى هذا التلبيس والمحاكاة غرضا

الرتبة الثالثة: أن تدخل الدار فتنظر إليه بعينك وتشاهده . وهذه هى المعرفة الحقيقية ، والمشاهدة اليقينية ، وهى تشبه معرفة المقربين والصديقين ، لأنهم يؤمنون عن مشاهدة ،

فينطوى فى إيمانهم إيمان العوام والمتكلمين ، ويتميزون بمزية بينة يستحيل معها إمكان الخطأ . نعم وهم أيضا يتفاوتون بمقادير العلوم ، وبدرجات الكشف . أما درجات العلوم فمثاله أن يبصر زيدا فى الدار عن قرب ، وفى صحن الدار ، فى وقت إشراق الشمس ، فيكمل له إدراكه . والآخر يدركه فى بيت ، أو من بعد ، أوفى وقت عشية ، فيتمثل له فى صورته ما يستيقن معه أنه هو ، ولكن لايتمثل فى نفسه الدقائق والخفايا من صورته . ومثل هذا متصور فى تفاوت المشاهدة للأمور الإلهية . وأما مقادير العلوم ، فهو بأن يرى فى الدار زيدا وعمرا وبكرا وغير ذلك، وآخر لايرى إلا زيدا، فمعرفة ذلك تزيد بكثرة المعلومات لا محالة فهذا حال القلب بالإضافة إلى العلوم والله تعالى أعلم بالصواب

بيان

حال القلب بالإضافة إلى أقسام العلوم العقلية والدينية والدنيوية والأخروية

اعلم أن القلب بغريزته مستعد لقبول حقائق المعلومات كما سبق ، ولكن العلوم التى تحل فيه تنقسم إلى عقلية ، وإلى شرعية ، والعقلية تنقسم إلى ضرورية ، ومكتسبة ، والمكتسبة إلى دنيوية ، وأخروية ، أما العقلية ، فنعنى بها ما تقضى بها غريزة العقل ، ولا توجد بالتقليد والسماع . وهى تنقسم إلى ضرورية ، لايدرى من اين حصلت ، وكيف حصلت ، كعلم الإنسان بأن الشخص الواحد لا يكون فى مكانين ، والشيء الواحد لا يكون حادثا قديما ، موجودا معدوما معا ، فإن هذه علوم يجد الإنسان نفسه منذ الصبا مفطوراً عليها ، ولا يدرى متى حصل له هذا العلم ، ولا من اين حصل له . أعنى أنه لايدرى له سببا قريبا . وإلا فليس يخفى عليه أن الله هو الذى خلقه وهداه . وإلى علوم مكتسبة ، وهى المستفادة بالتعلم والاستدلال. وكلا القسمين قد يسمى عقلا . قال علي رضى الله عنه

رأيت العقل عقلين   فمطبوع ومسموع
ولا ينفع مسموع   إذا لم يك مطبوع
كما لاتنفع الشمس   وضوء العين ممنوع

والأول :هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم لعلي[1] « مَا خَلَقَ اللَّهُ خَلْقاً أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنَ الْعَقْلِ » والثاني: هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم لعلى رضي الله عنه[2] « إِذَا تَقَرَّبَ النَّاسُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِأَنْوَاعِ الْبِرِّ فَتَقَرَّبْ أَنْتَ بِعَقْلِكَ » إذ لا يمكن التقرب بالغريزة الفطرية، ولا بالعلوم الضرورية ، بل بالمكتسبة . ولكن مثل علي رضى الله عنه ، هو الذى يقدر على التقرب باستعمال العقل فى اقتناص العلوم التى بها ينال القرب من رب العالمين . فالقلب جار مجرى العين ، وغريزة العقل فيه جارية مجرى قوة البصر فى العين . وقوة الابصار لطيفة تفقد فى العمى ، وتوجد فى البصر وإن كان قد غمض عينيه أو جن عليه الليل. والعلم الحاصل منه فى القلب جار مجرى قوة إدراك البصر فى العين ، ورؤيته لأعيان الأشياء. وتأخر العلوم عن عين العقل فى مدة الصبا إلى أوان التمييز أو البلوغ ، يضاهى تأخر الرؤية عن البصر إلى أوان إشراق الشمس وفيضان نورها على المبصرات . والقلم الذى سطر الله به العلوم على صفحات القلوب ، يجرى مجرى قرص الشمس. وإنما لم يحصل العلم فى قلب الصبي قبل التمييز ، لأن لوح قلبه لم يتهيأ بعد لقبول نقش العلم . والقلم عبارة عن خلق من خلق الله تعالى،جعله سببا لحصول نقش العلوم فى قلوب البشر . قال الله تعالى (الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ[1]) وقلم الله تعالى لا يشبه قلم خلقه ، كما لا يشبه وصفه وصف خلقه فليس قلمه من قصب ولا خشب ، كما أنه تعالى ليس من جوهر ولا عرض .فالموازنة بين البصيرة الباطنة والبصر الظاهر صحيحة من هذه الوجوه ،إلا أنه لا مناسبة بينهما فى الشرف فإن البصيرة الباطنة هى عين النفس التي هى اللطيفة المدركة ، وهى كالفارس، والبدن كالفرس ، وعمى الفارس أضر على الفارس من عمى الفرس ، بل لا نسبة لأحد الضررين الى الآخر

ولموازنة البصيرة الباطنة للبصر الظاهر ، سماه الله تعالى باسمه فقال (مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى[2]) سمى إدراك الفؤاد رؤية.وكذلك قوله تعالى(وَكَذَٰلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ[3]) وما أراد به الرؤية الظاهرة ،فإن ذلك غير مخصوص بابراهيم عليه السلام

---

(١) حديث ما خلق الله خلقا أكرم عليه من العقل: ت الحكيم فى نوادر الاصول باسناد ضعيف وقد تقدم فى العلم

(٢) حديث إذا تقرب الناس إلى الله بأنواع البر فتقرب أنت بعقلك:أبو نعيم من حديث علي باسناد ضعيف

---

(١) العلق : ٤ (٢) النجم : ١١ (٣) الانعام : ٧٥

حتى يعرض فى معرض الامتنان . ولذلك سمى ضد إدراكه عمى ، فقال تعالى (فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَـٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ [١]) وقال تعالى (وَمَن كَانَ فِي هَـٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا [٢]) فهذا بيان العلم العقلى

أما العلوم الدينية ، فهى المأخوذة بطريق التقليد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه وذلك يحصل بالتعلم لكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وفهم معانيهما بعد السماع . وبه كمال صفة القلب ، وسلامته عن الادواء والأمراض ، فالعلوم العقلية غير كافية فى سلامة القلب ، وإن كان محتاجا اليها . كما أن العقل غير كاف فى استدامة صحة أسباب البدن ، بل يحتاج إلى معرفة خواص الأدوية والعقاقير بطريق التعلم من الأطباء . إذ مجرد العقل لا يهتدى إليه ، ولكن لا يمكن فهمه بعد سماعه إلا بالعقل ، فلا غنى بالعقل عن السماع ، ولا غنى بالسماع عن العقل . فالداعى إلى محض التقليد مع عزل العقل بالكلية جاهل ، والمكتفى بمجرد العقل عن أنوار القرءان والسنة مغرور . فإياك أن تكون من أحد الفريقين ، وكن جامعا بين الأصلين ، فإن العلوم العقلية كالأغذية ، والعلوم الشرعية كالأدوية . والشخص المريض يستضر بالغذاء متى فاته الدواء . فكذلك أمراض القلوب لا يمكن علاجها إلا بالأدوية المستفادة من الشريعة ، وهى وظائف العبادات والأعمال التى ركبها الأنبياء صلوات الله عليهم لإصلاح القلوب . فمن لا يداوى قلبه المريض بمعالجات العبادة الشرعية ، واكتفى بالعلوم العقلية ، استضر بها كما يستضر المريض بالغذاء

وظن من يظن أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية ، وأن الجمع بينهما غير ممكن ، هو ظن صادر عن عمى فى عين البصيرة ، نعوذ بالله منه . بل هذا القائل ربما يناقض عنده بعض العلوم الشرعية لبعض ، فيعجز عن الجمع بينهما ، فيظن أنه تناقض فى الدين ، فيتحير به ، فينسل من الدين انسلال الشعرة من العجين . وانما ذلك لأن عجزه فى نفسه خيل إليه نقصا فى الدين ، وهيهات . وإنما مثاله مثال الأعمى الذى دخل دار قوم ، فتعثر فيها بأوانى الدار ، فقال لهم ما بال هذه الأوانى تركت على الطريق؟ لم لا ترد إلى موضعها ؟ فقالوا له تلك الأوانى

(١) الحج : ٤٦ (٢) الاسراء : ٧٢

فى مواضعها ، وإنما أنت لست تهتدى للطريق لعماك ، فالعجب منك أنك لاتحيل عثرتك على عماك ، وإنما تحيلها على تقصير غيرك.

فهذه نسبة العلوم الدينية إلى العلوم العقلية

والعلوم العقلية تنقسم الى دنيوية وأخروية . فالدنيوية كعلم الطب ، والحساب والهندسة والنجوم ، وسائر الحرف والصناعات . والأخروية كعلم أحوال القلب ، وآفات الأعمال والعلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله ، كما فصلناه فى كتاب العلم . وهما علمان متنافيان : أعنى أن من صرف عنايته إلى أحدهما حتى تعمق فيه ،قصرت بصيرته عن الآخر على الأكثر . ولذلك ضرب علي رضى الله عنه للدنيا والآخرة ثلاثة أمثلة فقال : هما ككفتى الميزان ، وكالمشرق والمغرب ، وكالضرتين ، إذا أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى . ولذلك ترى الأكياس فى أمور الدنيا وفى علم الطب والحساب والهندسة والفلسفة ، جهالا فى أمور الآخرة . والأكياس فى دقائق علوم الآخرة ، جهالا فى أكثر علوم الدنيا . لأن قوة العقل لاتفى بالأمرين جميعا فى الغالب ، فيكون أحدهما مانعا من الكمال فى الثانى . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [١] « إِنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْبُلْهُ » أى البله فى أمور الدنيا . وقال الحسن فى بعض مواعظه : لقد أدركنا أقواما لو رأيتموهم لقلتم مجانين ، ولو أدركوكم لقالوا شياطين . فمهما سمعت أمرا غريبا من أمور الدين جحده أهل الكياسة فى سائر العلوم ، فلا يغرنك جحودهم عن قبوله ، إذ من المحال أن يظفر سالك طريق المشرق بما يوجد فى المغرب . فكذلك يجرى أمر الدنيا والآخرة . ولذلك قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا [١]) الآية وقال تعالى (يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ [٢]) وقال عز وجل(فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ [٣]) فالجمع بين كمال الاستبصار فى مصالح الدنيا والدين ، لايكاد يتيسر إلا لمن رسخه الله لتدبير عباده فى معاشهم ومعادهم ، وهم الأنبياء

---

(١) حديث أكثر أهل الجنة البله : البزار من حديث أنس وضعفه وصححه القرطبى فى التذكرة وليس كذلك فقد قال ابن عدى أنه منكر

---

(١) يونس : ٧ (٢) الروم : ٧ (٣) النجم : ١٩ و ٣٠

المؤيدون بروح القدس ، المستمدون من القوة الالهية ، التى تتسع لجميع الأمور ولا تضيق عنها . فأما قلوب سائر الخلق فإنها إذا استقلت بأمر الدنيا انصرفت عن الآخرة ، وقصرت عن الإستكمال فيها

بيان

الفرق بين الإلهام والتعلم والفرق بين طريق الصوفية فى استكشاف الحق وطريق النظار

اعلم أن العلوم التى ليست ضرورية ، وإنما تحصل فى القلب فى بعض الأحوال ، تختلف الحال فى حصولها : فتارة تهجم على القلب كأنه ألقى فيه من حيث لا يدرى ، وتارة تكتسب بطريق الاستدلال والتعلم . فالذى يحصل لا بطريق الاكتساب وحيلة الدليل يسمى إلهاما والذى يحصل بالاستدلال يسمى اعتبارا واستبصارا . ثم الواقع فى القلب بغير حيلة وتعلم واجتهاد من العبد ، ينقسم إلى ما لا يدرى العبد أنه كيف حصل له ، ومن أين حصل ، وإلى ما يطلع معه على السبب الذى منه استفاد ذلك العلم ، وهو مشاهدة الملك الملقى فى القلب والأول يسمى إلهاما ونفثا فى الروع ، والثانى يسمى وحيا وتختص به الأنبياء ، والأول يختص به الأولياء والأصفياء ، والذى قبله . وهو المكتسب بطريق الاستدلال ، يختص به العلماء

وحقيقة القول فيه أن القلب مستعد لأن تنجلى فيه حقيقة الحق فى الأشياء كلها . وإنما حيل بينه وبينها بالأسباب الخمسة التى سبق ذكرها . فهى كالحجاب المسدل الحائل بين مرآة القلب وبين اللوح المحفوظ ، الذى هو منقوش بجميع ما قضى الله به إلى يوم القيامة وتجلى حقائق العلوم من مرآة اللوح فى مرآة القلب ، يضاهى انطباع صورة من مرآة فى مرآة تقابلها ، والحجاب بين المرآتين تارة يزال باليد ، وأخرى يزول بهبوب الرياح تحركه . وكذلك قد تهب رياح الألطاف ، وتنكشف الحجب عن أعين القلوب ، فينجلى فيها بعض ما هو مسطور فى اللوح المحفوظ . ويكون ذلك تارة عند المنام فيعلم به ما يكون فى المستقبل ، وتمام ارتفاع الحجاب بالموت ، فيه ينكشف الغطاء . وينكشف أيضا فى اليقظة

حتى يرتفع الحجاب بلطف خفي من الله تعالى ، فيلمع فى القلوب من وراء ستر الغيب شيء من غرائب العلم ، تارة كالبرق الخاطف ، وأخرى على التوالى إلى حد ما ، ودوامه فى غاية الندور . فلم يفارق الإلهام الاكتساب فى نفس العلم ، ولا فى محله ، ولا فى سببه ، ولكن يفارقه من جهة زوال الحجاب . فإن ذلك ليس باختيار العبد . ولم يفارق الوحى الإلهام فى شيء من ذلك ، بل فى مشاهدة الملك المفيد للعلم ، فإن العلم إنما يحصل فى قلوبنا بواسطة الملائكة ، وإليه الإشارة بقوله تعالى (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ[1])

فإذا عرفت هذا ، فاعلم أن ميل أهل التصوف إلى العلوم الإلهامية دون التعليمية ، فلذلك لم يحرصوا على دراسة العلم ، وتحصيل ما صنفه المصنفون ، والبحث عن الأقاويل والأدلة المذكورة ، بل قالوا الطريق تقديم المجاهدة ، ومحو الصفات المذمومة ، وقطع العلائق كلها ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى . ومهما حصل ذلك ، كان الله هو المتولى لقلب عبده ، والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم . وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة ، وأشرق النور فى القلب ، وانشرح الصدر ، وانكشف له سر الملكوت ، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة ، وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية . فليس على العبد إلا الاستعداد بالتصفية المجردة ، وإحضار الهمة ، مع الإرادة الصادقة ، والتعطش التام ، والترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله تعالى من الرحمة . فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر ، وفاض على صدورهم النور ، لا بالتعلم والدراسة والكتابة للكتب ، بل بالزهد فى الدنيا والتبرى من علائقها ، وتفريغ القلب من شواغلها ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى . فمن كان لله كان الله له .

وزعموا أن الطريق فى ذلك أولا بانقطاع علائق الدنيا بالكلية ، وتفريغ القلب منها ، وبقطع الهمة عن الأهل والمال والولد والوطن ، وعن العلم والولاية والجاه ، بل يصير قلبه إلى حالة يستوى فيها وجود كل شيء وعدمه ، ثم يخلو بنفسه فى زاوية ، مع الاقتصار على الفرائض والرواتب ويجلس فارغ القلب ، مجموع الهم ، ولا يفرق فكره بقراءة قرءان ، ولا بالتأمل فى تفسير ،

---

(١) الشورى : ٥١

ولا بكتب حديث ولا غيره ، بل يجتهد أن لا يخطر بباله شيء سوى الله تعالى . فلا يزال بعد جلوسه فى الخلوة قائلا بلسانه الله الله على الدوام ، مع حضور القلب ، حتى ينتهى إلى حالة يترك تحريك اللسان ، ويرى كأن الكلمة جارية على لسانه . ثم يصبر عليه إلى أن يمحى أثره عن اللسان ، ويصادف قلبه مواظبا على الذكر . ثم يواظب عليه إلى أن يمحى عن القلب صورة اللفظ وحروفه وهيئة الكلمة ، ويبقى معنى الكلمة مجردا فى قلبه ، حاضرا فيه ، كأنه لازم له لا يفارقه . وله اختيار إلى أن ينتهى إلى هذا الحد ، واختيار فى استدامة هذه الحالة بدفع الوسواس ، وليس له اختيار فى استجلاب رحمة الله تعالى . بل هو بما فعله صار متعرضا لنفحات رحمة الله. فلا يبقى إلا الانتظار لما يفتح الله من الرحمة ، كما فتحها على الأنبياء والأولياء بهذه الطريق . وعند ذلك إذا صدقت إرادته ، وصفت همته ، وحسنت مواظبته ، فلم تجاذبه شهواته ، ولم يشغله حديث النفس بعلائق الدنيا ، تلمع لوامع الحق فى قلبه ، ويكون فى ابتدائه كالبرق الخاطف لا يثبت ثم يعود ، وقد يتأخر ، وإن عاد فقد يثبت ، وقد يكون مختطفا وإن ثبت قد يطول ثباته ، وقد لا يطول ، وقد يتظاهر أمثاله على التلاحق ، وقد يقتصر على دفن واحد . ومنازل أولياء الله تعالى فيه لا تحصر ، كما لا يحصى تفاوت خلقهم وأخلاقهم. وقد رجع هذا الطريق إلى تطهير محض من جانبك ، وتصفية وجلاء ، ثم استعداد وانتظار فقط

وأما النظار وذوو الاعتبار ، فلم ينكروا وجود هذا الطريق وإمكانه ، وإفضاءه إلى هذا المقصد على الندور ، فإنه أكثر أحوال الأنبياء . والأولياء . ولكن استوعروا هذا الطريق واستبطؤا ثمرته ، واستبعدوا استجماع شروطه ، وزعموا أن محو العلائق إلى ذلك الحد كالمتعذر ، وإن حصل فى حال فثباته أبعد منه ، إذ أدنى وسواس وخاطر يشوش القلب . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « قَلْبُ الْمُؤْمِنِ أَشَدُّ تَقَلُّبًا مِنَ الْقِدْرِ فِي غَلَيَانِهَا » وقال عليه أفضل الصلاة والسلام [2] « قَلْبُ الْمُؤْمِنِ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمٰنِ »

---

(١) حديث قلب المؤمن أشد تقلبا من القدر فى غليانها: أحمد و ك وصححه من حديث المقداد بن الأسود

(٢) حديث قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن: م من حديث عبدالله بن عمرو

وفى أثناء هذه المجاهدة قد يفسد المزاج ، ويختلط العقل ، ويمرض البدن ، وإذا لم تتقدم رياضة النفس وتهذيبها بحقائق العلوم ، نشبت بالقلب خيالات فاسدة ، تطمئن النفس إليها مدة طويلة ، إلى أن يزول وينقضى العمر قبل النجاح فيها

فكم من صوفى سلك هذا الطريق ، ثم بقى فى خيال واحد عشرين سنة ، ولو كان قد أتقن العلم من قبل ، لانفتح له وجه التباس ذلك الخيال فى الحال . فالاشتغال بطريق التعلم أوثق وأقرب إلى الغرض

وزعموا أن ذلك يضاهى مالو ترك الإنسان تعلم الفقه ، وزعم أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يتعلم ذلك : وصار فقيها بالوحى والإلهام ، من غير تكرير وتعليق ، فأنا أيضا ربما انتهت بى الرياضة والمواظبة إليه . ومن ظن ذلك فقد ظلم نفسه ، وضيع عمره ، بل هو كمن يترك طريق الكسب والحراثة ، رجاء العثور على كنز من الكنوز ، فإن ذلك ممكن ، ولكنه بعيد جدا . فكذلك هذا ، وقالوا لا بد أولا من تحصيل ما حصله العلماء ، وفهم ما قالوه ، ثم لا بأس بعد ذلك بالانتظار لما لم ينكشف لسائر العلماء ، فعساه ينكشف بعد ذلك بالمجاهدة

بيان
الفرق بين المقامين بمثال محسوس

اعلم أن عجائب القلب خارجة عن مدركات الحواس ، لأن القلب أيضا خارج عن إدراك الحس . وما ليس مدركا بالحواس تضعف الأفهام عن دركه إلا بمثال محسوس . ونحن نقرب ذلك إلى الأفهام الضعيفة بمثالين :

أحدهما : أنه لو فرضنا حوضا محفورا فى الأرض ، احتمل أن يساق إليه الماء من فوقه بأنهار تفتح فيه ، ويحتمل أن يحفر أسفل الحوض ، ويرفع منه التراب ، إلى أن يقرب من مستقر الماء الصافى ، فينفجر الماء من أسفل الحوض ، ويكون ذلك الماء أصفى وأدوم ، وقد يكون أغزر وأكثر . فذلك القلب مثل الحوض ، والعلم مثل الماء ، وتكون الحواس الخمس

مثال الأنهار . وقد يمكن أن تساق العلوم إلى القلب بواسطة أنهار الخواس ، والاعتبار بالمشاهدات ، حتى يمتلىء علما ، ويمكن أن تسد هـذه الأنهار بالخلوة والعزلة و غض البصر ويعمد إلى عمق القلب بتطهيره ، ورفع طبقات الحجب عنه ، حتى تتفجر ينابيع العلم من داخله

فإن قلت : فكيف يتفجر العلم من ذات القلب ، وهو خال عنه ؟

فاعلم أن هذا من عجائب أسرار القلب ، ولا يسمح بذكره فى علم المعاملة ، بل القـدر الذى يمكن ذكره أن حقائق الأشياء مسطورة فى اللوح المحفوظ ، بل فى قلوب الملائكة المقربين ، فكما أن المهندس يصور أبنية الدار فى بياض ، ثم يخرجها إلى الوجود على وفق تلك النسخة ، فكذلك فاطر السموات والأرض ، كتب نسخة العالم من أوله إلى آخره فى اللوح المحفوظ ، ثم أخرجـه إلى الوجود على وفق تلك النسخة . والعالم الذى خرج إلى الوجود بصورته ، تتأدى منه صورة أخرى إلى الحس والخيال ، فإن من ينظر إلى السماء والأرض ثم يغض بصره ، يرى صورة السماء والأرض فى خياله ، حتى كأنه ينظر إليها ، ولو انعدمت السماء والأرض ، وبقى هو فى نفسه ، لوجد صورة السماء والأرض فى نفسه ، كأنه يشاهدهما وينظر إليهما ، ثم يتأدى من خياله أثر إلى القلب ، فيحصل فيه حقائق الأشياء التى دخلت فى الحس والخيال ، والحاصل فى القلب موافق للعالم الحاصل فى الخيال والحاصل فى الخيال موافق للعالم الموجود فى نفسه خارجا من خيال الإنسان وقلبه ، والعالم الموجود موافق للنسخة الموجودة فى اللوح المحفوظ . فكأن للعالم أربع درجات فى الوجود . وجود فى اللوح المحفوظ ، وهو سابق على وجوده الجسمانى ، ويتبعه وجوده الحقيقى ، ويتبع وجوده الحقيقى وجوده الخيالى ، أعنى وجود صورته فى الخيال ، ويتبع وجوده الخيـالى وجوده العقلى ، أعنى وجود صورته فى القلب . وبعض هذه الموجودات روحانية وبعضها جسمانية ، والروحانية بعضها أشد روحانية من البعض . وهذا الالطف من الحكمة الإلهية ، إذ جعل حدقتك على صغر حجمها . بحيث تنطبع صورة العالم والسموات والأرض على اتساع أكنافها فيها ، ثم يسرى من وجودها فى الحس وجود إلى الخيال ، ثم منه وجود فى القلب ، فإنك أبدا لاتدرك إلا ماهو واصل إليك ، فلو لم يجعل للعالم كله مثالا فى ذاتك ، لما كان لك خبر مما يباين ذاتك .

فسبحان من دبر هذه العجائب فى القلوب والأبصار ، ثم أعمى عن دركها القلوب والأبصار ، حتى صارت قلوب أكثر الخلق جاهلة بأنفسها وبعجائبها

ولنرجع إلى الغرض المقصود فنقول

القلب قد يتصور أن يحصل فيه حقيقة العالم وصورته : تارة من الحواس ، وتارة من اللوح المحفوظ . كما أن العين يتصور أن يحصل فيها صورة الشمس ، تارة من النظر إليها وتارة من النظر إلى الماء الذى يقابل الشمس ويحكى صورتها . فمهما ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ ، رأى الأشياء فيه ، وتفجر إليه العلم منه ، فاستغنى عن الاقتباس من داخل الحواس ، فيكون ذلك كتفجر الماء من عمق الأرض . ومهما أقبل على الخيالات الحاصلة من المحسوسات ، كان ذلك حجابا له عن مطالعة اللوح المحفوظ ، كما أن الماء إذا اجتمع فى الأنهار منع ذلك من التفجر فى الأرض ، وكما أن من نظر إلى الماء الذى يحكى صورة الشمس لا يكون ناظرا إلى نفس الشمس

فإذاً للقلب بابان ، باب مفتوح إلى عالم الملكوت ، وهو اللوح المحفوظ وعالم الملائكة ، وباب مفتوح إلى الحواس الخمس ، المتمسكة بعالم الملك والشهادة . وعالم الشهادة والملك أيضا يحاكى عالم الملكوت نوعا من المحاكاة . فأما انفتاح باب القلب إلى الاقتباس من الحواس فلا يخفى عليك . وأما انفتاح بابه الداخل إلى عالم الملكوت ، ومطالعة اللوح المحفوظ ، فتعلمه علما يقينيا بالتأمل فى عجائب الرؤيا ، واطلاع القلب فى النوم على ما سيكون فى المستقبل ، أو كان فى الماضى ، من غير اقتباس من جهة الحواس . وإنما ينفتح ذلك الباب لمن انفرد بذكر الله تعالى وقال صلى الله عليه وسلم [1] « سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ » قيل ومن هم المفردون يارسول الله ؟ قال « الْمُتَنَزِّهُونَ بِذِكْرِ اللهِ تَعَالَى وَضَعَ الذِّكْرُ عَنْهُمْ أَوْزَارَهُمْ فَوَرَدُوا

---

(١) حديث سبق المفردون قيل ومن هم قال المستهترون بذكر الله ـ الحديث : م من حديث أبى هريرة مقتصرا على أول الحديث : وقال فيه وما المفردون قال الذاكرون الله كثيرا والذاكرات ورواه ك بلفظ قال الذين يستهترون بذكر الله وقال صحيح على شرط الشيخين وزاد فيه البيهقى فى الشعب يضع الذكر عنهم أثقالهم ويأتون يوم القيامة خفافا ورواه هكذا الطبرانى فى المعجم الكبير من حديث أبى الدرداء دون الزيادة التى ذكرها المصنف فى آخره وكلاهما ضعيف

الْقِيَامَةَ خِفَافًا » ثم قال فى وصفهم إخبارا عن الله تعالى « ثُمَّ أُقْبِلُ بِوَجْهِي عَلَيْهِمْ أَتَرَى مَنْ وَاجَهْتُهُ بِوَجْهِي يَعْلَمُ أَحَدٌ أَيَّ شَيْءٍ أُرِيدُ أَنْ أُعْطِيَهُ » ثم قال تعالى « أَوَّلُ مَا أُعْطِيهِمْ أَنْ أَقْذِفَ النُّورَ فِي قُلُوبِهِمْ فَيُخْبِرُونَ عَنِّي كَمَا أُخْبِرُ عَنْهُمْ » ومدخل هذه الأخبار هو الباب الباطن

فإذا الفرق بين علوم الأولياء والأنبياء ، وبين علوم العلماء والحكماء هذا ، وهو أن علومهم تأتى من داخل القلب ، من الباب المنفتح إلى عالم الملكوت ، وعلم الحكمة يأتى من أبواب الحواس ، المفتوحة إلى عالم الملك . وعجائب عالم القلب ، وتردده بين عالمى الشهادة والغيب ، لا يمكن أن يستقصى فى علم المعاملة ، فهذا مثال يعلمك الفرق بين مدخل العالمين

المثال الثانى يعرفك الفرق بين العملين ، أعنى عمل العلماء ، وعمل الأولياء : فإن العلماء يعملون فى اكتساب نفس العلوم ، واجتلابها إلى القلب ، وأولياء الصوفية يعملون فى جلاء القلوب ، وتطهيرها وتصفيتها وتصقيلها فقط

فقد حكى أن أهل الصين وأهل الروم ، تباهوا بين يدى بعض الملوك بحسن صناعة النقش والصور ، فاستقر رأى الملك على أن يسلم إليهم صفة ، لينقش أهل الصين منها جانبا وأهل الروم جانبا ، ويرخى بينهما حجاب يمنع اطلاع كل فريق على الآخر . ففعل ذلك . فجمع أهل الروم من الأصباغ الغريبة مالا ينحصر ، ودخل أهل الصين من غير صبغ ، وأقبلوا يجلون جانبهم ويصقلونه . فلما فرغ أهل الروم ، ادعى أهل الصين أنهم قد فرغوا أيضا ، فعجب الملك من قولهم ، وأنهم كيف فرغوا من النقش من غير صبغ . فقيل وكيف فرغتم من غير صبغ ؟ فقالوا ما عليكم ، ارفعوا الحجاب ، فرفعوا ، وإذا بجانبهم يتلألأ منه عجائب الصنائع الرومية ، مع زيادة إشراق وبريق ، إذ كان قد صار كالمرآة المجلوة لكثرة التصقيل فازداد حسن جانبهم بمزيد التصقيل . فكذلك عناية الأولياء بتطهير القلب وجلائه ، وتزكيته وصفائه ، حتى يتلألأ فيه جلية الحق بنهاية الإشراق ، كفعل أهل الصين . وعناية الحكماء والعلماء بالاكتساب ، ونقش العلوم ، وتحصيل نقشها فى القلب ، كفعل أهل الروم

فكيفما كان الأمر فقلب المؤمن لا يموت ، وعلمه عند الموت لا يمحى ، وصفاؤه لا يتكدر . وإليه أشار الحسن رحمة الله عليه بقوله : التراب لا يأكل محل الإيمان . بل يكون

وسيلة وقربة إلى الله تعالى . وأما ما حصله من نفس العلم ، وما حصله من الصفاء والاستعداد لقبول نفس العلم ، فلا غنى به عنه ، ولاسعادة لأحد إلا بالعلم والمعرفة ، وبعض السعادات أشرف من بعض ، كما أنه لاغنى إلا بالمال ، فصاحب الدرهم غنى ، وصاحب الخزائن المترعة غنى ، وتفاوت درجات السعداء بحسب تفاوت المعرفة والإيمان ، كما تتفاوت درجات الأغنياء بحسب قلة المال وكثرته . فالمعارف أنوار ، ولا يسعى المؤمنون إلى لقاء الله تعالى إلا بأنوارهم قال الله تعالى (يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ [1])

وقد روى فى الخبر [1] « إِنَّ بَعْضَهُمْ يُعْطَى نُوراً مِثْلَ الْجَبَلِ وَبَعْضَهُمْ أَصْغَرَ حَتَّى يَكُونَ آخِرُهُمْ رَجُلاً يُعْطَى نُوراً عَلَى إِبْهَامِ قَدَمَيْهِ فَيُضِيءُ مَرَّةً وَيَنْطَفِئُ أُخْرَى فَإِذَا أَضَاءَ قَدَّمَ قَدَمَيْهِ فَمَشَى وَإِذَا طُفِئَ قَامَ وَمُرُورُهُمْ عَلَى الصِّرَاطِ عَلَى قَدْرِ نُورِهِمْ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَطَرْفِ الْعَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالْبَرْقِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالسَّحَابِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَانْقِضَاضِ الْكَوَاكِبِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالْفَرَسِ إِذَا اشْتَدَّ فِى مَيْدَانِهِ وَالَّذِى أُعْطِىَ نُوراً عَلَى إِبْهَامِ قَدَمِهِ يَحْبُو حَبْواً عَلَى وَجْهِهِ وَيَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ يَجُرُّ يَداً وَيُعَلِّقُ أُخْرَى وَيُصِيبُ جَوَانِبَهُ النَّارُ فَلاَ يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يَخْلُصَ » الحديث .

فبهذا يظهر تفاوت الناس فى الإيمان ولو وزن إيمان أبى بكر بإيمان العالمين سوى النبيين والمرسلين لرجح . فهذا أيضا يضاهى قول القائل : لو وزن نور الشمس بنور السرج كلها لرجح ، فإيمان آحاد العوام نوره مثل نور السراج ، وبعضهم نوره كنور الشمع ، وإيمان الصديقين نوره كنور القمر والنجوم ، وإيمان الأنبياء كالشمس . وكما ينكشف فى نور الشمس صورة الآفاق مع اتساع أقطارها ، ولا ينكشف فى نور السراج إلا زاوية ضيقة من البيت

فكذلك تفاوت انشراح الصدر بالمعارف ، وانكشاف سعة الملكوت لقلوب العارفين . ولذلك جاء فى الخبر [2] « أَنَّهُ يُقَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِى قَلْبِهِ مِثْقَالُ

---

(١) حديث إن بعضهم يعطى نورا مثل الجبل حتى يكون أصغرهم رجل يعطى نوره على إبهام قدمه الحديث : الطبرانى وك من حديث ابن مسعود قال ك صحيح على شرط الشيخين

(٢) حديث يقال يوم القيامة أخرجوا من النار من فى قلبه ربع مثقال من إيمان - الحديث : متفق عليه من حديث أبى سعيد وليس فيه قوله ربع مثقال

---

(١) الحديد : ١٢

ذَرَّةٍ مِن إيمَانٍ وَنِصفُ مِثقَالٍ وَرُبعُ مِثقَالٍ وَشَعِيرَةٌ وَذَرَّةٌ » كل ذلك تنبيه على تفاوت درجات الإيمان ، وإن هذه المقادير من الإيمان لا تمنع دخول النار . وفى مفهومه أن من إيمانه يزيد على مثقال فإنه لا يدخل النار ، إذ لو دخل لأمر بإخراجه أولا وأن من فى قلبه ذرة لا يستحق الخلود فى النار وإن دخلها . وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم[1] « لَيسَ شَيْءٌ خَيراً مِنْ أَلفٍ مِثلِهِ إلاَّ الإِنسَانُ المُؤمِنُ » إشارة إلى تفضيل قلب العارف بالله تعالى الموقن . فإنه خير من ألف قلب من العوام

وقد قال تعالى (وَأَنتُمُ الأَعلَونَ إن كُنتُم مُؤمِنِينَ[1]) تفضيلا للمؤمنين على المسلمين والمراد به المؤمن العارف دون المقلد . وقال عز وجل (يَرفَعُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُم وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلمَ دَرَجَاتٍ[2]) فأراد ههنا بالذين آمنوا الذين صدقوا من غير علم ، وميزهم عن الذين أوتوا العلم . ويدل ذلك على أن اسم المؤمن يقع على المقلد ، وإن لم يكن تصديقه عن بصيرة وكشف . وفسر ابن عباس رضى الله عنهما قوله تعالى (وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلمَ دَرَجَاتٍ[3]) فقال يرفع الله العالم فوق المؤمن بسبعمائة درجة ، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض

وقال صلى الله عليه وسلم[2] « أَكثَرُ أَهلِ الجَنَّةِ البُلْهُ وَعِلِّيُّونَ لِذَوِى الأَلبَابِ »
وقال صلى الله عليه وسلم[3] « فَضلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضلِي عَلَى أَدنَى رَجُلٍ مِنْ أَصحَابِى »
وفى رواية « كَفَضلِ القَمَرِ لَيلَةَ البَدرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ »

فبهذه الشواهد يتضح لك تفاوت درجات أهل الجنة بحسب تفاوت قلوبهم ومعارفهم. ولهذا كان يوم القيامة يوم التغابن ، إذ المحروم من رحمة الله عظيم الغبن والخسران ، والمحروم يرى فوق درجته درجات عظيمة ، فيكون نظره إليها كنظر الغنى الذى يملك عشرة دراهم ،

---

(١) حديث ليس شىء خيرا من ألف مثله إلا الانسان المؤمن : الطبرانى من حديث سلمان بلفظ الانسان ولأحمد من حديث ابن عمر لا نعلم شيئا خيرا من مائة مثله إلا الرجل المؤمن وإسنادهما حسن
(٢) حديث أكثر أهل الجنة البله وعليون لذوى الالباب : تقدم دون هذه الزيادة ولم أجد لهذه الزيادة أصلا
(٣) حديث فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أصحابى : ت من حديث أبى أمامة وصححه وقد تقدم فى العلم وكذلك الرواية الثانية

---

(١) آل عمران : ١٣٩ (٢) و (٣) المجادلة : ١١

إلى الغنى الذى يملك الأرض من المشرق إلى المغرب ، وكل واحد منهما غنى ، ولكن ما أعظم الفرق بينهما ! وما أعظم الغبن على من يخسر حظه من ذلك ! وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا .

بيان

شواهد الشرع على صحة طريق أهل التصوف فى اكتساب المعرفة لا من التعلم ولا من الطريق المعتاد

اعلم أن من انكشف له شىء ، ولو الشىء اليسير ، بطريق الإلهام والوقوع فى القلب من حيث لا يدرى ، فقد صار عارفا بصحة الطريق . ومن لم يدرك نفسه قط ، فينبغى أن يؤمن به ، فإن درجة المعرفة فيه عزيزة جدا . ويشهد لذلك شواهد الشرع والتجارب والحكايات

أما الشواهد فقوله تعالى (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا [1]) فكل حكمة تظهر من القلب ، بالمواظبة على العبادة من غير تعلم ، فهو بطريق الكشف والإلهام . وقال صلى الله عليه وسلم [1] « مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَرَّثَهُ اللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ وَوَفَّقَهُ فِيمَا يَعْمَلُ حَتَّى يَسْتَوْجِبَ الْجَنَّةَ وَمَنْ لَمْ يَعْمَلْ بِمَا يَعْلَمْ تَاهَ فِيمَا يَعْلَمُ وَلَمْ يُوَفَّقْ فِيمَا يَعْمَلُ حَتَّى يَسْتَوْجِبَ النَّارَ »

وقال الله تعالى (وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً [2]) من الإشكالات والشبه (وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ [3]) يعلمه علما من غير تعلم ، ويفطنه من غير تجربة . وقال الله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً [4]) قيل نورا يفرق به بين الحق والباطل ، ويخرج به من الشبهات . ولذلك كان صلى الله عليه وسلم يكثر فى دعائه من سؤال النور . فقال عليه الصلاة والسلام [2] « اللَّهُمَّ أَعْطِنِي نُوراً وَزِدْنِي نُوراً وَاجْعَلْ لِي فِي قَلْبِي نُوراً

---

(١) حديث من عمل بما علم ـ الحديث : تقدم فى العلم دون قوله ووفقه فيما يعمل فلم أرها

(٢) حديث اللهم أعطنى نورا وزدنى نورا ـ الحديث : متفق عليه من حديث ابن عباس

---

(١) العنكبوت : ٦٩ (٢) و (٣) الطلاق : ٢ (٤) الانفال : ٢٩

وَفِي قَبْرِي نُوراً وَفِي سَمْعِي نُوراً وَفِي بَصَرِي نُوراً » حتى قال« فِي شَعْرِي وَفِي بَشَرِي وَفِي لَحْمِي وَدَمِي وَعِظَامِي » وسئل صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى [١] (أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ [١]) ماهذا الشرح ؟ فقال « هُوَ التَّوْسِعَةُ إِنَّ النُّورَ إِذَا قُذِفَ بِهِ فِي الْقَلْبِ اتَّسَعَ لَهُ الصَّدْرُ وَانْشَرَحَ »

وقال صلى الله عليه وسلم [٢] لابن عباس « اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ » وقال علي رضي الله عنه [٣] ماعندنا شيء أسره النبي صلى الله عليه وسلم إلينا إلا أن يؤتى الله تعالى عبدا فهما فى كتابه . وليس هذا بالتعلم . وقيل فى تفسير قوله تعالى (يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ [٢]) انه الفهم فى كتاب الله تعالى. وقال تعالى (فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ [٣]) خص ماانكشف باسم الفهم . وكان أبو الدرداء يقول : المؤمن من ينظر بنور الله من وراء ستر رقيق . والله إنه للحق يقذفه الله فى قلوبهم ويجريه على ألسنتهم . وقال بعض السلف : ظن المؤمن كهانة . وقال صلى الله عليه وسلم [٤] « اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ تَعَالَى » وإليه يشير قوله تعالى (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ [٤]) وقوله تعالى (قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ [٥]) وروى الحسن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال [٥] « الْعِلْمُ عِلْمَانِ فَعِلْمٌ بَاطِنٌ فِي الْقَلْبِ فَذَلِكَ هُوَ الْعِلْمُ النَّافِعُ » وسئل بعض العلماء عن العلم الباطن ماهو فقال : هو سر من أسرار الله تعالى يقذفه الله تعالى فى قلوب أحبابه ، لم يطلع عليه ملكا ولا بشرا

---

(١) حديث سئل عن قوله تعالى أفمن شرح الله صدره للاسلام ــ الحديث : وفى المستدرك من حديث ابن مسعود وقد تقدم فى العلم .

(٢) حديث اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل : قاله لابن عباس متفق عليه من حديث ابن عباس دون قوله وعلمه التأويل فاخرجه بهذه الزيادة أحمد وحب وك وصححه وقد تقدم فى العلم

(٣) حديث علي ماعندنا شيء أسره الينا رسول الله صلى الله عليه وسلم الا أن يؤتى الله عبدا فهما فى كتابه تقدم فى آداب تلاوة القرءان

(٤) حديث اتقوا فراسة المؤمن ــ الحديث : ت من حديث أبي سعيد وقد تقدم

(٥) حديث العلم علمان ــ الحديث : تقدم فى العلم

---

(١) الزمر : ٢٢ (٢) البقرة : ٢٦٩ (٣) الانبياء : ٧٩ (٤) الحجر : ٧٥ (٥) البقرة : ١١٨

وقد قال صلى الله عليه وسلم [١] « إِنَّ مِنْ أُمَّتِي مُحَدَّثِينَ وَمُعَلَّمِينَ وَمُكَلَّمِينَ وَإِنَّ عُمَرَ مِنْهُمْ » وقرأ ابن عباس رضى الله عنهما : وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ولا محدث يعنى الصديقين ، والمحدث هو الملهم ، والملهم هو الذى انكشف له فى باطن قلبه من جهة الداخل ، لامن جهة المحسوسات الخارجة . والقرءان مصرح بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف . وذلك علم من غير تعلم

وقال الله تعالى (وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ [١]) خصصها بهم . وقال تعالى (هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ [٢]) وكان أبو يزيد وغيره يقول : ليس العالم الذى يحفظ من كتاب . فإذا نسى ماحفظه صار جاهلا إنما العالم الذى يأخذ علمهُ من ربه أى وقت شاء ، بلا حفظ ولادرس. وهذا هو العلم الربانى وإليه الإشارة بقوله تعالى (وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً [٣]) مع أن كل علم من لدنه ، ولكن بعضها بوسائط تعليم الخلق ، فلا يسمى ذلك علما لدنيا ، بل اللدنى الذى ينفتح فى سر القلب من غير سبب مألوف من خارج . فهذه شواهد النقل . ولو جمع كل ماورد فيه من الآيات والأخبار والآثار لخرج عن الحصر

وأما مشاهدة ذلك بالتجارب ، فذلك أيضا خارج عن الحصر . وظهر ذلك على الصحابة والتابعين ومن بعدهم . وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه لعائشة رضى الله عنها عند موته ، إنما هما أخواك وأختاك ، وكانت زوجته حاملا ، فولدت بنتا . فكان قد عرف قبل الولادة أنها بنت . وقال عمر رضى الله عنه فى أثناء خطبته ، ياسارية الجبل الجبل. إذ انكشف له أن العدو قد أشرف عليه ، فحذره لمعرفته ذلك ، ثم بلوغ صوته إليه من جملة الكرامات العظيمة

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : دخلت على عثمان رضى الله عنه ، وكنت قد لقيت امرأة فى طريق ، فنظرت إليها شزرا ، وتأملت محاسنها ، فقال عثمان رضى الله عنه ، لما دخلت يدخل علي أحدكم وأثر الزنا ظاهر على عينيه ! أما علمت أن زنا العينين النظر ؟ لتتوبن أو لأعزرنك

---

(١) حديث إن من أمتى محدثين ومكلمين وان عمر منهم : خ من حديث أبى هريرة لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون فان يك فى أمتى أحد فانه عمر ورواه م من حديث عائشة

---

(١) يونس : ٦ (٢) آل عمران : ١٣٨ (٣) الكهف : ٦٥

فقلت أوحى بعد النبي ؟ فقال لا ولكن بصيرة وبرهان وفراسة صادقة .

وعن أبي سعيد الخراز قال : دخلت المسجد الحرام فرأيت فقيرا عليه خرقتان ، فقلت فى نفسى هذا وأشباهه كَلٌّ على الناس . فنادانى وقال ، والله يعلم مافى أنفسكم فاحذروه . فاستغفرت الله فى سرى ، فنادانى وقال ، وهو الذى يقبل التوبة عن عباده . ثم غاب عنى ولم أره . وقال زكريابن داود ، دخل أبو العباس بن مسروق على أبى الفضل الهاشمى وهو عليل ، وكان ذا عيال ، ولم يعرف له سبب يعيش به ، قال فلما قمت قلت فى نفسى ، من أين يأكل هذا الرجل ؟ قال فصاح بى ، ياأباالعباس ، ردهذه الهمة الدنية ، فإن لله تعالى ألطافاخفية

وقال أحمد النقيب ، دخلت على الشبلى ، فقال مفتونايا أحمد . فقلت ما الخبر ؟ قال كنت جالسا فجرى بخاطرى أنك بخيل . فقلت ما أنا بخيل . فعاد منى خاطرى وقال بل أنت بخيل فقلت ما فتح اليوم علي بشىء إلا دفعته إلى أول فقير يلقانى . قال فما استتم الخاطر حتى دخل علي صاحب المؤنس الخادم ، ومعه خمسون دينارا ، فقال اجعلها فى مصالحك . قال وقمت فأخذتها وخرجت . وإذا بفقير مكفوف بين يدى مزين يحلق رأسه ، فتقدمت إليه ، وناولته الدنانير ، فقال أعطها المزين ، فقلت إن جملتها كذا وكذا ، قال أوليس قد قلنا لك إنك بخيل؟ قال فناولتها المزين ، فقال المزين ، قد عقدنا لما جلس هذا الفقير بين أيدينا أن لا نأخذ عليه أجرا قال فرميت بها فى دجلة ، وقلت ما أعزك أحد إلا أذله الله عز وجل

وقال حمزة بن عبد الله العلوى ، دخلت على أبى الخير التينانى ، واعتقدت فى نفسى أن أسلم عليه ولا آكل فى داره طعاما ، فلما خرجت من عنده ، إذا به قد لحقنى وقد حمل طبقا فيه طعام وقال ، يافتى كل فقد خرجت الساعة من اعتقادك . وكان أبو الخير التينانى هذا مشهورا بالكرامات ، وقال ابراهيم الرقى ، قصدته مسلما عليه ، فحضرت صلاة المغرب ، فلم يكد يقرأ الفاتحة مستويا ، فقلت فى نفسى ضاعت سفرتى ، فلما سلم خرجت إلى الطهارة فقصدنى سبع ، فعدت إلى أبى الخير ، وقلت قصدنى سبع ، فخرج وصاح به وقال ، ألم أقل لك لا تتعرض لضيفانى ! فتنحى الأسد ، فتطهرت ، فلما رجعت ، قال لى أشتغلتم بتقويم الظاهر فخفتم الأسد ، واشتغلنا بتقويم البواطن فخافنا الأسد

وماحكى من تفرس المشايخ ، وإخبارهم عن اعتقادات الناس وضمائرهم يخرج عن الحصر . بل ماحكي عنهم من مشاهدة الخضر عليه السلام والسؤال منه،سماع صوت الهاتف ومن فنون الكرامات خارج عن الحصر . والحكاية لاتنفع الجاحد مالم يشاهد ذلك من نفسه ، ومن أنكر الأصل أنكر التفصيل

والدليل القاطع الذى لايقدر أحد على جحده أمران :

أحدهما : عجائب الرؤيا الصادقة ، فإنه ينكشف بهاالغيب . وإذا جاز ذلك فى النوم فلا يستحيل أيضافى اليقظة . فلم يفارق النوم اليقظة إلافى ركود الحواس ، وعدم اشتغالها بالمحسوسات،فكم من مستيقظ غائص لايسمع ولايبصر لاشتغاله بنفسه .

الثانى : إخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيب وأمور فى المستقبل ، كمااشتمل عليه القرءان . وإذا جاز ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم جاز لغيره إذ النبي عبارة عن شخص كوشف بحقائق الأمور ، وشغل بإصلاح الخلق ، فلايستحيل أن يكون فى الوجود شخص مكاشف بالحقائق ، ولايشتغل بإصلاح الخلق . وهذا لايسمى نبيا ، بل يسمى وليا ، فمن آمن بالأنبياء ، وصدق بالرؤيا الصحيحة،لزمه لامحالة أن يقر بأن القلب له بابان،باب إلى خارج وهو الحواس، وباب إلى الملكوت من داخل القلب،وهو باب الإلهام والنفث فى الروع والوحى فإذا أقر بهما جميعا،لم يمكنه أن يحصر العلوم فى التعلم ومباشرة الأسباب المألوفة ، بل يجوز أن تكون المجاهدة سبيلا إليه . فهذا ماينبه على حقيقة ماذكرناه، من عجيب تردد القلب بين عالم الشهادة وعالم الملكوت . وأماالسبب فى انكشاف الأمر فى المنام بالمثال المحوج إلى التعبير ، وكذلك تمثل الملائكة للأنبياء والأولياء بصور مختلفة ، فذلك أيضا من أسرار عجائب القلب،ولايليق ذلك إلابعلم المكاشفة .فلنقتصر على ماذكرناه فإنه كاف للاستحثاث على المجاهدة وطلب الكشف منها ، فقد قال بعض المكاشفين ، ظهر لى الملك، فسألنى أن أملى عليه شيئا من ذكرى الخفى عن مشاهدتى من التوحيد ،وقال مانكتب لك عملا ،ونحن نحب أن نصعدلك بعمل تتقرب به إلى الله عز وجل ،فقلت ألستما تكتبان الفرائض ؟ قالا بلى قلت فيكفيكما ذلك . وهذه إشارة إلى أن الكرام الكاتبين لايطلعون على أسرار القلب،وإنما يطلعون على الأعمال الظاهرة . وقال بعض العارفين ، سألت بعض الأبدال عن مسألة

من مشاهدة اليقين ؛ فالتفت إلى شماله فقال ، ما تقول رحمك الله ؟ ثم التفت إلى يمينه فقال ، ما تقول رحمك الله ؟ ثم أطرق إلى صدره وقال ، ما تقول رحمك الله ؟ ثم أجاب بأغرب جواب سمعته ، فسألته عن التفاته فقال ، لم يكن عندى فى المسألة جواب عتيد ، فسألت صاحب الشمال فقال لا أدرى ، فسألت صاحب اليمين وهو أعلم منه فقال لا أدرى ، فنظرت إلى قلبى وسألته فحدثنى بما أجبتك ، فإذا هو أعلم منهما . وكأن هذا هو معنى قوله عليه السلام « إِنَّ فِي أُمَّتِي مُحَدَّثِينَ ، وَإِنَّ عُمَرَ مِنْهُمْ » وفى الأثر أن الله تعالى يقول ، أيما عبد اطلعت على قلبه فرأيت الغالب عليه التمسك بذكرى ، توليت سياسته وكنت جليسه ، ومحادثه وأنيسه . وقال أبو سليمان الدارانى رحمة الله عليه ، القلب بمنزلة القبة المضروبة ، حولها أبواب مغلقة ، فأى باب فتح له عمل فيه . فقد ظهر انفتاح باب من أبواب القلب إلى جهة الملكوت والملأ الأعلى . وينفتح ذلك الباب بالمجاهدة والورع ، والإعراض عن شهوات الدنيا . ولذلك كتب عمر رضى الله عنه إلى أمراء الأجناد ، احفظوا ما تسمعون من المطيعين ، فإنهم ينجلى لهم أمور صادقة . وقال بعض العلماء ، يد الله على أفواه الحكماء ، لا ينطقون إلا بما هيأ الله لهم من الحق . وقال آخر ، لو شئت لقلت إن الله تعالى يطلع الخاشعين على بعض سره .

بيان

تسلط الشيطان على القلب بالوسواس ومعنى الوسوسة وسبب غلبتها

اعلم أن القلب كما ذكرناه مثال قبة مضروبة ، لها أبواب ، تنصب إليه الأحوال من كل باب . ومثاله أيضا مثال هدف ، تنصب إليه السهام من الجوانب . أو هو مثال مرآة منصوبة تجتاز عليها أصناف الصور المختلفة ، فتتراءى فيها صورة بعد صورة ولا تخلو عنها . أو مثال حوض ، تنصب فيه مياه مختلفة ، من أنهار مفتوحة إليه . وإنما مداخل هذه الآثار المتجددة فى القلب فى كل حال ، أما من الظاهر فالحواس الخمس ، وأما من الباطن فالخيال والشهوة والغضب ، والأخلاق المركبة من مزاج الإنسان ، فإنه إذا أدرك بالحواس شيئا حصل

منه أثر فى القلب ، وكـذلك إذا هاجت الشهوة مثلا بسبب كثرة الأكل ، وبسبب قوة فى المزاج ، حصـل منها فى القلب أثر ، وإن كف عن الإحساس . فالخيالات الحاصلة فى النفس تبقى ، وينتقل الخيال من شىء إلى شىء ، وبحسب انتقال الخيال ينتقل القلب من حال إلى حال آخر . والمقصود أن القلب فى التغير والتأثر دائما من هذه الأسباب

وأخص الآثار الحاصلة فى القلب هو الخواطر ، وأعنى بالخواطر ما يحصل فيه من الأفكار والأذكار ، وأعنى به إدراكاته علوما إما على سبيل التجدد ، وإما على سبيل التذكر ، فإنها تسمى خواطر ، من حيث إنها تخطر بعد أن كان القلب غافلا عنها . والخواطر هى المحركات للإرادات . فإن النية والعزم والإرادة ، إنما تـكون بعد خطـور المنوى بالبال لامحالة ، فمبـدأ الأفعال الخواطر ، ثم الخاطر يحـرك الرغبة ، والرغبة تحرك العزم ، والعزم يحرك النية ، والنية تحرك الأعضاء

والخواطر المحركة للرغبة تنقسم إلى ما يدعو إلى الشر ، أعنى إلى ما يضر فى العاقبة ، وإلى ما يدعو إلى الخـير ، أعنى إلى ما ينفع فى الدار الآخرة . فهما خاطران مختلفان ، فافتقرا إلى اسمين مختلفين . فالخطر المحمود يسمى الهـاما ، والخطر المذمـوم ، أعنى الداعى إلى الشر ، يسمى وسواسا . ثم إنك تعلم أن هذه الخواطر حادثة ، ثم أن كل حادث فلا بد له من محدث ومهما اختلفت الحوادث دل ذلك على اختلاف الأسباب

هـذا ما عرف من سنة الله تعالى فى ترتيب المسببات على الأسباب . فمهما استنارت حيطان البيت بنور النار ، وأظلم سقفه واسود بالدخان ، علمت أن سبب السواد غير سبب الاستنارة . وكذلك لأنوار القلب وظلمته سببان مختلفان ، فسبب الخاطر الداعى إلى الخير يسمى ملـكا ، وسبب الخاطر الداعى إلى الشر يسمى شيطانا . واللطف الذى يتهيأ به القلب لقبول إلهام الخير يسمى توفيقا ، والذى به يتهيأ لقبول وسواس الشيطان يسمى أغواء وخذلانا . فإن المعانى المختلفة تفتقر إلى أسامى مختلفة . والملك عبارة عن خلق خلقه الله تعالى شأنه إفاضة الخير ، وإفادة العلم ، وكشف الحق ، والوعد بالخير ، والأمر بالمعروف ، وقد خلقه وسخره لذلك . والشيطان عبارة عن خلق شأنه ضد ذلك ، وهو الوعد بالشر ، والأمر بالفحشاء ، والتخويف عند الهم بالخير بالفقر . فالوسوسة فى مقابلة الإلهام ، والشيطان

فى مقابلة الملك ، والتوفيق فى مقابلة الخذلان . وإليه الاشارة بقوله تعالى (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ [١]) فإن الموجودات كلها متقابلة مزدوجة ، إلا الله تعالى فإنه فرد لا مقابل له ، بل هو الواحد الحق ، الخالق للأزواج كلها . فالقلب متجاذب بين الشيطان والملك . وقد قال صلى الله عليه وسلم [١] « فِي الْقَلْبِ لَمَّتَانِ لَمَّةٌ مِنَ الْمَلَكِ إِيعَادٌ بِالْخَيْرِ وَتَصْدِيقٌ بِالْحَقِّ فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَلْيَحْمَدِ اللهَ وَلَمَّةٌ مِنَ الْعَدُوِّ إِيعَادٌ بِالشَّرِّ وَتَكْذِيبٌ بِالْحَقِّ وَنَهْيٌ عَنِ الْخَيْرِ فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » ثم تلا قوله تعالى (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ [٢]) الآية وقال الحسن إنما هما همان يجولان فى القلب ، هم من الله تعالى ، وهم من العدو ، فرحم الله عبداً وقف عند همه ، فما كان من الله تعالى أمضاه ، وما كان من عدوه جاهده . ولتجاذب القلب بين هذين المسلطين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] « قَلْبُ الْمُؤْمِنِ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ » فالله يتعالى عن أن يكون له أصبع مركبة من لحم وعظم ، ودم وعصب ، منقسمة بالأنامل . ولكن روح الأصبع سرعة التقلب ، والقدرة على التحريك والتغيير ، فإنك لا تريد أصبعك لشخصه ، بل لفعله فى التقليب والترديد ، كما أنك تتعاطى الأفعال بأصابعك والله تعالى يفعل ما يفعل باستسخار الملك والشيطان ، وهما مسخران بقدرته فى تقليب القلوب كما أن أصابعك مسخرة لك فى تقليب الأجسام مثلا

والقلب بأصل الفطرة صالح لقبول آثار الملك ، ولقبول آثار الشيطان ، صلاحا متساويا ليس يترجح أحدهما على الآخر ، وإنما يترجح أحد الجانبين باتباع الهوى ، والإكباب على الشهوات ، أو الإعراض عنها ومخالفتها . فإن اتبع الإنسان مقتضى الغضب والشهوة ظهر تسلط الشيطان بواسطة الهوى ، وصار القلب عش الشيطان ومعدنه ، لأن الهوى هو مرعى الشيطان ومرتعه . وإن جاهد الشهوات ولم يسلطها على نفسه ، وتشبه بأخلاق

(١) حديث فى القلب لمتان لمة من الملك إيعاد بالخير ـ الحديث : ت وحسنه و ن فى الكبرى من حديث ابن مسعود

(٢) حديث قلب المؤمن بين أصبعين ـ الحديث : تقدم

(١) الذاريات : ٤٩ (٢) البقرة : ٢٦٨

الملائكة عليهم السلام ، صار قلبه مستقر الملائكة ومهبطهم . ولما كان لايخلو قلب عن شهوة وغضب ، وحرص وطمع وطول أمل ، إلى غير ذلك من صفات البشرية المتشعبة عن الهوى ، لاجرم لم يخل قلب عن أن يكون للشيطان فيه جولان بالوسوسة ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [1] « مَامِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ وَلَهُ شَيْطَانٌ » قالوا وأنت يارسول الله ! قال « وَأَنَا إِلاَّ أَنَّ اللهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ فَلاَ يَأْمُرُ إِلاَّ بِخَيْرٍ » وإنما كان هذا لأن الشيطان لايتصرف إلا بواسطة الشهوة ، فمن أعانه الله على شهوته ، حتى صارت لاتنبسط إلا حيث ينبغى وإلى الحد الذى ينبغى ، فشهوته لاتدعو إلى الشر ، فالشيطان المتدرع بها لايأمر إلا بالخير ومهما غلب على القلب ذكر الدنيا بمقتضيات الهوى ، وجد الشيطان مجالا فوسوس ، ومهما انصرف القلب إلى ذكر الله تعالى ، ارتحل الشيطان وضاق مجاله ، وأقبل الملك وألهم . والتطارد بين جندى الملائكة والشياطين فى معركة القلب دائم ، إلى أن ينفتح القلب لأحدهما فيستوطن ويستمكن ويكون اجتياز الثانى اختلاسا

وأكثر القلوب قد فتحتها جنود الشياطين وتملكتها ، فامتلأت بالوساوس الداعية إلى إيثار العاجلة ، وإطراح الآخرة . ومبدأ استيلائها اتباع الشهوات والهوى ، ولا يمكن فتحها بعد ذلك إلا بتخلية القلب عن قوت الشيطان ، وهو الهوى والشهوات ، وعمارته بذكر الله تعالى ، الذى هو مطرح أثر الملائكة . وقال جابر بن عبيدة العدوى : شكوت إلى العلاء بن زياد ما أجد فى صدرى من الوسوسة ، فقال إنما مثل ذلك مثل البيت الذى يمر به اللصوص ، فإن كان فيه شىء عالجوه ، وإلا مضوا وتركوه . يعنى أن القلب الخالى عن الهوى لا يدخله الشيطان . ولذلك قال الله تعالى (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ [1]) فكل من اتبع الهوى فهو عبد الهوى لاعبد الله . ولذلك سلط الله عليه الشيطان وقال تعالى (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ [2]) وهو إشارة إلى أن من الهوى إلهه ومعبوده ، فهو عبد الهوى لا عبد الله . ولذلك قال عمرو بن العاص للنبى صلى الله عليه وسلم يارسول الله ، [2] حال الشيطان بينى وبين صلاتى وقراءتى ، فقال « ذَلِكَ شَيْطَانٌ يُقَالُ لَهُ خَنْزَبٌ فَإِذَا

---

(١) حديث مامنكم من أحد الاوله شيطان ـ الحديث : م من حديث ابن مسعود

(٢) حديث ابن أبى العاص ان الشيطان حال بينى وبين صلاتى ـ الحديث : م من حديث ابن أبى العاص

---

(١) الاسرا : ٦٥ (٢) الجاثية : ٢٣

أحسسته فتعوذ بالله منه واتفل على يسارك ثلاثا » قال ففعلت ذلك فأذهبه الله عنى . وفى الخبر[١] « إن للوضوء شيطانا يقال له الولهان فاستعيذوا بالله منه » ولا يمحو وسوسة الشيطان من القلب إلا ذكر ما سوى ما يوسوس به لأنه إذا خطر فى القلب ذكر شىء، انعدم منه ما كان فيه من قبل ، ولكن كل شىء سوى الله تعالى ، وسوى ما يتعلق به، فيجوز أيضا أن يكون مجالا للشيطان . وذكر الله هو الذى يؤمن جانبه ، ويعلم أنه ليس للشيطان فيه مجال . ولا يعالج الشىء إلا بضده ؛ وضد جميع وساوس الشيطان ذكر الله بالاستعاذة ، والتبرى عن الحول والقوة ؛ وهو معنى قولك أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . وذلك لا يقدر عليه إلا المتقون ، الغالب عليهم ذكر الله تعالى ، وإنما الشيطان يطوف عليهم فى أوقات الفلتات على سبيل الخلسة . وقال الله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ [١]) وقال مجاهد فى معنى قول الله تعالى (مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ [٢]) قال هو منبسط على القلب ، فإذا ذكر الله تعالى خنس وانقبض ، وإذا غفل انبسط على قلبه . فالتطارد بين ذكر الله تعالى ووسوسة الشيطان ، كالتطارد بين النور والظلام ، وبين الليل والنهار . ولتضادهما قال الله تعالى (اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ [٣]) وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢] « إِنَّ الشَّيْطَانَ وَاضِعٌ خُرْطُومَهُ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ فَإِنْ هُوَ ذَكَرَ اللَّهَ تَعَالَى خَنَسَ وَإِنْ نَسِيَ اللَّهَ تَعَالَى الْتَقَمَ قَلْبَهُ » وقال ابن وضاح[٣] فى حديث ذكره ، إذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يتب ، مسح الشيطان وجهه بيده ؛ وقال بأبى وجه من لا يفلح . وكما أن الشهوات ممتزجة بلحم ابن آدم ودمه ، فسلطنة الشيطان أيضا سارية فى لحمه ودمه ، ومحيطة بالقلب

---

(١) حديث ان للوضوء شيطانا يقال له الولهان ـ الحديث : ه ت من حديث أبى بن كعب وقال غريب وليس اسناده بالقوى عند أهل الحديث

(٢) حديث أنس ان الشيطان واضع خرطومه على قلب ابن آدم ـ الحديث : ابن أبى الدنيا فى كتاب مكايد الشيطان وأبو يعلى الموصلى وابن عدى فى الكامل وضعفه

(٣) حديث ابن وضاح إذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يتب مسح الشيطان بيده وجهه وقال بأبى وجه لا يفلح لم أجد له أصلا

---

(١) الاعراف : ٢٠١ (٢) الناس : ٤ (٣) المجادله : ١٩

من جوانبه ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِى مِنَ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ فَضَيِّقُوا مَجَارِيَهُ بِالْجُوعِ » وذلك لأن الجوع يكسر الشهوة ، ومجرى الشيطان الشهوات. ولأجل اكتناف الشهوات للقلب من جوانبه قال الله تعالى ، إخباراً عن إبليس (لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ [1]) وقال صلى الله عليه وسلم [2] « إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِطُرُقٍ فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ فَقَالَ أَتُسْلِمُ وَتَتْرُكُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ ! فَعَصَاهُ وَأَسْلَمَ ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ فَقَالَ أَتُهَاجِرُ أَتَدَعُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ ! فَعَصَاهُ وَهَاجَرَ ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ فَقَالَ أَتُجَاهِدُ وَهُوَ تَلَفُ النَّفْسِ وَالْمَالِ فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ فَتُنْكَحُ نِسَاؤُكَ وَيُقْسَمُ مَالُكَ ! فَعَصَاهُ وَجَاهَدَ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَمَاتَ كَانَ حَقّاً عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ »

فذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم معنى الوسوسة ، وهى هذه الخواطر التى تخطر للمجاهد أنه يقتل وتنكح نساؤه ، وغير ذلك مما يصرفه عن الجهاد . وهذه الخواطر معلومة ، فإذاً الوسواس معلوم بالمشاهدة ، وكل خاطر فله سبب ، ويفتقر إلى اسم يعرفه ، فاسم سببه الشيطان ، ولا يتصور أن ينفك عنه آدمى ، وإنما يختلفون بعصيانه ومتابعته . ولذلك قال عليه السلام [3] « مَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَلَهُ شَيْطَانٌ » فقد اتضح بهذا النوع من الاستبصار معنى الوسوسة والإلهام ، والملك والشيطان ، والتوفيق والخذلان.

فبعد هذا نظر من ينظر فى ذات الشيطان ، أنه جسم لطيف ، أو ليس بجسم . وإن كان جسما فكيف يدخل بدن الإنسان ما هو جسم . فهذا الآن غير محتاج إليه فى علم المعاملة ، بل مثال الباحث عن هذا مثال من دخلت فى ثيابه حية ، وهو محتاج إلى إزالتها ودفع ضررها فاشتغل بالبحث عن لونها وشكلها ، وطولها وعرضها ، وذلك عين الجهل. فمصادمة الخواطر

---

(١) حديث ان الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم : تقدم
(٢) حديث ان الشيطان قعد لابن آدم بطرقه ـ الحديث : ن من حديث سبرة بن أبى فاكه باسناد صحيح
(٣) حديث ما من أحد الا له شيطان ـ الحديث: تقدم

---

(١) الاعراف : ١٦ و ١٧

الباعثة على الشر قد علمت ، ودل ذلك على أنه عن سبب لا محالة ، وعلم أن الداعى إلى الشر المحذور فى المستقبل عدو ، فقد عرف العدو لا محالة ، فينبغى أن يشتغل بمجاهدته . وقد عرّف الله سبحانه عداوته فى مواضع كثيرة من كتابه ، ليؤمن به ويحترز عنه ، فقال تعالى (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ [(١)]) وقال تعالى (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ [(٢)]) فينبغى للعبد أن يشتغل بدفع العدو عن نفسه ، لا بالسؤال عن أصله ونسبه ومسكنه

نعم ينبغى أن يسأل عن سلاحه ليدفعه عن نفسه ، وسلاح الشيطان الهوى والشهوات ، وذلك كاف للعاملين . فأما معرفة ذاته وصفاته وحقيقته ، نعوذ بالله منه ، وحقيقة الملائكة ، فذلك ميدان العارفين المتغلغلين فى علوم المكاشفات ، فلا يحتاج فى علم المعاملة إلى معرفته

نعم ينبغى أن يعلم أن الخواطر تنقسم إلى ما يعلم قطعا أنه داع إلى الشر ، فلا يخفى كونه وسوسة ، وإلى ما يعلم أنه داع إلى الخير ، فلا يشك فى كونه إلهاما . وإلى ما يتردد فيه ، فلا يدرى أنه من لمّة الملك ، أو من لمة الشيطان ، فإن من مكايد الشيطان أن يعرض الشر فى معرض الخير ، والتميز فى ذلك غامض ، وأكثر العباد به يهلكون ، فإن الشيطان لا يقدر على دعائهم إلى الشر الصريح ، فيصور الشر بصورة الخير ، كما يقول للعالم بطريق الوعظ ، أما تنظر إلى الخلق وهم موتى من الجهل ، هلكى من الغفلة ، قد أشرفوا على النار ، أما لك رحمة على عباد الله ، تنقذهم من المعاطب بنصحك ووعظك ، وقد أنعم الله عليك بقلب بصير ، ولسان ذلق ، ولهجة مقبولة ، فكيف تكفر نعمة الله تعالى ، وتتعرض لسخطه ، وتسكت عن إشاعة العلم ، ودعوة الخلق إلى الصراط المستقيم . ولا يزال يقرر ذلك فى نفسه ، ويستجره بلطيف الحيل ، إلى أن يشتغل بوعظ الناس . ثم يدعوه بعد ذلك إلى أن يتزين لهم ويتصنع بتحسين اللفظ ، وإظهار الخير ، ويقول له إن لم تفعل ذلك سقط وقع كلامك من قلوبهم ، ولم يهتدوا إلى الحق ، ولا يزال يقرر ذلك عنده ، وهو فى أثنائه يؤكد فيه شوائب الرياء ، وقبول الخلق ، ولذة الجاه ، والتعزز بكثرة الأتباع والعلم ، والنظر إلى الخلق بعين الاحتقار فيستدرج المسكين بالنصح إلى الهلاك ، فيتكلم وهو يظن أن قصده الخير ، وإنما قصده

---

(١) فاطر : ٦ (٢) يس : ٦٠

الجاه والقبول . فيهلك بسببه ، وهو يظن أنه عند الله بمكان ، وهو من الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « إِنَّ اللّٰهَ لَيُؤَيِّدُ هٰذَا الدِّينَ بِقَوْمٍ لاَخَلاَقَ لَهُمْ » « وَإِنَّ اللّٰهَ لَيُؤَيِّدُ هٰذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ ٱلْفَاجِرِ » [٢] ولذلك روى أن إبليس لعنه الله ، تمثل لعيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم ، فقال له قل لا إله إلا الله ، فقال كلمة حق ولا أقولها بقولك . لأن له أيضا تحت الخير تلبيسات ، وتلبيسات الشيطان من هذا الجنس لا تتناهى وبها يهلك العلماء ، والعباد والزهاد ، والفقراء والأغنياء ، وأصناف الخلق ممن يكرهون ظاهر الشر ، ولا يرضون لأنفسهم الخوض في المعاصي المكشوفة . وسنذكر جملة من مكايد الشيطان في كتاب الغرور ، في آخر هذا الربع . ولعلنا إن أمهل الزمان صنفنا فيه كتابا على الخصوص ، نسميه تلبيس إبليس . فإنه قد انتشر الآن تلبيسه في البلاد والعباد لاسيما في المذاهب والاعتقادات ، حتى لم يبق من الخيرات إلا رسمها ، كل ذلك إذعانا لتلبيسات الشيطان ومكايده

فحق على العبد أن يقف عند كل هم يخطر له ، ليعلم أنه من لمة الملك أو لمة الشيطان. وأن يمعن النظر فيه بعين البصيرة ، لا بهوى من الطبع ، ولا يطلع عليه إلا بنور التقوى والبصيرة وغزارة العلم . كما قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا [١]) أي رجعوا إلى نور العلم (فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ [٢]) أي ينكشف لهم الإشكال . فأما من لم يرض نفسه بالتقوى ، فيميل طبعه إلى الإذعان بتلبيسه بمتابعة الهوى ، فيكثر فيه غلطه ، ويتعجل فيه هلاكه وهو لا يشعر . وفي مثلهم قال سبحانه وتعالى (وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللّٰهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ [٣]) قيل هي أعمال ظنوها حسنات ، فإذا هي سيئات .

وأغمض أنواع علوم المعاملة الوقوف على خدع النفس، ومكايد الشيطان، وذلك فرض عين على كل عبد، وقد أهمله الخلق، واشتغلوا بعلوم تستجر إليهم الوسواس ، وتسلط عليهم الشيطان ، وتنسيهم عداوته ، وطريق الاحتراز عنه . ولا ينجي من كثرة الوسواس إلا سد أبواب الخواطر ،

---

(١) حديث إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لاخلاق لهم : ن من حديث أنس باسناد جيد

(٢) حديث إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر : متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم في العلم

---

(١) و (٢) الاعراف : ٢٠١ (٣) الزمر: ٤٧

وأبوابها الحواس الخمس ، وأبوابها من داخل الشهوات وعلائق الدنيا . والخلوة فى بيت مظلم تسد باب الحواس ، والتجرد عن الأهل والمال يقلل مداخل الوسواس من الباطن ، ويبقى مع ذلك مداخل باطنه فى التخيلات الجارية فى القلب ، وذلك لايدفع إلا بشغل القلب بذكر الله تعالى . ثم إنه لايزال يجاذب القلب وينازعه ، ويلهيه عن ذكر الله تعالى ، فلابد من مجاهدته وهذه مجاهدة لا آخر لها إلا الموت ، إذ لايتخلص أحد من الشيطان مادام حياً

نعم قد يقوى بحيث لاينقاد له ، ويدفع عن نفسه شره بالجهاد ، ولكن لا يستغنى قط عن الجهاد والمدافعة مادام الدم يجرى فى بدنه ، فإنه مادام حيا فأبواب الشيطان مفتوحة إلى قلبه لاتنغلق ، وهى الشهوة والغضب ، والحسد والطمع ، والشره وغيرها ، كما سيأتى شرحها ومهما كان الباب مفتوحا ، والعدوّ غير غافل ، لم يدافع إلا بالحراسة والمجاهدة . قال رجل للحسن : يا أبا سعيد . أينام الشيطان ؟ فتبسم وقال ، لو نام لاسترحنا . فإذاً لا خلاص للمؤمن منه . نعم له سبيل إلى دفعه وتضعيف قوّته . قال صلى الله عليه وسلم[1] «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يُنْضِى شَيْطَانَهُ كَمَا يُنْضِى أَحَدُكُمْ بَعِيرَهُ فِى سَفَرِهِ » وقال ابن مسعود ، شيطان المؤمن مهزول ، وقال قيس بن الحجاج ، قال لى شيطانى ، دخلت فيك وأنا مثل الجزور ، وأنا الآن مثل العصفور . قلت ولم ذاك ؟ قال تذيبنى بذكر الله تعالى .

فأهل التقوى لايتعذر عليهم سد أبواب الشيطان ، وحفظها بالحراسة ، أعنى الأبواب الظاهرة ، والطرق الجلية التى تفضى إلى المعاصى الظاهرة . وإنما يتعثرون فى طرقه الغامضة فإنهم لايهتدون إليها فيحرسونها ، كما أشرنا إليه فى غرور العلماء والوعاظ . والمشكل أن الأبواب المفتوحة إلى القلب للشيطان كثيرة ، وباب الملائكة باب واحد . وقد التبس ذلك الباب الواحد بهذه الأبواب الكثيرة . فالعبد فيها كالمسافر الذى يبقى فى بادية كثيرة الطرق غامضة المسالك ، فى ليلة مظلمة . فلا يكاد يعلم الطريق إلا بعين بصيرة ، وطلوع شمس مشرقة والعين البصيرة ههنا هى القلب المصفى بالتقوى ، والشمس المشرقة هو العلم الغزير ، المستفاد من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، مما يهدى إلى غوامض طرقه ، وإلا فطرقه كثيرة وغامضة

---

(١) حديث إن المؤمن ينضى شيطانه ـ الحديث : أحمد من حديث أبى هريرة وفيه ابن لهيعة

قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه [١] خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما خطا وقال « هَذَا سَبِيلُ اللهِ » ثم خط خطوطا عن يمين الخط وعن شماله ، ثم قال « هَذِهِ سُبُلٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ » ثم تلا(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ [١]) لتلك الخطوط فبين صلى الله عليه وسلم كثرة طرقه

وقد ذكرنا مثالا للطريق الغامض من طرقه ، وهو الذى يخدع به العلماء ، والعباد المالكين لشهواتهم ، الكافين عن المعاصى الظاهرة . فلنذكر مثالا لطريقه الواضح الذى لا يخفى إلا أن يضطر الآدمي إلى سلوكه . وذلك ماروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال [٢] « كَانَ رَاهِبٌ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَعَمَدَ الشَّيْطَانُ إِلَى جَارِيَةٍ فَخَنَقَهَا وَأَلْقَى فِي قُلُوبِ أَهْلِهَا أَنَّ دَوَاءَهَا عِنْدَ الرَّاهِبِ فَأَتَوْا بِهَا إِلَيْهِ فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهَا فَلَمْ يَزَالُوا بِهِ حَتَّى قَبِلَهَا فَلَمَّا كَانَتْ عِنْدَهُ لِيُعَالِجَهَا أَتَاهُ الشَّيْطَانُ فَزَيَّنَ لَهُ مُقَارَبَتَهَا وَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى وَاقَعَهَا فَحَمَلَتْ مِنْهُ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ وَقَالَ الْآنَ تَفْتَضِحُ يَأْتِيكَ أَهْلُهَا فَاقْتُلْهَا فَإِنْ سَأَلُوكَ فَقُلْ مَاتَتْ فَقَتَلَهَا وَدَفَنَهَا فَأَتَى الشَّيْطَانُ أَهْلَهَا فَوَسْوَسَ إِلَيْهِمْ وَأَلْقَى فِي قُلُوبِهِمْ أَنَّهُ أَحْبَلَهَا ثُمَّ قَتَلَهَا وَدَفَنَهَا فَأَتَاهُ أَهْلُهَا فَسَأَلُوهُ عَنْهَا فَقَالَ مَاتَتْ فَأَخَذُوهُ لِيَقْتُلُوهُ بِهَا فَأَتَاهُ الشَّيْطَانُ فَقَالَ أَنَا الَّذِي خَنَقْتُهَا وَأَنَا الَّذِي أَلْقَيْتُ فِي قُلُوبِ أَهْلِهَا فَأَطِعْنِي تَنْجُ وَأُخَلِّصْكَ مِنْهُمْ قَالَ بِمَاذَا قَالَ اسْجُدْ لِي سَجْدَتَيْنِ فَسَجَدَ لَهُ سَجْدَتَيْنِ فَقَالَ لَهُ الشَّيْطَانُ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ فَهُوَ الَّذِي قَالَ اللهُ تَعَالَى فِيهِ »
(كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ [٢])

فانظر الآن إلى حيله واضطراره الراهب إلى هذه الكبائر . وكل ذلك لطاعته له فى قبول الجارية للمعالجة ، وهو أمر هين ، وربما يظن صاحبه أنه خير وحسنة ، فيحسن ذلك فى قلبه بخفى الهوى ، فيقدم عليه كالراغب فى الخير ، فيخرج الأمر بعد ذلك عن اختياره ،

---

(١) حديث ابن مسعود خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا فقال هذا سبيل الله ـ الحديث :ن فى الكبرى وك وقال صحيح الاسناد

(٢) حديث كان راهب فى بنى اسرائيل فأخذ الشيطان جارية فخنقها وألقى فى قلوب أهلها ان دواءها عند الراهب ـ الحديث : بطوله فى تأويل قوله تعالى كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر . ابن أبى الدنيا فى مكايد الشيطان وابن مردويه فى تفسيره فى حديث عبيد بن أبى رفاعة مرسلا والحاكم بنحوه موقوفا على علي بن أبى طالب وقال صحيح الأسناد ووصله بطين فى مسنده من حديث علي

---

[١] الانعام : ١٥٣ [٢] الحشر : ١٦

ويجره البعض إلى البعض ، بحيث لايجد محيصا . فنعوذ بالله من تضييع أوائل الأمور .
وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم[1] « مَنْ حَامَ حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ »

بيان

تفصيل مداخل الشيطان إلى القلب

اعلم أن مثال القلب مثال حصن ، والشيطان عدو يريد أن يدخل الحصن ، فيملكه ويستولى عليه . ولا يقدر على حفظ الحصن من العدو إلا بحراسة أبواب الحصن ومداخله ومواضع ثلمه . ولا يقدر على حراسة أبوابه من لا يدرى أبوابه . فحماية القلب من وسواس الشيطان واجبة ، وهو فرض عين على كل عبد مكلف . وما لا يتوصل إلى الواجب إلا به فهو أيضا واجب . ولا يتوصل إلى دفع الشيطان إلا بمعرفة مداخله . فصارت معرفة مداخله واجبة . ومداخل الشيطان وأبوابه صفات العبد ، وهى كثيرة ، ولكنا نشير إلى الأبواب العظيمة الجارية مجرى الدروب ، التى لا تضيق عن كثرة جنود الشيطان

فمن أبوابه العظيمة الغضب والشهوة . فإن الغضب هو غول العقل ، وإذا ضعف جند العقل هجم جند الشيطان . ومهما غضب الإنسان لعب الشيطان به ، كما يلعب الصبى بالكرة . فقد روى أن موسى عليه السلام ، لقيه ابليس ، فقال له ياموسى أنت الذى اصطفاك الله برسالته وكلمك تكليما ، وأنا خلق من خلق الله أذنبت ، وأريد أن أتوب ، فاشفع لى إلى ربى أن يتوب علىّ ، فقال موسى نعم . فلما صعد موسى الجبل ، وكلم ربه عز وجل، وأراد النزول ، قال له ربه أدّ الأمانة . فقال موسى يارب ، عبدك أبليس يريد أن تتوب عليه ، فأوحى الله تعالى إلى موسى ، ياموسى قد قضيت حاجتك ، مره أن يسجد لقبر آدم حتى يتاب عليه . فلقى موسى أبليس ، فقال له قد قضيت حاجتك ، أمرت أن تسجد لقبر آدم حتى يتاب عليك . فغضب واستكبر ، وقال لم أسجد له حيا أأسجد له ميتا ! ثم قال ياموسى إن لك علىّ حقا بما شفعت لى إلى ربك . فاذكرنى عند ثلاث لا أهلكك فيهن ، أذكرنى حين تغضب فإن روحى فى قلبك ، وعينى فى عينك ، وأجرى منك مجرى الدم أذكرنى

---

(١) حديث من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه : متفق عليه من حديث النعمان بن بشير من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه لفظ خ

إذا غضبت ، فإنه إذا غضب الإنسان نفخت فى أنفه ، فما يدرى مايصنع . واذكرنى حين تلقى الزحف ، فإنى آتى ابن آدم حين يلقى الزحف ، فأذكره زوجته وولده وأهله حتى يولى وإياك أن تجلس إلى امرأة ليست بذات محرم ، فإنى رسولها إليك ورسولك إليها ، فلا أزال حتى أفتنك بها وأفتنها بك

فقد أشار بهذا إلى الشهوة والغضب والحرص ، فإن الفرار من الزحف حرص على الدنيا ، وامتناعه من السجود لآدم ميتا هو الحسد ، وهو أعظم مداخله

وقد ذكر أن بعض الأولياء قال لإبليس ، أرنى كيف تغلب ابن آدم ، فقال آخذه عند الغضب وعند الهوى . فقد حكى أن ابليس ظهر لراهب ، فقال له الراهب ، أى أخلاق بنى آدم أعون لك ؟ قال الحدّة . فإن العبد إذا كان حديدا قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة . وقيل إن الشيطان يقول كيف يغلبنى ابن آدم وإذا رضى جئت حتى أكون فى قلبه ، وإذا غضب طرت حتى أكون فى رأسه !

ومن أبوابه العظيمة الحسد والحرص . فمهما كان العبد حريصا على كل شىء ، أعماه حرصه وأصمه . إذ قال صلى الله عليه وسلم [١] « حُبُّكَ لِلشَّيْءِ يُعْمِي وَيُصِمُّ » ونور البصيرة هو الذى يعرف مداخل الشيطان . فإذا غطاه الحسد والحرص لم يبصر . فحينئذ يجد الشيطان فرصة ،فيحسن عند الحريص كل ما يوصله إلى شهوته ، وإن كان منكرا وفاحشا

فقد روى أن نوحا عليه السلام لما ركب السفينة ، حمل فيها من كل زوجين اثنين كما أمره الله تعالى . فرأى فى السفينة شيخا لم يعرفه ، فقال له نوح ، ما أدخلك ؟ فقال دخلت لأصيب قلوب أصحابك ، فتكون قلوبهم معى وأبدانهم معك . فقال له نوح أخرج منها ياعدوالله فإنك لعين . فقال له ابليس ، خمس أهلك بهن الناس ، وسأحدثك منهن بثلاث ولا أحدثك باثنتين . فأوحى الله تعالى إلى نوح أنه لا حاجة لك بالثلاث ، فليحدثك بالاثنتين فقال له نوح ما الاثنتان ؟ فقال هما اللتان لا تكذبانى ، هما اللتان لا تخلفانى ، بهما أهلك الناس الحرص والحسد . فبالحسد لعنت ، وجعلت شيطانا رجيما . وأما الحرص ، فإنه أبيح لآدم الجنة كلها إلا الشجرة فأصبت حاجتى منه بالحرص

---

(١) حديث حبك الشيء يعمي ويصم: أبوداود من حديث أبي الدرداء بإسناد ضعيف

ومن أبوابه العظيمة الشبع من الطعام ، وإن كان حلالا صافيا . فإن الشبع يقوى الشهوات ، والشهوات أسلحة الشيطان . فقد روى أن إبليس ظهر ليحيى بن زكريا عليهما السلام ، فرأى عليه معاليق من كل شيء ، فقال له ياإبليس ، ماهذه المعاليق ؟ قال هذه الشهوات التى أصبت بها ابن آدم . فقال فهل لى فيهامن شيء ؟ قال ربما شبعت فثقلناك عن الصلاة وعن الذكر . قال فهل غير ذلك ؟ قال لا . قال لله علىّ أن لاأملأ بطنى من الطعام أبدا ، فقال له إبليس ، ولله علىّ أن لاأنصح مسلما أبدا

ويقال فى كثرة الأكل ست خصال مذمومة

أولها :أن يذهب خوف الله من قلبه الثانى : أن يذهب رحمة الخلق من قلبه ، لأنه يظن أنهم كلهم شباع والثالث : أنه يثقل عن الطاعة والرابع : أنه إذا سمع كلام الحكمة لايجد له رقة والخامس : أنه إذا تكلم بالموعظة والحكمة لايقع فى قلوب الناس والسادس : أن يهيج فيه الأمراض

ومن أبوابه حب التزين من الأثاث والثياب والدار . فإن الشيطان إذا رأى ذلك غالبا على قلب الإنسان ، باض فيه وفرخ ، فلا يزال يدعوه إلى عمارة الدار ، وتزيين سقوفها وحيطانها ، وتوسيع أبنيتها ، ويدعوه إلى التزين بالثياب والدواب ، ويستسخره فيها طول عمره ، وإذا أوقعه فى ذلك فقد استغنى أن يعود إليه ثانية ، فإن بعض ذلك يجره إلى البعض فلا يزال يؤديه من شيء إلى شيء إلى أن يساق إليه أجله فيموت ، وهو فى سبيل الشيطان واتباع الهوى ، ويخشى من ذلك سوء العاقبة بالكفر . نعوذ بالله منه

ومن أبوابه العظيمة الطمع فى الناس ، لأنه إذا غلب الطمع على القلب ، لم يزل الشيطان يحبب إليه التصنع والتزين لمن طمع فيه ، بأنواع الرياء والتلبيس ، حتى يصير المطموع فيه كأنه معبوده . فلا يزال يتفكر فى حيلة التوددو التحبب إليه ، ويدخل كل مدخل للوصول إلى ذلك ، وأقل أحواله الثناء عليه بما ليس فيه ، والمداهنة له بترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

فقد روى صفوان بن سليم ، أن إبليس تمثل لعبد الله بن حنظلة ، فقال له ياابن حنظلة إحفظ عنى شيئا أعلمك به . فقال لاحاجة لى به ، قال انظر فإن كان خيرا أخذت ، وإن كان

شرا رددت . ياابن حنظلة ، لاتسأل أحدا غير الله سؤال رغبة ، وانظر كيف تكون إذا غضبت : فإني أملك إذا غضبت

ومن أبوابه العظيمة العجلة وترك التثبت في الأمور . وقال صلى الله عليه وسلم [١] « الْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ وَالتَّأَنِّي مِنَ اللهِ تَعَالَى » وقال عز وجل (خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ [١]) وقال تعالى (وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً [٢]) وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم (وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ [٣]) وهذا لأن الأعمال ينبغي أن تكون بعد التبصرة والمعرفة والتبصرة تحتاج إلى تأمل وتمهل ، والعجلة تمنع من ذلك وعند الاستعجال يروج الشيطان شره على الإنسان من حيث لا يدري

فقد روى أنه لما ولد عيسى بن مريم عليه السلام ، أتت الشياطين إبليس ، فقالوا أصبحت الأصنام قد نكست رءوسها ، فقال هذا حادث قد حدث ، مكانكم ، فطار حتى أتى خافقي الأرض ، فلم يجد شيئا ، ثم وجد عيسى عليه السلام قد ولد ، وإذا الملائكة حافين به ، فرجع إليهم فقال إن نبيا قد ولد البارحة ، ماحملت أنثى قط ولا وضعت إلا وأنا حاضرها إلا هذا فأيسوا من أن تعبد الأصنام بعد هذه الليلة ، ولكن ائتوا بني آدم من قبل العجلة والخفة

ومن أبوابه العظيمة الدراهم والدنانير ، وسائر أصناف الأموال من العروض والدواب والعقار ، فإن كل مايزيد على قدر القوت والحاجة فهو مستقر الشيطان . فإن من معه قوته فهو فارغ القلب . فلو وجد مائة دينار مثلا على طريق ، انبعث من قلبه عشر شهوات ، تحتاج كل شهوة منها إلى مائة دينار أخرى ، فلا يكفيه ماوجد ، بل يحتاج إلى تسعمائة أخرى ، وقد كان قبل وجود المائة مستغنيا . فالآن لما وجد مائة ، ظن أنه صار بها غنيا ، وقد صار محتاجا إلى تسعمائة ، ليشتري دارا يعمرها ، وليشتري جارية ، وليشتري أثاث البيت ، ويشتري الثياب الفاخرة ، وكل شيء من ذلك يستدعي شيئا آخر يليق به ، وذلك لا آخر له ، فيقع في هاوية آخرها عمق جهنم ، فلا آخر لها سواه

---

(١) حديث العجلة من الشيطان والتأني من الله : ت من حديث سهل بن سعد بلفظ الاناة وقال حسن

(١) الانبياء : ٣٧ (٢) الاسراء : ١١ (٣) طه : ١١٤

قال ثابت البنانى ، (1) لما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال ابليس لشياطينه ، لقد حدث أمر ، فانظروا ما هو . فانطلقوا حتى أعيوا ، ثم جاؤا وقالوا ما ندرى ، قال أنا آتيكم بالخبر . فذهب ثم جاء وقال ، قد بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم ، قال فجعل يرسل شياطينه إلى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فينصرفون خائبين ، ويقولون ما صحبنا قوما قط مثل هؤلاء ، نصيب منهم ، ثم يقومون إلى صلاتهم فيمحى ذلك . فقال ابليس، رويدا بهم ؛ عسى الله أن يفتح لهم الدنيا ، فنصيب منهم حاجتنا

وروى أن عيسى عليه السلام توسد يوما حجرا ، فمر به ابليس ، فقال ياعيسى رغبت فى الدنيا ! فأخذه عيسى صلى الله عليه وسلم ، فرمى به من تحت رأسه : وقال هذا لك مع الدنيا . وعلى الحقيقة من يملك حجرا يتوسد به عند النوم ، فقد ملك من الدنيا ما يمكن أن يكون عدة للشيطان عليه . فإن القائم بالليل مثلا للصلاة ، مهما كان بالقرب منه حجر يمكن أن يتوسده ، فلا يزال يدعوه إلى النوم وإلى أن يتوسده ، ولولم يكن ذلك لكان لا يخطر له ذلك ببال ، ولا تتحرك رغبته إلى النوم . هذا فى حجر . فكيف بمن يملك المخاد الميثرة ، والفرش الوطيئة ، والمنتزهات الطيبة ، فتى ينشط لعبادة الله تعالى

ومن أبوابه العظيمة البخل وخوف الفقر ، فإن ذلك هو الذى يمنع من الإنفاق والتصدق ويدعو إلى الادخار والكنز والعذاب الأليم ، وهو الموعود للمكاثرين كما نطق به القرءان العزيز ، قال خيثمة بن عبد الرحمن ، إن الشيطان يقول ، ما غلبنى ابن آدم غلبة فلن يغلبنى على ثلاث : أن آمره أن يأخذ المال من غير حقه ، وإنفاقه فى غير حقه ، ومنعه من حقه . وقال سفيان ، ليس للشيطان سلاح مثل خوف الفقر : فإذا قبل ذلك منه أخذ فى الباطل ومنع من الحق ، وتكلم بالهوى ، وظن بربه ظن السوء

ومن آفات البخل الحرص على ملازمة الأسواق لجمع المال ، والأسواق هى معشش

---

(١) حديث ثابت لما بعث صلى الله عليه وسلم قال ابليس لشياطينه لقد حدث أمر ـ الحديث : ابن أبى الدنيا فى مكايد الشيطان هكذا مرسلا

الشياطين. وقال أبو أمامة ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال[1] « إِنَّ أَبْلِيسَ لَمَّا نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ قَالَ يَارَبِّ أَنْزَلْتَنِي إِلَى الْأَرْضِ وَجَعَلْتَنِي رَجِيماً فَاجْعَلْ لِي بَيْتاً قَالَ الْحَمَّامُ قَالَ أَجْعَلْ لِي مَجْلِساً قَالَ الْأَسْوَاقُ وَمَجَامِعُ الطُّرُقِ قَالَ أَجْعَلْ لِي طَعَاماً قَالَ طَعَامُكَ مَا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ قَالَ اجْعَلْ لِي شَرَاباً قَالَ كُلُّ مُسْكِرٍ قَالَ أَجْعَلْ لِي مُؤَذِّناً قَالَ الْمَزَامِيرُ قَالَ أَجْعَلْ لِي قُرْآناً قَالَ الشِّعْرُ قَالَ أَجْعَلْ لِي كِتَاباً قَالَ الْوَشْمُ قَالَ أَجْعَلْ لِي حَدِيثاً قَالَ الْكَذِبُ قَالَ أَجْعَلْ لِي مَصَايِدَ قَالَ النِّسَاءُ »

ومن أبوابه العظيمة التعصب للمذاهب والأهواء ، والحقد على الخصوم ، والنظر إليهم بعين الازدراء والاستحقار . وذلك مما يهلك العباد والفساق جميعا . فإن الطعن فى الناس ؛ والاشتغال بذكر نقصهم ، صفة مجبولة فى الطبع من الصفات السبعية . فإذا خيل إليه الشيطان أن ذلك هو الحق ، وكان موافقا لطبعه ، غلبت حلاوته على قلبه ، فاشتغل به بكل همته ، وهو بذلك فرحان مسرور ، يظن أنه يسعى فى الدين ، وهو ساع فى اتباع الشياطين فترى الواحد منهم يتعصب لأبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وهو آكل الحرام ، ومطلق اللسان بالفضول والكذب ، ومتعاط لأنواع الفساد ، ولو رآه أبو بكر لكان أول عدو له ، إذ موالى أبى بكر من أخذ سبيله ، وسار بسيرته ، وحفظ ما بين لحييه . وكان من سيرته رضي الله عنه ، أن يضع حصاة فى فيه ليكف لسانه عن الكلام فيما لا يعنيه ، فأنى لهذا الفضولى أن يدعى ولاءه وحبه ، ولا يسير بسيرته

ونرى فضوليا آخر يتعصب لعلي رضي الله عنه ، وكان من زهد علي وسيرته ، أنه لبس فى خلافته ثوبا اشتراه بثلاثة دراهم ، وقطع رأس الكمين إلى الرسغ ، ونرى الفاسق لابسا لثياب الحرير ، ومتجملا بأموال اكتسبها من حرام ، وهو يتعاطى حب علي رضى الله عنه ويدعيه ، وهو أول خصمائه يوم القيامة

---

(١) حديث أبى أمامة ان إبليس لما نزل إلى الارض قال يارب أنزلتنى الى الارض وجعلتنى رجيما فاجعل لى بيتا قال الحمام ــ الحديث : الطبرانى فى الكبير واسناده ضعيف جدا ورواه بنحوه من حديث ابن عباس باسناد ضعيف أيضا

وليت شعري من أخذ ولدا عزيزا الإنسان هو قرة عينه ، وحياة قلبه ، فأخذ يضربه ويمزقه ، وينتف شعره ويقطعه بالمقراض ، وهو مع ذلك يدعى حب أبيه وولاءه ، فكيف يكون حاله عنده ؟ ومعلوم أن الدين والشرع كانا أحب إلى أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وسائر الصحابة رضي الله عنهم ، من الأهل والولد ، بل من أنفسهم . والمتشوقون لماصين الشرع هم الذين يمزقون الشرع ، ويقطعونه بمقاريض الشهوات ، ويتوددون به إلى عدو الله إبليس وعدو أوليائه . فترى كيف يكون حالهم يوم القيامة عند الصحابة ، وعند أولياء الله تعالى ! لا بل لو كشف الغطاء ، وعرف هؤلاء ما تحبه الصحابة في أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لاستحيوا أن يجروا على اللسان ذكرهم مع قبح أفعالهم ، ثم إن الشيطان يخيل إليهم أن من مات محبا لأبي بكر وعمر ، فالنار لا تحوم حوله ، ويخيل إلى الآخر أنه إذا مات محبا لعلي ، لم يكن عليه خوف ، وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول[1] لفاطمة رضي الله عنها ، وهي بضعة منه[2] « إعْمَلِي فَإِنِّي لا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا » وهذا مثال أوردناه من جملة الأهواء

وهكذا حكم المتعصبين للشافعي وأبي حنيفة ومالك وأحمد ، وغيرهم من الأئمة . فكل من ادعى مذهب إمام ، وهو ليس يسير بسيرته ، فذلك الإمام هو خصمه يوم القيامة ، إذ يقول له : كان مذهبي العمل دون الحديث باللسان ، وكان الحديث باللسان لأجل العمل لا لأجل الهذيان ، فما بالك خالفتني في العمل والسيرة ، التي هي مذهبي ومسلكي الذي سلكته وذهبت فيه إلى الله تعالى ، ثم ادعيت مذهبي كاذبا ، وهذا مدخل عظيم من مداخل الشيطان قد أهلك به أكثر العالم ، وقد سلمت المدارس لأقوام قل من الله خوفهم ، وضعفت في الدين بصيرتهم ، وقويت في الدنيا رغبتهم ، واشتد على الاستتباع حرصهم ، ولم يتمكنوا من الاستتباع وإقامة الجاه إلا بالتعصب ، فحبسوا ذلك في صدورهم ، ولم ينبهوهم على مكايد الشيطان فيه ، بل نابوا عن الشيطان في تنفيذ مكيدته ، فاستمر الناس عليه ، ونسوا أمهات دينهم ، فقد هلكوا وأهلكوا ، فالله تعالى يتوب علينا وعليهم

---

(١) حديث فاطمة بضعة مني: متفق عليه من حديث المسور بن مخرمة

(٢) حديث إني لا أغني عنك من الله شيئا. قاله لفاطمة متفق عليه من حديث أبي هريرة

وقال الحسن : بلغنا أن إبليس قال : سوّلت لأمة محمد صلى الله عليه وسلم المعاصى، فقصموا ظهرى بالاستغفار . فسوّلت لهم ذنوبا لايستغفرون الله تعالى منها ، وهى الأهواء . وقد صدق الملعون ، فإنهم لايعلمون أن ذلك من الأسباب التى تجر إلى المعاصى ، فكيف يستغفرون منها .

ومن عظيم حيل الشيطان ، أن يشغل الإنسان عن نفسه ، بالاختلافات الواقعة بين الناس فى المذاهب والخصومات . قال عبد الله بن مسعود : جلس قوم يذكرون الله تعالى ، فأتاهم الشيطان ليقيمهم عن مجلسهم ، ويفرق بينهم ، فلم يستطع . فأتى رفقة أخرى يتحدثون بحديث الدنيا ، فأفسد بينهم ، فقاموا يقتتلون ، وليس إياهم يريد ، فقام الذين يذكرون الله تعالى ، فاشتغلوا بهم ، يفصلون بينهم ، فتفرقوا عن مجلسهم ، وذلك مراد الشيطان منهم .

ومن أبوابه حمل العوام الذين لم يمارسوا العلم ولم يتجروا فيه ، على التفكر فى ذات الله تعالى وصفاته ، وفى أمور لا يبلغها حد عقولهم ، حتى يشككهم فى أصل الدين ، أو يخيل إليهم فى الله تعالى خيالات يتعالى الله عنها ، يصير بها كافرا أو مبتدعا ، وهو به فرح مسرور مبتهج بما وقع فى صدره ، يظن ذلك هو المعرفة والبصيرة ، وانه انكشف له ذلك بذكائه وزيادة عقله . فأشد الناس حماقة أقواهم اعتقادا فى عقل نفسه ، وأثبت الناس عقلا أشدهم اتهاما لنفسه ، وأكثرهم سؤالا من العلماء . قالت عائشة رضى الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] « إِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْتِى أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ مَنْ خَلَقَكَ ؟ فَيَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَيَقُولُ فَمَنْ خَلَقَ اللهَ ؟ فَإِذَا وَجَدَ أَحَدُكُمْ ذَلِكَ فَلْيَقُلْ آمَنْتُ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ يُذْهِبُ عَنْهُ » والنبى صلى الله عليه وسلم لم يأمر بالبحث فى علاج هذا الوسواس ، فإن هذا وسواس يجده عوام الناس دون العلماء . وإنما حق العوام أن يؤمنوا ويسلموا ، ويشتغلوا بعبادتهم ومعايشهم ، ويتركوا العلم للعلماء . فالعامى لو يزنى ويسرق كان خيرا له من أن يتكلم فى العلم . فإنه من تكلم فى الله وفى دينه من غير إتقان العلم ، وقع فى الكفر من حيث لايدرى . كمن يركب لجة البحر وهو لايعرف السباحة . ومكايد الشيطان فيما يتعلق بالعقائد

---

(١) حديث عائشة ان الشيطان يأتى أحدكم فيقول من خلقك فيقول الله ـ الحديث : أحمد والبزار وأبو يعلى فى مسانيدهم ورجاله ثقات وهو متفق عليه من حديث أبى هريرة

والمذاهب لاتحصر ، وإنما أردنا بما أوردناه المثال

ومن أبوابه سوء الظن بالمسلمين ..قال الله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ[1]) فمن يحكم بشر على غيره بالظن ، بعثه الشيطان على أن يطول فيه اللسان بالغيبة فيهلك ، أو يقصر فى القيام بحقوقه ، أو يتوانى فى إكرامه ، وينظر إليه بعين الاحتقار ، ويرى نفسه خيرا منه . وكل ذلك من المهلكات. ولأجل ذلك منع الشرع من التعرض للتهم . فقال صلى الله عليه وسلم[1] « اتَّقُوا مَوَاضِعَ التُّهَمِ » حتى احترز هو صلى الله عليه وسلم من ذلك .

روى عن علي بن حسين[2] ، أن صفية بنت حي بن أخطب ، أخبرته أن النبي صلى الله عليه وسلم كان معتكفا فى المسجد ، قالت فأتيته فتحدثت عنده ، فلما أمسيت انصرفت فقام يمشى معى ، فمر به رجلان من الأنصار ، فسلما ثم انصرفا . فناداهما وقال « إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ » فقالا يارسول الله ما نظن بك إلا خيرا . فقال « إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ مِنَ الْجَسَدِ وَإِنِّى خَشِيتُ أَنْ يَدْخُلَ عَلَيْكُمَا » فانظر كيف أشفق صلى الله عليه وسلم على دينهما فحرسهما ، وكيف أشفق على أمته فعلمهم طريق الاحتراز من التهمة حتى لا يتساهل العالم الورع المعروف بالدين فى أحواله ، فيقول مثلى لا يظن به إلا الخير إعجابا منه بنفسه . فإن أورع الناس وأتقاهم وأعلمهم لا ينظر الناس كلهم إليه بعين واحدة بل بعين الرضا بعضهم ، وبعين السخط بعضهم . ولذلك قال الشاعر :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة   ولكن عين السخط تبدى المساوى

فيجب الاحتراز عن ظن السوء ، وعن تهمة الأشرار ، فإن الأشرار لا يظنون بالناس كلهم إلا الشر . فمهما رأيت إنسانا يسيء الظن بالناس طالبا للعيوب ، فاعلم أنه خبيث فى الباطن وأن ذلك خبثه يترشح منه ، وإنما رأى غيره من حيث هو . فإن المؤمن يطلب المعاذير ، والمنافق يطلب العيوب . والمؤمن سليم الصدر فى حق كافة الخلق

---

(١) حديث اتقوا مواضع التهم: لم أجد له أصلا

(٢) حديث صفية بنت حي ان النبي صلى الله عليه وسلم كان معتكفا فأتيته فتحدثت عنده ـ الحديث : وفيه ان الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم متفق عليه

---

(١) الحجرات : ١٢

فهذه بعض مداخل الشيطان إلى القلب . ولو أردت استقصاء جميعها لم أقدر عليه . وفى هذا القدر ماينبه على غيره ، فليس فى الآدمى صفة مذمومة إلا وهى سلاح الشيطان ومدخل من مداخله

فإن قلت:فما العلاج فى دفع الشيطان ؟ وهل يكفى فى ذلك ذكر الله تعالى.وقول الإنسان لاحول ولا قوة إلا بالله ؟

فاعلم أن علاج القلب فى ذلك سد هذه المداخل ، بتطهير القلب من هذه الصفات المذمومة ، وذلك مما يطول ذكره .وغرضنا فى هذا الربع من الكتاب بيان علاج الصفات المهلكات ، وتحتاج كل صفة إلى كتاب منفرد على ماسيأتى شرحه . نعم إذا قطعت من القلب أصول هذه الصفات ، كان للشيطان بالقلب اجتيازات وخطرات ، ولم يكن له استقرار ، ويمنعه من الاجتياز ذكر الله تعالى ، لأن حقيقة الذكر لا تتمكن من القلب إلا بعد عمارة القلب بالتقوى ، وتطهيره من الصفات المذمومة ، وإلا فيكون الذكر حديث نفس، لاسلطان له على القلب ، فلا يدفع سلطان الشيطان . ولذلك قال الله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ[1]) خصص بذلك المتقى : فمثل الشيطان كمثل كلب جائع يقرب منك ، فإن لم يكن بين يديك خبز أو لحم ، فإنه ينزجر بأن تقول له اخسأ ، فمجرد الصوت يدفعه . فإن كان بين يديك لحم وهو جائع ، فإنه يهجم على اللحم ولا يندفع بمجرد الكلام . فالقلب الخالى عن قوت الشيطان ينزجر عنه بمجرد الذكر . فأما الشهوة إذا غلبت على القلب ، دفعت حقيقة الذكر إلى حواشى القلب ، فلم يتمكن من سويدائه فيستقر الشيطان فى سويداء القلب . وأما قلوب المتقين الخالية من الهوى والصفات المذمومة، فإنه يطرقها الشيطان لا للشهوات ، بل لخلوها بالغفلة عن الذكر ، فإذا عاد إلى الذكر خنس الشيطان. ودليل ذلك قوله تعالى (فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ[2]) وسائر الأخبار والآيات الواردة فى الذكر

قال أبو هريرة ، التقى شيطان المؤمن وشيطان الكافر . فإذا شيطان الكافر دهين سمين كاس ، وشيطان المؤمن مهزول أشعث أغبر عار . فقال شيطان الكافر لشيطان المؤمن

---

(١) الاعراف : ٢٠١ (٢) النحل : ٩٨

مالك مهزول ؟ قال أنا مع رجل إذا أكل سمى الله ، فأظل جائعا . وإذا شرب سمى الله، فأظل عطشانا . وإذا لبس سمى الله ، فأظل عريانا . وإذا ادهن سمى الله ، فأظل شعثا . فقال لكنى مع رجل لا يفعل شيئا من ذلك ، فأنا أشاركه فى طعامه وشرابه ولباسه

وكان محمد بن واسع يقول كل يوم بعد صلاة الصبح ، اللهم إنك سلطت علينا عدوا بصيرا بعيوبنا ، يرانا هو وقبيله من حيث لانراهم . اللهم فآيسه منا كما آيسته من رحمتك وقنطه منا كما قنطته من عفوك ، وباعد بيننا وبينه كما باعدت بينه وبين رحمتك ؛ إنك على كل شيء قدير . قال فتمثل له ابليس يوما فى طريق المسجد ، فقال له يا ابن واسع، هل تعرفنى؟ قال ومن أنت ؟ قال أنا إبليس . فقال وما تريد ؟ قال أريد أن لا تعلم أحدا هذه الاستعاذة ، ولا أتعرض لك ، قال والله لا أمنعها ممن أرادها ، فاصنع ما شئت

وعن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال [1] : كان شيطان يأتى النبى صلى الله عليه وسلم بيده شعلة من نار ، فيقوم بين يديه وهو يصلى ، فيقرأ ويتعوذ فلا يذهب . فأتاه جبرائيل عليه السلام ، فقال له « قُلْ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ الَّتِى لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ ، مِنْ شَرِّ مَا يَلِجُ فِى الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ، وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَمِنْ فِتَنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَمِنْ طَوَارِقِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، إِلَّا طَارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ يَارَحْمنُ » فقال ذلك فطفئت شعلته وخر على وجهه

وقال الحسن [2] نبئت أن جبرائيل عليه السلام ، أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : إن عفريتا من الجن يكيدك ، فإذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى . وقال صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث عبد الرحمن بن أبى ليلى كان الشيطان يأتى النبى صلى الله عليه وسلم بيده شعلة من نار ـ الحديث: ابن أبى الدنيا فى مكايد الشيطان هكذا مرسلا ولمالك فى الموطأ نحوه عن يحيى بن سعيد مرسلا ووصله ابن عبد البر فى التمهيد من رواية يحيى بن محمد بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة عن عياش الشامى عن ابن مسعود ورواه أحمد والبزار من حديث عبد الرحمن بن حبيش وقيل له كيف صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة كادته الشياطين فذكر نحوه

(٢) حديث الحسن نبئت أن جبريل أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال ان عفريتا من الجن يكيدك ـ الحديث: ابن أبى الدنيا فى مكايد الشيطان هكذا مرسلا

(١) « لَقَدْ أَتَانِي الشَّيْطَانُ فَنَازَعَنِي ثُمَّ نَازَعَنِي فَأَخَذْتُ بِحَلْقِهِ فَوَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ مَا أَرْسَلْتُهُ حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ مَاءِ لِسَانِهِ عَلَى يَدِي وَلَوْلَا دَعْوَةُ أَخِي سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَأَصْبَحَ طَرِيحًا فِي الْمَسْجِدِ » وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « مَا سَلَكَ عُمَرُ فَجًّا إِلَّا سَلَكَ الشَّيْطَانُ فَجًّا غَيْرَ الَّذِي سَلَكَهُ عُمَرُ » وهذا لأن القلوب كانت مطهرة عن مرعى الشيطان وقوته ، وهى الشهوات

فهما طمعت فى أن يندفع الشيطان عنك بمجرد الذكر ، كما اندفع عن عمر رضى الله عنه كان محالا ، وكنت كمن يطمع أن يشرب دواء قبل الاحتماء ، والمعدة مشغولة بغليظ الأطعمة ويطمع أن ينفعه ، كما نفع الذى شربه بعد الاحتماء وتخلية المعدة . والذكر الدواء ، والتقوى احتماء ، وهى تخلى القلب عن الشهوات . فإذا نزل الذكر قلبا فارغا عن غير الذكر ، اندفع الشيطان كما تندفع العلة بنزول الدواء فى المعدة الخالية عن الأطعمة . قال الله تعالى (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ (١)) وقال تعالى (كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٢)) ومن ساعد الشيطان بعمله فهو مواليه ، وإن ذكر الله بلسانه

وإن كنت تقول الحديث قد ورد مطلقا بأن الذكر يطرد الشيطان ، (٣) ولم تفهم أن أكثر عمومات الشرع مخصوصة بشروط نقلها علماء الدين ، فانظر إلى نفسك ، فليس الخبر كالعيان ، وتأمل أن منتهى ذكرك وعبادتك الصلاة ، فراقب قلبك إذا كنت فى صلاتك ، كيف يجاذبه الشيطان إلى الأسواق ، وحساب العاملين ، وجواب المعاندين ، وكيف يمر بك فى أودية الدنيا ومهالكها ، حتى أنك لا تذكر ما قد نسيته من فضول الدنيا إلا فى صلاتك ،

---

(١) حديث أتانى شيطان فنازعنى ثم نازعنى فأخذت بحلقه — الحديث ابن أبى الدنيا من رواية الشعبى مرسلا هكذا وللبخارى من حديث أبى هريرة ان عفريتا من الجن تفلت على البارحة أو كلمة نحوها ليقطع على صلاتى فأمكننى الله منه — الحديث و ن فى الكبرى من حديث عائشة كان يصلى فأتاه الشيطان فأخذه فصرعه فخنقه قال حتى وجدت برد لسانه على يدى — الحديث : واسناده جيد

(٢) حديث ماسلك عمر فجا إلا سلك الشيطان فجا غير فجه : متفق عليه من حديث سعد بن أبى وقاص بلفظ يا ابن الخطاب مالقيك الشيطان سالكا فجا

(٣) الحديث الوارد بأن الذكر ياعمر يطرد الشيطان : تقدم

(١) ق : ٣٧ (٢) الحج : ٤

ولا يزدحم الشيطان على قلبك إلا إذا صليت . فالصلاة محك القلوب ، فيها يظهر محاسنها ومساويها . فالصلاة لا تقبل من القلوب المشحونة بشهوات الدنيا ، فلاجرم لا ينطرد عنك الشيطان ، بل ربما يزيد عليك الوسواس ، كما أن الدواء قبل الاحتماء ربما يزيد عليك الضرر . فإن أردت الخلاص من الشيطان ، فقدم الاحتماء بالتقوى ، ثم أردفه بدواء الذكر ، يفر الشيطان منك ، كما فر من عمر رضى الله عنه . ولذلك قال وهب بن منبه اتق الله ولا تسب الشيطان فى العلانية ، وأنت صديقه فى السر . أى أنت مطيع له . وقال بعضهم ياعجبا لمن يعصى المحسن بعد معرفته بإحسانه ، ويطيع اللعين بعد معرفته بطغيانه . وكما أن الله تعالى قال (ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ[1]) وأنت تدعوه ولا يستجيب لك، فكذلك تذكرُ الله ولا يهرب الشيطان منك لفقد شروط الذكر والدعاء

قيل لإبراهيم بن أدهم: ما بالنا ندعو فلا يستجاب لنا ؟ وقد قال تعالى (ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ[2]) قال لأن قلوبكم ميتة . قيل وما الذى أماتها ؟ قال ثمان خصال : عرفتم حق الله ولم تقوموا بحقه ، وقرأتم القرءان ولم تعملوا بحدوده ، وقلتم نحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تعملوا بسنته ، وقلتم نخشى الموت ولم تستعدوا له ، وقال تعالى (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا[3]) فواطأتموه على المعاصى، وقلتم نخاف النار وأرهقتم أبدانكم فيها ، وقلتم نحب الجنة ولم تعملوا لها ، وإذا قمتم من فرشكم رميتم عيوبكم وراء ظهوركم وافترشتم عيوب الناس أمامكم ، فأسخطتم ربكم ، فكيف يستجيب لكم

فإن قلت: فالداعى إلى المعاصى المختلفة شيطان واحد أو شياطين مختلفون ؟

فاعلم أنه لا حاجة لك إلى معرفة ذلك فى المعاملة . فاشتغل بدفع العدو ، ولا تسأل عن صفته. كل البقل من حيث يؤتى ، ولا تسأل عن المبقلة. ولكن الذى يتضح بنور الاستبصار فى شواهد الأخبار أنهم جنود مجندة ، وأن لكل نوع من المعاصى شيطانا يخصه ويدعو إليه . فأما طريق الاستبصار فذكره يطول ، ويكفيك القدر الذى ذكرناه، وهو أن اختلاف المسببات يدل على اختلاف الأسباب ، كما ذكرناه فى نور النار وسواد الدخان

---

(١) و (٢) غافر: ٦٠ (٣) فاطر : ٦

وأما الأخبار فقد قال مجاهد : لأبليس خمسة من الأولاد ، قد جعل كل واحد منهم على شيء من أمره ، ثبر ، والأعور ، ومبسوط ، وداسم ، وزلنبور . فأما ثبر ، فهو صاحب المصائب ، الذى يأمر بالثبور ،وشق الجيوب، ولطم الخدود ،ودعوى الجاهلية. وأما الأعور فإنه صاحب الزنا ، يأمر به ويزينه . وأما مبسوط ، فهو صاحب الكذب . وأما داسم ،فإنه يدخل مع الرجل إلى أهله ، يرميهم بالعيب عنده، ويغضبه عليهم . وأما زلنبور ،فهو صاحب السوق ،فبسببه لايزالون متظلمين ، [١] وشيطان الصلاة يسمى خنزب ، [٢] وشيطان الوضوء يسمى الولهان . وقد ورد فى ذلك أخبار كثيرة

وكما أن الشياطين فيهم كثرة ، فكذلك فى الملائكة كثرة. وقد ذكرنا فى كتاب الشكر السر فى كثرة الملائكة ، واختصاص كل واحد منهم بعمل منفرد به . وقد قال أبو أمامة الباهلى، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] « وُكِّلَ بِالْمُؤْمِنِ مِائَةٌ وَسِتُّونَ مَلَكاً يَذُبُّونَ عَنْهُ مَا لَمْ يقْدِرْ عَلَيْهِ، مِنْ ذَلِكَ لِلْبَصَرِ سَبْعَةُ أَمْلاَكٍ يَذُبُّونَ عَنْهُ كَمَا يُذَبُّ الذُّبَابُ عَنْ قَصْعَةِ الْعَسَلِ فِي الْيَوْمِ الصَّائِفِ وَمَا لَوْ بَدَا لَكُمْ لَرَأَيْتُمُوهُ عَلَى كُلِّ سَهْلٍ وَجَبَلٍ كُلٌّ بَاسِطٌ يَدَهُ فَاغِرٌ فَاهُ وَلَوْ وُكِلَ الْعَبْدُ إِلَى نَفْسِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ لَاخْتَطَفَتْهُ الشَّيَاطِينُ »

وقال أيوب بن يونس بن يزيد ،بلغنا أنه يولد مع أبناء الإنس من أبناء الجن ، ثم ينشأون معهم . وروى جابر بن عبد الله ، أن آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض قال يارب ، هذا الذى جعلت بينى وبينه عداوة، إن لم تعنى عليه لاأقوى عليه . قال لايولد لك ولد إلا وكل به ملك . قال يارب زدنى . قال أجزى بالسيئة سيئة ، وبالحسنة عشرا إلى ماأريد .قال رب زدنى . قال باب التوبة مفتوح ، مادام فى الجسد الروح . قال إبليس ، يارب هذا العبد الذى كرمته علي ، أن لاتعنى عليه لاأقوى عليه . قال لايولد له ولد إلا ولد لك ولد . قال يارب زدنى ، قال تجرى منهم مجرى الدم ،وتتخذون صدورهم بيوتا . قال رب زدنى ، قال، أجلب عليهم بخيلك ورجلك ، إلى قوله غرورا .

---

(١) حديث ان شيطان الصلاة يسمى خنزب :م من حديث عثمان بن أبى العاص وقد تقدم أول الحديث

(٢) حديث ان شيطان الوضوء يسمى الولهان : تقدم وهو عند ت من حديث أبى

(٣) حديث أبى أمامة وكل بالمؤمن مائة وستون ملكا يذبون عنه ـ الحديث : ابن أبى الدنيا فى مكايد الشيطان وطب فى المعجم الكبير باسناد ضعيف

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[١] « خَلَقَ اللَّهُ الْجِنَّ ثَلَاثَةَ أَصْنَافٍ ، صِنْفٌ حَيَّاتٌ وَعَقَارِبُ وَخَشَاشُ الْأَرْضِ وَصِنْفٌ كَالرِّيحِ فِي الْهَوَاءِ وَصِنْفٌ عَلَيْهِمُ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ . وَخَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى الْإِنْسَ ثَلَاثَةَ أَصْنَافٍ ، صِنْفٌ كَالْبَهَائِمِ كَمَا قَالَ تَعَالَى (لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ[(١)]) وَصِنْفٌ أَجْسَامُهُمْ أَجْسَامُ بَنِي آدَمَ وَأَرْوَاحُهُمْ أَرْوَاحُ الشَّيَاطِينِ وَصِنْفٌ فِي ظِلِّ اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ »

وقال وهيب بن الورد بلغنا أن إبليس تمثل ليحيي بن زكريا عليهما السلام ، وقال إني أريد أن أنصحك قال لا حاجة لي في نصحك ، ولكن أخبرني عن بني آدم . قال هم عندنا ثلاثة أصناف ، أما صنف منهم ، وهم أشد الأصناف علينا ، نقبل على أحدهم حتى نفتنه ونتمكن منه ، فيفزع إلى الاستغفار والتوبة ، فيفسد علينا كل شيء أدركنا منه . ثم نعود عليه ، فيعود ، فلا نحن نيأس منه ، ولا نحن ندرك منه حاجتنا . فنحن منه في عناء . وأما الصنف الآخر ، فهم في أيدينا بمنزلة الكرة في أيدي صبيانكم ، نقلبهم كيف شئنا . قد كفونا أنفسهم . وأما الصنف الثالث ، فهم مثلك معصومون ، لا نقدر منهم على شيء

فإن قلت : فكيف يتمثل الشيطان لبعض الناس دون البعض ؟ وإذا رأى صورة فهل هي صورته الحقيقية أو هو مثال يتمثل له به ؟ فإن كان على صورته الحقيقية فكيف يرى بصورة مختلفة وكيف يرى في وقت واحد في مكانين وعلى صورتين ؟ حتى يراه شخصان بصورتين مختلفتين

فاعلم أن الملك والشيطان لهما صورتان ، هي حقيقة صورتهما . ولا تدرك حقيقة صورتهما بالمشاهدة إلا بأنوار النبوة .[٢] فما رأى النبي صلى الله عليه وسلم جبرائيل عليه أفضل الصلاة والسلام في صورته إلا مرتين ، وذلك أنه سأله أن يريه نفسه على صورته ، فواعده بالبقيع

(١) حديث أبي الدرداء خلق الله الجن ثلاثة أصناف صنف حيات وعقارب ـ الحديث : ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان وحب في الضعفاء في ترجمة يزيد بن سنان وضعفه و ك نحوه مختصرا في الجن فقط ثلاثة أصناف من حديث أبي ثعلبة الخشني وقال صحيح الاسناد

(٢) حديث انه صلى الله عليه وسلم ما رأى جبريل في صورته إلا مرتين : الشيخان من حديث عائشة وسئلت هل رأى محمد ربه وفيه ولكنه رأى جبريل في صورته مرتين

(١) الاعراف ، ١٧٩

وظهر له بحراء ، فسد الأفق من المشرق إلى المغرب . ورآه مرة أخرى على صورته ليلة المعراج ، عند سدرة المنتهى . وإنما كان يراه فى صورة الآدمى غالبا . (١) فكان يراه فى صورة دحية الكلبى ، (٢) وكان رجلا حسن الوجه . والأكثر أنه يكاشف أهل المكاشفة من أرباب القلوب بمثال صورته ، فيتمثل الشيطان له فى اليقظة ، فيراه بعينه ، ويسمع كلامه بأذنه ، فيقوم ذلك مقام حقيقة صورته . كما ينكشف فى المنام لأكثر الصالحين . وإنما المكاشف فى اليقظة ، هو الذى انتهى إلى رتبة لا يمنعه اشتغال الحواس بالدنيا عن المكاشفة التى تكون فى المنام ، فيرى فى اليقظة ما يراه غيره فى المنام ، كما روى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أن رجلا سأل ربه أن يريه موضع الشيطان من قلب ابن آدم ، فرأى فى النوم جسد رجل شبه البلور ، يرى داخله من خارجه ، ورأى الشيطان فى صورة ضفدع قاعد على منكبه الأيسر ، بين منكبه وأذنه ، له خرطوم دقيق ، قد أدخله من منكبه الأيسر إلى قلبه يوسوس إليه . فإذا ذكر الله تعالى خنس

ومثل هذا قد يشاهد بعينه فى اليقظة . فقد رآه بعض المكاشفين فى صورة كلب جاثم على جيفة يدعو الناس إليها ، وكانت الجيفة مثال الدنيا . وهذا يجرى مجرى مشاهدة صورته الحقيقية ، فإن القلب لابد وأن تظهر فيه حقيقة من الوجه الذى يقابل عالم الملكوت وعند ذلك يشرق أثره على وجهه الذى يقابل عالم الملك والشهادة ، لأن أحدهما متصل بالآخر وقد بينا أن القلب له وجهان ، وجه إلى عالم الغيب ، وهو مدخل الإلهام والوحى ، ووجه إلى عالم الشهادة . فالذى يظهر منه فى الوجه الذى يلى جانب عالم الشهادة ، لايكون إلا صورة متخيلة ، لأن عالم الشهادة كله متخيلات ، إلا أن الخيال تارة يحصل من النظر إلى ظاهر عالم الشهادة بالحس ، فيجوز أن لاتكون الصورة على وفق المعنى ، حتى يرى شخصا جميل الصورة وهو خبيث الباطن ، قبيح السر ، لأن عالم الشهادة عالم كثير التلبيس . أما الصورة

---

(١) حديث انه كان يرى جبريل فى صورة الآدمى غالبا: الشيخان من حديث عائشة وسئلت فأين قوله فدنا فتدلى قالت ذاك جبريل كان يأتيه فى صورة الرجل ـ الحديث

(٢) حديث انه كان يرى جبريل فى صورة دحية الكلبى : الشيخان من حديث اسامة بن زيد ان جبريل أتى النبى صلى الله عليه وسلم وعنده أم سلمة فجعل يحدث ثم قام قال النبى صلى الله عليه وسلم لأم سلمة من هذا قالت دحية ـ الحديث :

التى تحصل فى الخيال من إشراق عالم الملكوت على باطن سر القلوب ، فلا تكون إلا محاكية للصفة وموافقة لها ، لأن الصورة فى عالم الملكوت تابعة للصفة وموافقة لها . فلا جرم لا يرى المعنى القبيح إلا بصورة قبيحة . فيرى الشيطان فى صورة كلب وضفدع وخنزير وغيرها ، ويرى الملك فى صورة جميلة ، فتكون تلك الصورة عنوان المعانى ، ومحاكية لها بالصدق . ولذلك يدل القرد والخنزير فى النوم على إنسان خبيث ، وتدل الشاة على إنسان سليم الصدر وهكذا جميع أبواب الرؤيا والتعبير . وهذه أسرار عجيبة ، وهى من أسرار عجائب القلب ولا يليق ذكرها بعلم المعاملة ، وإنما المقصود أن تصدق بأن الشيطان ينكشف لأرباب القلوب ، وكذلك الملك ، تارة بطريق التمثيل والمحاكاة كما يكون ذلك فى النوم ، وتارة بطريق الحقيقة . والأكثر هو التمثيل بصورة محاكية للمعنى ، هو مثال المعنى ، لا عين المعنى إلا أنه يشاهد بالعين مشاهدة محققة ، وينفرد بمشاهدته المكاشف دون من حوله كالنائم

بيان

ما يؤاخذ به العبد من وساوس القلوب وهمها وخواطرها وقصودها وما يعفى عنه ولا يؤاخذ به

اعلم أن هذا أمر غامض . وقد وردت فيه آيات وأخبار متعارضة ، يلتبس طريق الجمع بينها ، إلا على سماسرة العلماء بالشرع . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال [1] « عُفِيَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ نُفُوسَهَا مَا لَمْ تَتَكَلَّمْ بِهِ أَوْ تَعْمَلْ بِهِ » وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] « إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ لِلْحَفَظَةِ إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِسَيِّئَةٍ فَلَا تَكْتُبُوهَا فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا سَيِّئَةً وَإِذَا هَمَّ بِحَسَنَةٍ لَمْ يَعْمَلْهَا فَاكْتُبُوهَا حَسَنَةً فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا عَشْرًا » وقد خرجه البخارى ومسلم فى الصحيحين . وهو دليل على العفو عن عمل القلب وهمه بالسيئة . وفى لفظ آخر « مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ »

---

(١) حديث عفى لأمتى عما حدثت به نفوسها : متفق عليه من حديث أبى هريرة ان الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها ـ الحديث

(٢) حديث أبى هريرة يقول الله إذا هم عبدى بسيئة فلا تكتبوها عليه ـ الحديث : قال المصنف أخرجه م خ فى الصحيحين قلت هو كما قال واللفظ لمسلم ولهذا والله أعلم قدمه فى الذكر

وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَعَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ . وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهِ ، وَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ » وفى لفظ آخر ، « وَإِذَا تَحَدَّثَ بِأَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً فَأَنَا أَغْفِرُهَا لَهُ مَا لَمْ يَعْمَلْهَا » وكل ذلك يدل على العفو

فأما ما يدل على المؤاخذة ، فقوله سبحانه (وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ [١]) وقوله تعالى (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا [٢]) فدل على أن عمل الفؤاد كعمل السمع والبصر فلا يعفى عنه . وقوله تعالى (وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ [٣]) وقوله تعالى (لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ [٤])

والحق عندنا فى هذه المسألة لا يوقف عليه ، مالم تقع الإحاطة بتفصيل أعمال القلوب ، من مبدأ ظهورها ، إلى أن يظهر العمل على الجوارح فنقول

أول ما يرد على القلب الخاطر . كما لو خطر له مثلا صورة امرأة ، وأنها وراء ظهره فى الطريق ، لو التفت إليها لرآها

والثانى : هيجان الرغبة إلى النظر . وهو حركة الشهوة التى فى الطبع . وهذا يتولد من الخاطر الأول . ونسميه ميل الطبع ، ويسمى الأول حديث النفس

والثالث : حكم القلب بأن هذا ينبغى أن يفعل . أى ينبغى أن ينظر إليها فإن الطبع إذا مال ، لم تنبعث الهمة والنية ما لم تندفع الصوارف . فإنه قد يمنعه حياء أو خوف من الالتفات . وعدم هذه الصوارف ربما يكون بتأمل . وهو على كل حال حكم من جهة العقل . ويسمى هذا اعتقادا ، وهو يتبع الخاطر والميل

الرابع : تصميم العزم على الالتفات ، وجزم النية فيه . وهذا نسميه هماً بالفعل ، ونية وقصدا . وهذا الهم قد يكون له مبدأ ضعيف . ولكن إذا أصغى القلب إلى الخاطر الأول حتى طالت مجاذبته للنفس ، تأكد هذا الهم ، وصار إرادة مجزومة . فإذا انجزمت الإرادة

---

(١) البقرة : ٢٨٤ (٢) الاسراء : ٣٦ (٣) البقرة : ٢٨٣ (٤) المائدة : ٨٩

فربما يندم بعد الجزم ، فيترك العمل . وربما يغفل بعارض فلا يعمل به ولا يلتفت إليه . وربما يعوقه عائق ، فيتعذر عليه العمل

فههنا أربع أحوال للقلب قبل العمل بالجارحة . الخاطر ، وهو حديث النفس . ثم الميل ثم الاعتقاد ، ثم الهم ، فنقول

أما الخاطر فلا يؤاخذبه ، لأنه لا يدخل تحت الاختيار . وكذلك الميل وهيجان الشهوة لأنهما لا يدخلان أيضا تحت الاختيار ، وهما المرادان بقوله صلى الله عليه وسلم « عُفِيَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ نُفُوسَهَا » فحديث النفس عبارة عن الخواطر التي تهجس في النفس ، ولا يتبعها عزم على الفعل . فأما الهم والعزم ، فلا يسمى حديث النفس . بل حديث النفس كما روى عن عثمان بن مظعون ، حيث قال للنبي صلى الله عليه وسلم [1] يارسول الله ، نفسي تحدثني أن أطلق خولة . قال « مَهْلاً إِنَّ مِنْ سُنَّتِي النِّكَاحَ » قال نفسي تحدثني أن أجب نفسي قال « مَهْلاً خِصَاءُ أُمَّتِي دُءُوبُ الصِّيَامِ » قال نفسي تحدثني أن أترهب . قال « مَهْلاً وَرَهْبَانِيَّةُ أُمَّتِي الْجِهَادُ وَالْحَجُّ » وقال نفسي تحدثني أن أترك اللحم . قال « مَهْلاً فَإِنِّي أُحِبُّهُ

---

(١) حديث ان عثمان بن مظعون قال يارسول الله نفسي تحدثني أن أطلق خولة قال مهلا أن من سنتي النكاح - الحديث : ت الحكيم في نوادر الأصول من رواية على بن زيد عن سعيد بن المسيب موسلا نحوه وفيه القاسم بن عبيد الله العمرى كذبه أحمد بن حنبل ويحى بن معين وللدارمي من حديث سعد بن أبي وقاص لما كان من أمر عثمان بن مظعون الذى كان من ترك النساء بعث إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ياعثمان أني لم أومر بالرهبانية - الحديث : وفيه من رغب عن سنتي فليس مني وهو عند م بلفظ رد رسول الله صلى الله عليه وسلم على عثمان ابن مظعون التبتل ولو أذن له لاختصينا وللبغوى والطبراني في معجمي الصحابة باسناد حسن من حديث عثمان بن مظعون أنه قال يارسول الله اني رجل تشق على هذه العزوبة في المغازي فتأذن لي يارسول الله في الخصاء فأختصي قال لا ولكن عليك يا ابن مظعون بالصيام فانه مجفرة ولأحمد والطبراني باسناد جيد من حديث عبد الله بن عمرو خصاء أمتي الصيام والقيام وله من حديث سعيد بن العاص باسناد فيه ضعف ان عثمان بن مظعون قال يارسول الله ائذن لي في الاختصاء فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله قد أبدلنا بالرهبانية الحنيفية السمحة والتكبير على كل شرف - الحديث : وه بسند ضعيف من حديث عائشة النكاح من سنتي ولأحمد وأبي يعلى من حديث أنس لكل نبي وقال أبو يعلى لكل أمة رهبانية ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله وفيه زيد العمي وهو ضعيف ولأبي داود من حديث أبي أمامة ان سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله وإسناده جيد

وَلَوْ أَصَبْتُهُ لَأَ كَلْتُهُ وَلَوْ سَأَلْتُ اللهَ لَأَطْعَمَنِيهِ » فهذه الخواطر التى ليس معها عزم على الفعل ، هى حديث النفس . ولذلك شاور رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ لم يكن معه عزم وهم بالفعل .

وأما الثالث وهو الاعتقاد ، وحكم القلب بأنه ينبغى أن يفعل ، فهذا تردد بين أن يكون اضطرارا أواختيارا . والأحوال تختلف فيه . فالاختيارى منه يؤاخذ به ، والاضطرارى لا يؤاخذ به

وأما الرابع ، وهو الهم بالفعل ، فإنه مؤاخذ به . إلا أنه إن لم يفعل نظر ، فإن كان قد تركه خوفا من الله تعالى ، وندما على همه ، كتبت له حسنة . لأن همه سيئة ، وامتناعه ومجاهدته نفسه حسنة . والهم على وفق الطبع ، مما يدل على تمام الغفلة عن الله تعالى ، والامتناع بالمجاهدة على خلاف الطبع ، يحتاج إلى قوة عظيمة . فجده فى مخالفة الطبع هو العمل لله تعالى والعمل لله تعالى أشد من جده فى موافقة الشيطان بموافقة الطبع . فكتب له حسنة ، لأنه رجح جده فى الامتناع وهمه به ، على همه بالفعل . وإن تعوق الفعل بعائق ، أو تركه بعذر لا خوفا من الله تعالى ، كتبت عليه سيئة . فإن همه فعل من القلب اختيارى . والدليل على هذا التفصيل ، ماروى فى الصحيح مفصلا فى لفظ الحديث . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ رَبِّ ذَاكَ عَبْدُكَ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً ، وَهُوَ أَبْصَرُ بِهِ ، فَقَالَ ارْقُبُوهُ فَإِنْ هُوَ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ بِمِثْلِهَا وَإِنْ تَرَكَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً إِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّائِي » وحيث قال فإن لم يعملها ، أراد به تركها لله . فأما إذا عزم على فاحشة ، فتعذرت عليه بسبب أو غفلة ، فكيف تكتب له حسنة ! وقد قال صلى الله عليه وسلم (٢) « إِنَّمَا يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى نِيَّاتِهِمْ » ونحن نعلم أن من عزم ليلا على أن يصبح ليقتل مسلما أو يزنى بامرأة ، فمات تلك الليلة ، مات مصرا ، ويحشر على نيته ، وقد هم بسيئة ولم يعملها

---

(١) حديث قالت الملائكة رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر — الحديث قال المصنف انه فى الصحيح وهو كما قال فى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة

(٢) حديث انما يحشر الناس على نياتهم :ه من حديث جابر دون قوله إنما وله من حديث أبى هريرة إنما يبعث الناس على نياتهم واسنادهما حسن و م من حديث عائشة يبعثهم الله على نياتهم وله من حديث أم سلمة يبعثون على نياتهم

والدليل القاطع فيه ، ماروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال [١] « إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ » فقيل يارسول الله ، هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال « لِأَنَّهُ أَرَادَ قَتْلَ صَاحِبِهِ » وهـذا نص فى أنه صار بمجرد الإرادة من أهل النار ، مع أنه قتل مظلوما . فكيف يظن أن الله لايؤاخذ بالنية والهم ! بل كل هم دخل تحت اختيار العبد فهو مؤاخذ به ، إلا أن يكفره بحسنة . ونقضُ العزم بالندم حسنة . فلذلك كتبت له حسنة فأما فوت المراد بعائق ، فليس بحسنة

وأما الخواطر وحديث النفس وهيجان الرغبة ، فكل ذلك لايدخل تحت اختيار فالمؤاخذة به تكليف مالايطاق . ولذلك لما نزل قوله تعالى (وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ [١]) جاء ناس من الصحابة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا [٢] كلفنا مالانطيق ، إن أحدنا ليحدث نفسه بما لايحب أن يثبت فى قلبه ، ثم يحاسب بذلك . فقال صلى الله عليه وسلم « لَعَلَّكُمْ تَقُولُونَ كَمَا قَالَتِ الْيَهُودُ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا قُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا » فقالوا سمعنا وأطعنا . فأنزل الله الفرج بعد سنة بقوله (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا [٢]) فظهر به أن كل مالايدخل تحت الوسع من أعمال القلب ، هو الذى لايؤاخذ به . فهذا هو كشف الغطاء عن هـذا الالتباس . وكل من يظن أن كل مايجرى على القلب يسمى حديث النفس ولم يفرق بين هذه الأقسام الثلاثة ، فلا بد وأن يغلط . وكيف لايؤاخذ أعمال القلب من الكبر والعجب ، والرياء ، النفاق والحسد ، وجملة الخبائث من أعمال القلب ! بل السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا أى مايدخل تحت الاختيار . فلو وقع البصر بغير اختيار على غير ذى محرم ، لم يؤاخذ به . فإن أتبعها نظرة ثانية ، كان مؤاخذا به . لأنه مختار . فكذا خواطر القلب تجرى هذا المجرى : بل القلب

---

(١) حديث إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول فى النار ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبى بكرة

(٢) حديث لما نزل قوله تعالى وإن تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله جاء ناس من الصحابة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا كلفنا ما لانطيق ـ الحديث : م.س حديث أبى هريرة وابن عتبة

(١) البقرة : ٢٨٤ (٢) البقرة : ٢٨٦

أولى بمؤاخذته لأنه الأصل . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « التَّقْوَى هٰهُنَا » وأشار إلى القلب. وقال الله تعالى (لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلٰكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ [١]) وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « الإِثْمُ حَوَّازُ القُلُوبِ » وقال [٣] « البِرُّ مَا اطْمَأَنَّ إِلَيْهِ القَلْبُ وَإِنْ أَفْتَوْكَ وَأَفْتَوْكَ » حتى انا نقول ، إذا حكم القلب المفتى بإيجاب شىء ، وكان مخطئا فيه ، صار مثابا عليه . بل من قد ظن أنه تطهر ، فعليه أن يصلى ، فإن صلى ثم تذكر أنه لم يتوضأ ، كان له ثواب بفعله . فإن تذكر ثم تركه ، كان معاقبا عليه . ومن وجد على فراشه امرأة ، فظن أنها زوجته ، لم يعص بوطئها ، وإن كانت أجنبية . فإن ظن أنها أجنبية . ثم وطئها ، عصى بوطئها ، وإن كانت زوجته . وكل ذلك نظر إلى القلب دون الجوارح

بيان

أن الوسواس هل يتصور أن ينقطع بالكلية عند الذكر أم لا

اعلم أن العلماء المراقبين للقلوب ، الناظرين فى صفاتها وعجائبها ، اختلفوا فى هذه المسألة على خمس فرق

فقالت فرقة : الوسوسة تنقطع بذكر الله عز وجل ، لأنه عليه السلام قال [٤] « فَإِذَا ذُكِرَ اللهُ خَنَسَ » والخنس هو السكوت ، فكأنه يسكت .

وقالت فرقة : لا ينعدم أصله ، ولكن يجرى فى القلب ولا يكون له أثر ، لأن القلب إذا صار مستوعبا بالذكر ، كان محجوبا عن التأثر بالوسوسة ، كالمشغول بهمه ، فإنه قد يكلم ولا يفهم ، وإن كان الصوت يمر على سمعه .

---

(١) حديث التقوى ههنا وأشار الى القلب: م من حديث أبى هريرة وقال الى صدره

(٢) حديث الاثم حواز القلوب : تقدم فى العلم

(٣) حديث البر ما اطمأن اليه القلب وان أفتوك وأفتوك : الطبرانى من حديث أبى ثعلبة ولأحمد نحوه من حديث وابصة وفيه وان أفتاك الناس وأفتوك وقد تقدما

(٤) حديث وإذا ذكر الله خنس: ابن أبى الدنيا وابن عدى من حديث أنس فى أثناء حديث ان الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم ــ الحديث ; وقد تقدم قريبا

---

(١) الحج : ٣٧

وقالت فرقة: لاتسقط الوسوسة ولا أثرها أيضا، ولكن تسقط غلبتها للقلب، فكأنه يوسوس من بعد وعلى ضعف.

وقالت فرقة: ينعدم عند الذكر فى لحظة، وينعدم الذكر فى لحظة، ويتعاقبان فى أزمنة متقاربة، يظن لتقاربها أنها متساوقة. وهى كالكرة التى عليها نقط متفرقة، فإنك إذا أدرتها بسرعة، رأيت النقط دوائر، بسرعة تواصلها بالحركة. واستدل هؤلاء بأن الخنس قد ورد، ونحن نشاهد الوسوسة مع الذكر، ولا وجه له إلا هذا

وقالت فرقة: الوسوسة والذكر يتساوقان فى الدوام على القلب تساوقا لا ينقطع. وكما أن الإنسان قد يرى بعينيه شيئين فى حالة واحدة، فكذلك القلب قد يكون مجرى لشيئين فقد قال صلى الله عليه وسلم [1] « مَا مِنْ عَبْدٍ إِلاَّ وَلَهُ أَرْبَعَةُ أَعْيُنٍ عَيْنَانِ فِي رَأْسِهِ يُبْصِرُ بِهِمَا أَمْرَ دُنْيَاهُ وَعَيْنَانِ فِي قَلْبِهِ يُبْصِرُ بِهِمَا أَمْرَ دِينِهِ » وإلى هذا ذهب المحاسبى.

والصحيح عندنا أن كل هذه المذاهب صحيحة، ولكن كلها قاصرة عن الإحاطة بأصناف الوسواس. وإنما نظر كل واحد منهم. إلى صنف واحد من الوسواس فأخبر عنه، والوسواس أصناف

الاول: أن يكون من جهة التلبيس بالحق. فإن الشيطان قد يلبس بالحق فيقول للإنسان تترك التنعم باللذات، فإن العمر طويل؛ والصبر عن الشهوات طول العمر ألمه عظيم. فعند هذا إذا ذكر العبد عظيم حق الله تعالى، وعظيم ثوابه وعقابه، وقال لنفسه الصبر عن الشهوات شديد، ولكن الصبر على النار أشد منه، ولا بد من أحدهما. فإذا ذكر العبد وعد الله تعالى ووعيده، وجدد إيمانه ويقينه، خنس الشيطان وهرب. إذ لا يستطيع أن يقول له النار أيسر من الصبر على المعاصى. ولا يمكنه أن يقول المعصية لا تفضى إلى النار فإن إيمانه بكتاب الله عز وجل يدفعه عن ذلك، فينقطع وسواسه. وكذلك يوسوس إليه بالعجب بعمله، فيقول أى عبد يعرف الله كما تعرفه؟ ويعبده كما تعبده؟ فما أعظم مكانك عند الله تعالى! فيتذكر العبد حينئذ أن معرفته وقلبه وأعضاءه التى بها عمله وعلمه،

---

(١) حديث مامن عبد إلا وله أربعة أعين عينان فى رأسه يبصر بهما أمر دنياه وعينان فى قلبه يبصر بهما أمر دينه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث معاذ بلفظ الآخرة مكان دينه وفيه الحسين ابن أحمد بن محمد الهروى الشماخى الحافظ كذبه ك والآفة منه

كل ذلك من خلق الله تعالى . فمن أين يعجب به ! فيخنس الشيطان . إذ لا يمكنه أن يقول ليس هذا من الله . فإن المعرفة والإيمان يدفعه . فهذا نوع من الوسواس ، ينقطع بالكلية عن العارفين المستبصرين بنور الإيمان والمعرفة

الصنف الثاني: أن يكون وسواسه بتحريك الشهوة وهيجانها . وهذا ينقسم إلى ما يعلم العبد يقينا أنه معصية ، وإلى ما يظنه بغالب الظن . فإن علمه يقينا ، خنس الشيطان عن تهييج يؤثر في تحريك الشهوة ، ولم يخنس عن التهييج . وإن كان مظنونا ، فربما يبقى مؤثرا ، بحيث يحتاج إلى مجاهدة في دفعه ، فتكون الوسوسة موجودة ، ولكنها مدفوعة غير غالبة

الصنف الثالث: أن تكون وسوسة بمجرد الخواطر ، وتذكر الأحوال الغالبة ، والتفكر في غير الصلاة مثلا . فإذا أقبل على الذكر ، تصور أن يندفع ساعة ويعود ، ويندفع ويعود فيتعاقب الذكر والوسوسة ، ويتصور أن يتساوقا جميعا ، حتى يكون الفهم مشتملا على فهم معنى القراءة ، وعلى تلك الخواطر ، كأنهما في موضعين من القلب . وبعيد جدا أن يندفع هذا الجنس بالكلية بحيث لا يخطر . ولكنه ليس محالا . إذ قال عليه السلام [1] « مَنْ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ لَمْ يُحَدِّثْ فِيهِمَا نَفْسَهُ بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » فلولا أنه متصور لما ذكره . إلا أنه لا يتصور ذلك إلا في قلب استولى عليه الحب ، حتى صار كالمستهتر . فإنا قد نرى المستوعب القلب بعدو تأذى به ، قد يتفكر بمقدار ركعتين وركعات في مجادلة عدوه ، بحيث لا يخطر بباله غير حديث عدوه . كذلك المستغرق في الحب ، قد يتفكر في محادثة محبوبه بقلبه ، ويغوص في فكره ؛ بحيث لا يخطر بباله غير حديث محبوبه . ولو كلمه غيره لم يسمع . ولو اجتاز بين يديه أحد لكان كأنه لا يراه . وإذا تصور هذا في خوف من عدو ، وعند الحرص على مال وجاه ، فكيف لا يتصور من خوف النار والحرص على الجنة ! ولكن ذلك عزيز لضعف الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر

وإذا تأملت جملة هذه الأقسام وأصناف الوسواس ، علمت أن لكل مذهب من المذاهب وجها ، ولكن في محل مخصوص

---

(١) حديث من صلى ركعتين لم يحدث فيهما نفسه بشيء من الدنيا: تقدم في الصلاة

وبالجملة فالخلاص من الشيطان فى لحظة أو ساعة غير بعيد . ولكن الخلاص منه عمراً طويلا بعيد جداً ، ومحال فى الوجود . ولو تخلص أحد من وساوس الشيطان بالخواطر وتهييج الرغبة ، لتخلص رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقد روى [1] أنه نظر إلى علم ثوبه فى الصلاة ، فلما سلم رمى بذلك الثوب ، وقال « شَغَلَنِي عَنِ الصَّلَاةِ » وقال « اذْهَبُوا بِهِ إِلَى أَبِي جَهْمٍ وَائْتُونِي بِأَنْبِجَانِيَّتِهِ » [2] وكان فى يده خاتم من ذهب ، فنظر إليه وهو على المنبر ، ثم رمى به وقال « نَظْرَةٌ إِلَيْهِ وَنَظْرَةٌ إِلَيْكُمْ » وكان ذلك لوسوسة الشيطان ، بتحريك لذة النظر إلى خاتم الذهب وعلم الثوب . وكان ذلك قبل تحريم الذهب . فلذلك لبسه ثم رمى به . فلا تنقطع وسوسة عروض الدنيا ونقدها إلا بالرمي والمفارقة . فما دام علك شيئا وراء حاجته ، ولو ديناراً واحداً ، لا يدعه الشيطان فى صلاته من الوسوسة فى الفكر فى ديناره ، وأنه كيف يحفظه ، وفيماذا ينفقه ، وكيف يخفيه حتى لايعلم به أحد ، أو كيف يظهره حتى يتباهى به ، إلى غير ذلك من الوساوس . فمن أنشب مخالبه فى الدنيا وطمع فى أن يتخلص من الشيطان ، كان كمن انغمس فى العسل ، وظن أن الذباب لايقع عليه ، فهو محال . فالدنيا باب عظيم لوسوسة الشيطان . وليس له باب واحد ، بل أبواب كثيرة .

قال حكيم من الحكماء : الشيطان يأتى ابن آدم من قبل المعاصى ، فإن امتنع أتاه من وجه النصيحة ، حتى يلقيه فى بدعة . فإن أبى أمره بالتحرج والشدة ، حتى يحرم ماليس بحرام . فإن أبى شككه فى وضوئه وصلاته ، حتى يخرجه عن العلم . فإن أبى خفف عليه أعمال البر ، حتى يراه الناس صابراً عفيفا ، فتميل قلوبهم إليه ، فيعجب بنفسه ، وبه يهلكه وعند ذلك تشتد الحاجة ، فإنها آخر درجة ، ويعلم أنه لو جاوزها أفلت منه إلى الجنة .

---

(١) حديث انه صلى الله عليه وسلم نظر إلى علم فى ثوبه فى الصلاة ـ الحديث : تقدم فيه

(٢) حديث كان فى يده خاتم من ذهب فنظر إليه على المنبر فرماه فقال نظرة إليه ونظرة اليكم : ن من حديث ابن عباس وتقدم فى الصلاة

بيان

سرعة تقلب القلب وانقسام القلوب فى التغير والثبات

اعلم أن القلب كما ذكرناه ، تكتنفه الصفات التي ذكرناها ، وتنصب إليه الآثار والأحوال من الأبواب التي وصفناها ، فكأنه هدف يصاب على الدوام من كل جانب ، فإذا أصابه شيء يتأثر به ، أصابه من جانب آخر ما يضاده ، فتتغير صفته . فإن نزل به الشيطان فدعاه إلى الهوى ، نزل به الملك وصرفه عنه . وإن جذبه شيطان إلى شر ، جذبه شيطان آخر إلى غيره . وإن جذبه ملك إلى خير ، جذبه آخر إلى غيره . فتارة يكون متنازعا بين ملكين وتارة بين شيطانين ، وتارة بين ملك وشيطان . لا يكون قط مهملا . وإليه الإشارة بقوله تعالى (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ [1]) ولاطلاع رسول الله صلى الله عليه وسلم على عجيب صنع الله تعالى ، فى عجائب القلب وتقلبه ، كان يحلف به فيقول [1] « لَا وَمُقَلِّبِ الْقُلُوبِ » وكان كثيرا ما يقول [2] « يَامُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ » وقالوا أو تخاف يارسول الله! قال « وَمَا يُؤَمِّنُنِي وَالْقَلْبُ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمٰنِ يُقَلِّبُهُ كَيْفَ يَشَاءُ » وفى لفظ آخر « إِنْ شَاءَ أَنْ يُقِيمَهُ أَقَامَهُ وَإِنْ شَاءَ أَنْ يُزِيغَهُ أَزَاغَهُ » وضرب له صلى الله عليه وسلم ثلاثة أمثلة فقال [3] « مَثَلُ الْقَلْبِ مَثَلُ الْعُصْفُورِ يَتَقَلَّبُ فِي كُلِّ سَاعَةٍ » وقال عليه السلام

---

(١) حديث لاومقلب القلوب : خ من حديث ابن عمر

(٢) حديث يامثبت القلوب ثبت قلبي على دينك ـ الحديث : ت من حديث أنس وحسنه وك من حديث جابر وقال ابن أبى الدنيا صحيح على شرط م ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك ون فى الكبرى ه ك وصححه على شرط خ م من حديث النواس ابن سمعان مامن قلب إلا بين أصبعين من أصابع الرحمن انشاء أقامه وان شاء أزاغه ون فى الكبرى باسناد جيد نحوه من حديث عائشة

(٣) حديث مثل القلب مثل العصفور يتقلب فى كل ساعة : ك فى المستدرك وقال صحيح على شرط م والبيهقى فى الشعب من حديث أبى عبيدة بن الجراح . قلت رواه البغوى فى معجمه من حديث أبى عبيده غير منسوب وقال لاأدرى له صحبة أم لا

---

(١) الانعام : ١١٠

(١) « مَثَلُ الْقَلْبِ فِي تَقَلُّبِهِ كَالْقِدْرِ إِذَا اسْتَجْمَعَتْ غَلَيَانًا » وقال (٢) « مَثَلُ الْقَلْبِ كَمَثَلِ رِيشَةٍ فِي أَرْضِ فَلَاةٍ تَقَلِّبُهَا الرِّيَاحُ ظَهْراً لِبَطْنٍ » وهذه التقلبات ، وعجائب صنع الله تعالى فى تقليبهامن حيث لا تهتدى إليه المعرفة، لا يعرفها إلا المراقبون والمراعون لأحوالهم مع الله تعالى

والقلوب فى الثبات على الخير والشر والتردد بينهما ثلاثة

قلب عمر بالتقوى ، وزكا بالرياضة ، وطهر عن خبائث الأخلاق ، تنقدح فيه خواطر الخير من خزائن الغيب ومداخل الملكوت ، فينصرف العقل إلى التفكر فيما خطر له ، ليعرف دقائق الخير فيه ، ويطلع على أسرار فوائده ، فينكشف له بنور البصيرة وجهه ، فيحكم بأنه لا بد من فعله ، فيستحثه عليه ، ويدعوه إلى العمل به . وينظر الملك إلى القلب فيجده طيبا فى جوهره ، طاهرا بتقواه ، مستنيرا بضياء العقل ، معمورا بأنوار المعرفة ، فيراه صالحا لأن يكون له مستقرا ومهبطا ، فعند ذلك يمده بجنود لا ترى ، ويهديه إلى خيرات أخرى ، حتى ينجر الخير إلى الخير ، وكذلك على الدوام . ولا يتناهى إمداده بالترغيب بالخير ، وتيسير الأمر عليه . وإليه الإشارة بقوله تعالى (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (١)) وفى مثل هذا القلب يشرق نور المصباح من مشكاة الربوبية ، حتى لا يخفى فيه الشرك الخفى ، الذى هو أخفى من دبيب النملة السوداء فى الليلة الظلماء فلا يخفى على هذا النور خافية ، ولا يروج عليه شيء من مكايد الشيطان . بل يقف الشيطان ويوحى زخرف القول غرورا ، فلا يلتفت إليه . وهذا القلب بعد طهارته من المهلكات ، يصير على القرب معمورا بالمنجيات التى سنذكرها ، من الشكر ، والصبر : والخوف ، والرجاء ، والفقر ، والزهد ، والمحبة ، والرضا ، والشوق ، والتوكل ، والتفكر ، والمحاسبة ، وغير ذلك . وهو القلب الذى أقبل الله عز وجل بوجهه عليه ، وهو القلب المطمئن ، المراد بقوله تعالى (أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢)) وبقوله عز وجل (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٣))

---

(١) حديث مثل القلب فى تقلبه كالقدر اذا استجمعت غليانا : أحمد وك وقال صحيح على شرط خ من حديث المقداد بن الأسود

(٢) حديث مثل القلب كمثل ريشة بأرض فلاة ـ الحديث : الطبرانى فى الكبير والبيهقى فى الشعب من حديث أبى موسى الأشعرى باسناد حسن وللبزار نحوه من حديث أنس باسناد ضعيف

(١) الليل : ٥ (٢) الرعد : ٢٨ (٣) الفجر : ٢٧

القلب الثانى : القلب المخذول المشحون بالهوى ، المدنس بالأخلاق المذمومة والخبائث المفتوح فيه أبواب الشياطين ، المسدود عنه أبواب الملائكة . ومبدأ الشرفية ، أن ينقدح فيه خاطر من الهوى ويهجس فيه ، فينظر القلب إلى حاكم العقل ليستفتى منه ، ويستكشف وجه الصواب فيه ، فيكون العقل قد ألف خدمة الهوى وأنس به ، واستمر على استنباط الحيل له ، وعلى مساعدة الهوى ، فتستولى النفس وتساعد عليه ، فينشرح الصدر بالهوى وتنبسط فيه ظلماته ، لانحباس جند العقل عن مدافعته ، فيقوى سلطان الشيطان ، لاتساع مكانه بسبب انتشار الهوى ، فيقبل عليه بالتزين والغرور والأمانى ، ويوحى بذلك زخرفا من القول غرورا . فيضعف سلطان الإيمان بالوعد والوعيد ، ويخبو نور اليقين لخوف الآخرة ، إذ يتصاعد عن الهوى دخان مظلم إلى القلب يملأ جوانبه ، حتى تنطفىء أنواره فيصير العقل كالعين التى ملأ الدخان أجفانها ، فلا يقدر على أن ينظر . وهكذا تفعل غلبة الشهوة بالقلب ، حتى لا يبقى للقلب إمكان التوقف والاستبصار ، ولو بصره واعظ وأسمعه ماهو الحق فيه ، عمى عن الفهم ، وصم عن السمع ، وهاجت الشهوة فيه ، وسطا الشيطان وتحركت الجوارح على وفق الهوى ، فظهرت المعصية إلى عالم الشهادة من عالم الغيب ، بقضاء من الله تعالى وقدره ، وإلى مثل هذا القلب الإشارة بقوله تعالى (أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا [1]) وبقوله عز وجل (لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ [2]) وبقوله تعالى (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ [3]) .

ورب قلب هذا حاله بالإضافة إلى بعض الشهوات . كالذى يتورع عن بعض الأشياء ولكنه إذا رأى وجها حسنا لم يملك عينه وقلبه ، وطاش عقله ، وسقط مساك قلبه . أو كالذى لا يملك نفسه فيما فيه الجاه والرياسة والكبر ، ولا يبقى معه مسكة للتثبت عند ظهور أسبابه أو كالذى لا يملك نفسه عند الغضب ، مهما استحقر وذكر عيب من عيوبه . أو كالذى لا يملك نفسه عند القدرة على أخذ درهم أو دينار ، بل يتهالك عليه تهالك الواله المستهتر

(١) الفرقان : ٤٣ و ٤٤ (٢) يس : ٧ (٣) البقرة : ٦

فينسي فيه المروءة والتقوى . فكل ذلك لتصاعد دخان الهوى إلى القلب، حتى يظلم وتنطفىء منه أنواره ، فينطفيء نور الحياء والمروءة والإيمان ، ويسعى فى تحصيل مراد الشيطان

القلب الثالث : قلب تبدو فيه خواطر الهوى فتدعوه إلى الشر ، فيلحقه خاطر الايمان فيدعوه إلى الخير ، فتنبعث النفس بشهوتها إلى نصرة خاطر الشر ، فتقوى الشهوة وتحسن التمتع والتنعم : فينبعث العقل إلى خاطر الخير ، ويدفع فى وجه الشهوة ، ويقبح فعلها ، وينسبها إلى الجهل : ويشبهها بالبهيمة والسبع فى تهجمها على الشر ، وقلة اكتراثها بالعواقب فتميل النفس إلى نصح العقل .فيحمل الشيطان حملة على العقل ، فيقوى داعى الهوى ، ويقول ماهذا التحرج البارد ؟ ولم تمتنع عن هواك فتؤذى نفسك ؟ وهل ترى أحدا من أهل عصرك يخالف هواه ، أو يترك غرضه ؟ أفتترك لهم ملاذ الدنيا يتمتعون بها ؟ وتحجر على نفسك حتى تبقى محروما شقيا متعوبا ، يضحك عليك أهل الزمان ؟ أفتريد أن يزيد منصبك على فلان وفلان ؟ وقد فعلوا مثل مااشتهيت ، ولم يمتنعوا ؟ أما ترى العالم الفلانى ليس يحترز من مثل ذلك ؟ ولو كان ذلك شرا لامتنع منه ؟ فتميل النفس إلى الشيطان ، وتنقلب إليه فيحمل الملك حملة على الشيطان ، ويقول : هل هلك إلا من اتبع لذة الحال ؛ ونسى العاقبة؟ أفتقنع بلذة يسيرة ؟ وتترك لذة الجنة ونعيمها أبد الآباد ؟ أم تستثقل ألم الصبر عن شهوتاك؟ ولا تستثقل ألم النار ؟ أتغتر بغفلة الناس عن أنفسهم ؟ واتباعهم هواهم ؟ ومساعدتهم الشيطان؟ مع أن عذاب النار لايخففه عنك معصية غيرك . أرأيت لو كنت فى يوم صائف شديد الحر ووقف الناس كلهم فى الشمس ، وكان لك بيت بارد ، أكنت تساعد الناس ؟ أو تطلب لنفسك الخلاص ؟ فكيف تخالف الناس خوفا من حر الشمس ، ولا تخالفهم خوفا من حر النار ؟ فعند ذلك تمتثل النفس إلى قول الملك . فلا يزال يتردد بين الجندين ، متجاذبا بين الحزبين . إلى أن يغلب على القلب ماهو أولى به

فإن كانت الصفات التى فى القلب الغالب عليها الصفات الشيطانية التى ذكرناها ، غلب الشيطان ، ومال القلب إلى جنسه من أحزاب الشيطان ، معرضا عن حزب الله تعالى وأوليائه ومساعدا لحزب الشيطان وأعدائه ، وجرى على جوارحه بسابق القدر ماهو سبب بعده

عن الله تعالى . وإن كان الأغلب على القلب الصفات الملكية ، لم يصغ القلب إلى إغواء الشيطان وتحريضه إياه على العاجلة ، وتهوينه أمر الآخرة ، بل مال إلى حزب الله تعالى وظهرت الطاعة بموجب ماسبق من القضاء على جوارحه ، فقلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن ، أي بين تجاذب هذين الجندين ، وهو الغالب ، أعني التقلب ، والانتقال من حزب إلى حزب ، أما الثبات على الدوام مع حزب الملائكة ، أو مع حزب الشيطان ، فنادر من الجانبين ، وهذه الطاعات والمعاصي ، تظهر من خزائن الغيب ، إلى عالم الشهادة بواسطة خزانة القلب ، فإنه من خزائن الملكوت ، وهي أيضا إذا ظهرت كانت علامات ، تعرف أرباب القلوب ، سابق القضاء ، فمن خلق للجنة يسرت له أسباب الطاعات ، ومن خلق للنار يسرت له أسباب المعاصي ، وسلط عليه أقران السوء ، وألقى في قلبه حكم الشيطان ، فإنه بأنواع الحكم يغر الحمقى ، بقوله إن الله رحيم ، فلا تبال ، وإن الناس كلهم مايخافون الله فلا تخالفهم ، وإن العمر طويل فاصبر حتى تتوب غدا ، يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا يعدهم التوبة ، ويمنيهم المغفرة ، فيهلكهم بإذن الله تعالى بهذه الحيل ، وما يجري مجراها ، فيوسع قلبه لقبول الغرور ، ويضيقه عن قبول الحق ، وكل ذلك بقضاء من الله وقدر (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ [1]) (إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ [2]) فهو الهادي والمضل يفعل مايشاء ، ويحكم مايريد ، لاراد لحكمه ، ولا معقب لقضائه ، خلق الجنة ، وخلق لها أهلا ، فاستعملهم بالطاعة ، وخلق النار ، وخلق لها أهلا ، فاستعملهم بالمعاصي عرف الخلق علامة أهل الجنة وأهل النار ، فقال (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ [3]) ثم قال تعالى ، فيما روى عن نبيه صلى الله عليه وسلم ، [1] « هَؤُلَاءِ فِي الْجَنَّةِ وَلَا أُبَالِي وَهَؤُلَاءِ فِي النَّارِ وَلَا أُبَالِي » فتعالى الله الملك الحق لا يسأل عما يفعل وهم يسألون

---

(١) حديث قال الله عزوجل هؤلاء إلى الجنة ولاأبالي وهؤلاء إلى النار ولاأبالي : أحمد وابن حبان من حديث عبد الرحمن بن قتادة السلمي وقال ابن عبد البر في الاستيعاب إنه مضطرب الاسناد

---

(١) الانعام : ١٢٥ (٢) آل عمران : ١٦٠ (٣) الانفطار : ١٣

ولنقتصر على هذا القدر اليسير، من ذكر عجائب القلب، فإن استقصاءه لا يليق بعلم المعاملة، وإنما ذكرنا منه ما يحتاج إليه، لمعرفة أغوار علوم المعاملة، وأسرارها، لينتفع بها من لا يقنع بالظواهر، ولا يجتزى بالقشر عن اللباب، بل يتشوق إلى معرفة دقائق حقائق الأسباب، وفيما ذكرناه كفاية له ومقنع إن شاء الله تعالى، والله ولى التوفيق

تم كتاب عجائب القلب ولله الحمد والمنة، ويتلوه كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق والحمد لله وحده، وصلى الله على كل عبد مصطفى

كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق
ومعالجة أمراض القلب

كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق
ومعالجة أمراض القلب

وهو الكتاب الثانى من ربع المهلكات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى صرّف الأمور بتدبيره ، وعدّل تركيب الخلق فأحسن فى تصويره ، وزيّن صورة الإنسان بحسن تقويمه وتقديره ، وحرسه من الزيادة والنقصان فى شكله ومقاديره وفوّض تحسين الأخلاق إلى اجتهاد العبد وتشميره ، واستحثه على تهذيبها بتخويفه وتحذيره وسهل على خواص عباده تهذيب الأخلاق بتوفيقه وتيسيره ، وامتنّ عليهم بتسهيل صعبه وعسيره ، والصلاة والسلام على محمد عبد الله ونبيه وحبيبه وصفيه وبشيره ونذيره ، الذى كان يلوح أنوار النبوة من بين أسار يره ، ويستشرف حقيقة الحق من مخايله وتباشيره ، وعلى آله وأصحابه الذين طهّروا وجه الإسلام من ظلمة الكفر ودياجيره ، وحسموا مادة الباطل فلم يتدنّسوا بقليله ولا بكثيره ،

أما بعد : فالخلق الحسن صفة سيد المرسلين ، وأفضل أعمال الصديقين ، وهو على التحقيق شطر الدين ، وثمرة مجاهدة المتقين ، ورياضة المتعبدين ، والأخلاق السيئة هى السموم القاتلة ، والمهلكات ، الدامغة ، والمخازى الفاضحة ، والرذائل الواضحة ، والخبائث المبعدة عن جوار رب العالمين ، المنخرطة بصاحبها فى سلك الشياطين ، وهى الأبواب المفتوحة إلى نار الله الموقدة ، التى تطلع على الأفئدة ، كما أن الأخلاق الجميلة ، هي الأبواب المفتوحة من القلب إلى نعيم الجنان ، وجوار الرحمن ، والأخلاق الخبيثة أمراض القلوب ، وأسقام النفوس ، إلا أنه مرض يفوت حياة الأبد ، وأين منه المرض الذى لا يفوت إلا حياة الجسد

ومهما اشتدت عناية الأطباء ، بضبط قوانين العلاج للأبدان . وليس فى مرضها إلا فوت الحياة الفانية ، فالعناية بضبط قوانين العلاج لأمراض القلوب ، وفى مرضها فوت حياة باقية أولى . وهذا النوع من الطب ، واجب تعلمه على كل ذى لب ، إذ لا يخلو قلب

من القلوب عن أسقام ، لو أهملت تراكمت ، وترادفت العلل ، وتظاهرت ، فيحتاج العبد إلى تأنق فى معرفة عللها وأسبابها ، ثم إلى تشمير فى علاجها وإصلاحها ، فمعالجتها هو المراد بقوله تعالى (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا[1]) وإهمالها هو المراد بقوله (وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا[2])

ونحن نشير فى هذا الكتاب ، إلى جمل من أمراض القلوب ، وكيفية القول فى معالجتها على الجملة . من غير تفصيل لعلاج خصوص الأمراض ، فإن ذلك يأتى فى بقية الكتب من هذا الربع ، وغرضنا الآن النظر الكلى فى تهذيب الأخلاق ، وتمهيد منهاجها ، ونحن نذكر ذلك ، ونجعل علاج البدن مثالا له ، ليقرب من الأفهام دركه ، ويتضح ذلك ببيان فضيلة حسن الخلق ، ثم بيان حقيقة حسن الخلق ، ثم بيان قبول الأخلاق للتغير بالرياضة ، ثم بيان السبب الذى به ينال حسن الخلق ، ثم بيان الطرق التى بها يعرف تفصيل الطرق إلى تهذيب الأخلاق ، ورياضة النفوس ، ثم بيان العلامات التى بها يعرف مرض القلب ، ثم بيان الطرق التى بها يعرف الإنسان عيوب نفسه ، ثم بيان شواهد النقل ، على أن طريق المعالجة للقلوب بترك الشهوات لا غير . ثم بيان علامات حسن الخلق . ثم بيان الطريق فى رياضة الصبيان فى أول النشو . ثم بيان شروط الإرادة ومقدمات المجاهدة . فهى أحد عشر فصلا . يجمع مقاصدها هذا الكتاب . إن شاء الله تعالى

بيان

فضيلة حسن الخلق ومذمة سوء الخلق

قال الله تعالى لنبيه وحبيبه ، مثنيا عليه ومظهراً نعمته لديه (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ[3]) وقالت عائشة رضى الله عنها ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] خلقه القرءان . وسأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حسن الخلق ، فتلا قوله تعالى (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ

﴿ كتاب رياضة النفس ﴾

(١) حديث عائشة كان خلقه القرءان : تقدم وهو عند م

(١) و(٢) الشمس : ٩ (٣) القلم : ٤

بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ [١]) ثم قال صلى الله عليه وسلم [١] « هُوَ أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ وَتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ » وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ » وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « أَثْقَلُ مَا يُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَقْوَى اللهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ » [٤] وجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين يديه ، فقال يارسول الله ، ماالدين ؟ قال « حُسْنُ الْخُلُقِ » فأتاه من قبل يمينه ، فقال يارسول الله ، ماالدين ؟ قال « حُسْنُ الْخُلُقِ » ثم أتاه من قبل شماله ، فقال ماالدين ؟ فقال « حُسْنُ الْخُلُقِ » ثم أتاه من ورائه ، فقال يارسول الله ، ماالدين ؟ فالتفت إليه وقال « أَمَا تَفْقَهُ ! هُوَ أَنْ لَا تَغْضَبَ » وقيل يارسول الله ، [٥] ماالشؤم ؟ قال « سُوءُ الْخُلُقِ »

وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم [٦] أوصني ، فقال « اتَّقِ اللهَ حَيْثُ كُنْتَ » قال زدني ، قال « أَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا » قال زدني ، قال « خَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ » وسئل عليه السلام ، أي الأعمال أفضل ؟ قال « خُلُقٌ حَسَنٌ » وقال صلى الله عليه وسلم [٧] « مَا حَسَّنَ اللهُ خَلْقَ عَبْدٍ وَخُلُقَهُ فَيُطْعِمَهُ النَّارَ » وقال الفضيل قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل ، وهي سيئة الخلق ، تؤذي جيرانها بلسانها . قال « لَا خَيْرَ فِيهَا هِيَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ » وقال أبو الدرداء ، سمعت رسول الله

---

(١) حديث تأويل قوله تعالى خذ العفو الآية هو أن تصل من قطعك ـ الحديث : ابن مردويه من حديث جابر وقيس بن سعد بن عبادة وأنس بأسانيد حسان

(٢) حديث بعثت لأتمم مكارم الأخلاق : أحمد وك والبيهقي من حديث أبي هريرة وتقدم في آداب الصحبة

(٣) حديث أثقل ما يوضع في الميزان خلق حسن : د ت وصححه من حديث أبي الدرداء

(٤) حديث جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم من بين يديه فقال ماالدين قال حسن الخلق ـ الحديث محمد بن نصر المروزي في كتاب تعظيم قدر الصلاة من رواية أبي العلاء بن الشخير مرسلا

(٥) حديث ما الشؤم قال سوء الخلق : أحمد من حديث عائشة الشؤم سوء الخلق ولأبي داود من حديث رافع بن مكيث سوء الخلق شؤم وكلاهما لا يصح

حديث قال رجل أوصني قال اتق الله حيثما كنت ـ الحديث : ت من حديث أبي ذر وقال حسن صحيح

حديث ما حسن الله خلق امرىء وخلقه فتطعمه النار : تقدم في آداب الصحبة

---

(١) الأعراف : ١٩٩

صلى الله عليه وسلم يقول.[1] « أَوَّلُ مَا يُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ حُسْنُ الْخُلُقِ وَالسَّخَاءُ » ولما خلق الله الإيمان ، قال اللهم قونى ، فقواه بحسن الخلق والسخاء . ولما خلق الله الكفر ، قال اللهم قونى ، فقواه بالبخل وسوء الخلق

وقال صلى الله عليه وسلم [2] « إِنَّ اللهَ اسْتَخْلَصَ هذَا الدِّينَ لِنَفْسِهِ وَلَا يَصْلُحُ لِدِينِكُمْ إِلَّا السَّخَاءُ وَحُسْنُ الْخُلُقِ أَلَا فَزَيِّنُوا دِينَكُمْ بِهِمَا » وقال عليه السلام [3] « حُسْنُ الْخُلُقِ خُلُقُ اللهِ الْأَعْظَمُ » [4] وقيل يارسول الله، أي المؤمنين أفضل إيمانا ؟ قال « أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا » وقال صلى الله عليه وسلم [5] « إِنَّكُمْ لَنْ تَسَعُوا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ فَسَعُوهُمْ بِبَسْطِ الْوَجْهِ وَحُسْنِ الْخُلُقِ » وقال أيضا صلى الله عليه وسلم [6] « سُوءُ الْخُلُقِ يُفْسِدُ الْعَمَلَ كَمَا يُفْسِدُ الْخَلُّ الْعَسَلَ » وعن جرير بن عبد الله قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [7] « إِنَّكَ امْرُؤٌ قَدْ حَسَّنَ اللهُ خَلْقَكَ فَحَسِّنْ خُلُقَكَ » وعن البراء بن عازب قال [8] « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وجها ، وأحسنهم خلقا . وعن أبي مسعود

---

(١) حديث أبي الدرداء أول ما يوضع في الميزان حسن الخلق ـ الحديث لم أقف له على أصل هكذا ولأبي داود وت من حديث أبي الدرداء ما من شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق وقال غريب وقال في بعض طرقه حسن صحيح

(٢) حديث ان الله استخلص هذا الدين لنفسه ـ الحديث : الدارقطني في كتاب المستجاد والخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث أبي سعيد الخدري باسناد فيه لين

(٣) حديث حسن الخلق خلق الله الاعظم :الطبراني في الاوسط من حديث عمار بن ياسر بسند ضعيف

(٤) حديث قيل يارسول الله أي المؤمنين أفضلهم ايمانا قال أحسنهم خلقا :دت ن ك من حديث أبي هريرة وتقدم في النكاح بلفظ أكمل المؤمنين وللطبراني من حديث أبي أمامة أفضلكم إيمانا أحسنكم خلقا

(٥) حديث انكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق :البزار وأبو يعلى والطبراني في مكارم الأخلاق من حديث أبي هريرة بعض طرق البزار رجاله ثقات

(٦) حديث سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل: ابن حبان في الضعفاء من حديث أبي هريره والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس وأبي هريرة أيضا وضعفها ابن جرير

(٧) حديث إنك امرؤ قد حسن الله خلقك فأحسن خلقك :الخرائطي في مكارم الأخلاق وأبو العباس الدغولي في كتاب الآداب وفيه ضعف

(٨) حديث البراء كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وجها وأحسنهم خلقا: الخرائطي في مكارم الأخلاق بسند حسن

البدرى قال ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى دعائه [١] « اللَّهُمَّ حَسَّنْتَ خَلْقِى فَحَسِّنْ خُلُقِى »

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما [٢] قال ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر الدعاء فيقول « اللَّهُمَّ إِنِّى أَسْأَلُكَ الصِّحَّةَ وَالْعَافِيَةَ وَحُسْنَ الْخُلُقِ » وعن أبى هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم [٣] قال « كَرَمُ الْمُؤْمِنِ دِينُهُ وَحَسَبُهُ حُسْنُ خُلُقِهِ وَمُرُوءَتُهُ عَقْلُهُ » وعن أسامة بن شريك قال ، [٤] شهدت الأعاريب يسألون النبي صلى الله عليه وسلم يقولون ، ماخير ماأعطى العبد ؟ قال « خُلُقٌ حَسَنٌ » وقال صلى الله عليه وسلم [٥] « إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّى مَجْلِساً يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقاً »

وعن ابن عباس رضي الله عنهما [٦] قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثَلَاثٌ مَنْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ أَوْ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ فَلَا تَعْتَدُّوا بِشَيْءٍ مِنْ عَمَلِهِ ، تَقْوَى تَحْجِزُهُ عَنْ مَعَاصِى اللَّهِ ، أَوْ حِلْمٌ يَكُفُّ بِهِ السَّفِيهَ أَوْ خُلُقٌ يَعِيشُ بِهِ بَيْنَ النَّاسِ » وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم فى افتتاح

---

(١) حديث أبى مسعود البدرى اللهم كما حسنت خلقى فحسن خلقى : الخرايطى فى مكارم الأخلاق هكذا من رواية عبد الله بن أبى الهذيل عن أبى مسعود البدرى وإنما هو ابن مسعود أى عبد الله هكذا رواه ابن حبان فى صحيحه ورواه أحمد من حديث عائشة

(٢) حديث عبد الله بن عمرو اللهم إنى أسألك الصحة والعافية وحسن الخلق: الخرايطى فى مكارم الأخلاق باسناد فيه لين

(٣) حديث أبى هريرة كرم المرء دينه ومروءته وعقله وحسن خلقه: حب وك وصححه على شرط م والبيهقى قلت فيه مسلم بن خالد الزنجى وقد تكلم فيه قال البيهقى وروى من وجهين آخرين ضعيفين ثم رواه موقوفا على عمر وقال اسناد صحيح

(٤) حديث أسامة بن شريك شهدت الأعاريب يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم ماخير ماأعطى العبد قال خلق حسن: ه وتقدم فى آداب الصحبة

(٥) حديث إن أحبكم إلى الله وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا : طص طس من حديث أبى هريرة ان أحبكم إلى الله أحاسنكم أخلاقا وللطبرانى فى مكارم الأخلاق من حديث جابر أن أقربكم منى مجلسا أحاسنكم أخلاقا وقد تقدم الحديثان فى آداب الصحبة

(٦) حديث ابن عباس ثلاث من لم يكن فيه واحدة منهن فلا يعتد بشىء من عمله ـ الحديث : الخرايطى فى مكارم الأخلاق باسناد ضعيف ورواه الطبرانى فى الكبير وفى مكارم الأخلاق من حديث أم سلمة

الصلاة [١] « اللَّهُمَّ اهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ » وقال أنس [٢] ، بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما إذ قال « إِنَّ حُسْنَ الْخُلُقِ لَيُذِيبُ الْخَطِيئَةَ كَمَا تُذِيبُ الشَّمْسُ الْجَلِيدَ » وقال عليه السلام [٣] « مِنْ سَعَادَةِ الْمَرْءِ حُسْنُ الْخُلُقِ » وقال صلى الله عليه وسلم [٤] « الْيُمْنُ حُسْنُ الْخُلُقِ »

وقال عليه السلام لأبي ذر [٥] « يَا أَبَا ذَرٍّ لَا عَقْلَ كَالتَّدْبِيرِ وَلَا حَسَبَ كَحُسْنِ الْخُلُقِ » وعن أنس [٦] قال ، قالت أم حبيبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أرأيت المرأة يكون لها زوجان في الدنيا ، فتموت ويموتان ، ويدخلون الجنة ، لأيهما هي تكون ؟ قال « لِأَحْسَنِهِمَا خُلُقًا كَانَ عِنْدَهَا فِي الدُّنْيَا يَا أُمَّ حَبِيبَةَ ذَهَبَ حُسْنُ الْخُلُقِ بِخَيْرَيِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ »

وقال صلى الله عليه وسلم [٧] « إِنَّ الْمُسْلِمَ الْمُسَدَّدَ لَيُدْرِكُ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ بِحُسْنِ خُلُقِهِ وَكَرَمِ مَرْتَبَتِهِ » وفي رواية « دَرَجَةَ الظَّمْآنِ فِي الْهَوَاجِرِ » وقال عبد الرحمن بن سمرة كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال [٨] « إِنِّي رَأَيْتُ الْبَارِحَةَ عَجَبًا رَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي جَاثِيًا عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ فَجَاءَ حُسْنُ خُلُقِهِ فَأَدْخَلَهُ عَلَى اللهِ تَعَالَى »

---

(١) حديث اللهم اهدني لأحسن الأخلاق ـ الحديث: م من حديث علي

(٢) حديث أنس ان حسن الخلق ليذيب الخطيئة كما يذيب الشمس الجليد: الخرايطي في مكارم الاخلاق بسند ضعيف ورواه طب وطس والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس وضعفه وكذا رواه من حديث أبي هريرة وضعفه أيضا

(٣) حديث من سعادة المرء حسن الخلق: الخرايطي في مكارم الاخلاق والبيهقي في الشعب من حديث جابر بسند ضعيف

(٤) حديث اليمن حسن الخلق: الخرايطي في مكارم الاخلاق من حديث علي باسناد ضعيف

(٥) حديث يا أبا ذر لا عقل كالتدبير ولا حسب كحسن الخلق: ﻫ حب من حديث أبي ذر

(٦) حديث أنس قالت أم حبيبة يارسول الله أرأيت المرأة يكون لها زوجان: البزار والطبراني في الكبير والخرايطي في مكارم الأخلاق باسناد ضعيف

(٧) حديث أن المسلم المسدد ليدرك درجة الصائم القائم بحسن خلقه ـ الحديث: أحمد من حديث عبد الله ابن عمرو بالرواية الاولى ومن حديث أبي هريرة بالرواية الثانية وفيها ابن لهيعة

(٨) حديث عبد الرحمن بن سمرة اني رأيت البارحة عجبا ـ الحديث: الخرايطي في مكارم الاخلاق بسند ضعيف

وقال أنس ، قال النبي صلى الله عليه وسلم [(١)] « إِنَّ الْعَبْدَ لَيَبْلُغُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ عَظِيمَ دَرَجَاتِ الْآخِرَةِ وَشَرَفَ الْمَنَازِلِ وَإِنَّهُ لَضَعِيفٌ فِي الْعِبَادَةِ »

وروى أن عمر رضى الله عنه ، [(٢)] استأذن على النبى صلى الله عليه وسلم ، وعنده نساء من نساء قريش يكلمنه ويستكثرنه ، عالية أصواتهن على صوته . فلما استأذن عمر رضى الله عنه تبادرن الحجاب . فدخل عمر ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك ، فقال عمر رضى الله عنه مم تضحك بأبى أنت وأمى يارسول الله ؟ فقال « عَجِبْتُ لِهَؤُلَاءِ اللَّاتِي كُنَّ عِنْدِي لَمَّا سَمِعْنَ صَوْتَكَ تَبَادَرْنَ الْحِجَابَ » فقال عمر ، أنت كنت أحق أن يهبنك يارسول الله . ثم أقبل عليهن عمر فقال ، ياعدوات أنفسهن ، أتهبننى ولا تهبن رسول الله صلى الله عليه وسلم ! قلن نعم ، أنت أغلظ وأفظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال صلى الله عليه وسلم « إِيهاً يَاابْنَ الْخَطَّابِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ قَطُّ سَالِكاً فَجّاً إِلَّا سَلَكَ فَجّاً غَيْرَ فَجِّكَ » وقال صلى الله عليه وسلم [(٣)] « سُوءُ الْخُلُقِ ذَنْبٌ لَا يُغْفَرُ وَسُوءُ الظَّنِّ خَطِيئَةٌ تَفُوحُ » ، وقال عليه السلام [(٤)] « إِنَّ الْعَبْدَ لَيَبْلُغُ مِنْ سُوءِ خُلُقِهِ أَسْفَلَ دَرْكِ جَهَنَّمَ »

الآثار قال ابن لقمان الحكيم لأبيه : يا أبت أى الخصال من الإنسان خير ؟ قال الدين . قال : فإذا كانت اثنتين ؟ قال : الدين والمال . قال : فإذا كانت ثلاثا ؟ قال: الدين والمال والحياء . قال : فإذا كانت أربعا ؟ قال : الدين والمال والحياء وحسن الخلق . قال : فإذا كانت خمسا ؟ قال : الدين والمال والحياء وحسن الخلق والسخاء . قال : فإذا كانت ستا ؟

---

(١) حديث ان العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة ـ الحديث : طب والخرايطى فى مكارم الأخلاق وأبو الشيخ فى كتاب مكارم الأخلاق وأبو الشيخ فى كتاب طبقات الاصبهانيين من حديث أنس باسناد جيد

(٢) حديث ان عمر استأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده نساء من قريش يكلمنه ويستكثرنه الحديث : متفق عليه

(٣) حديث سوء الخلق ذنب لا يغفر ـ الحديث : طص من حديث عائشة ما من شىء الاله توبة الاصاحب سوء الخلق فانه لا يتوب من ذنب الا عاد فى شر منه واسناده ضعيف

(٤) حديث ان العبد ليبلغ من سوء خلقه أسفل من درك جهنم الطبرانى : والخرايطى فى مكارم الأخلاق وأبو الشيخ فى طبقات الاصبهانيين من حديث أنس بأسناد جيد وهو بعض ـ الحديث : الذى قبله بحديثين

قال · يابني إذا اجتمعت فيه الخمس خصال فهو نقي تقي ، ولله ولي ، ومن الشيطان بري.
وقال الحسن : من ساء خلقه عذب نفسه . وقال أنس بن مالك ، إن العبد ليبلغ بحسن خلقه أعلى درجة فى الجنه ، وهو غير عابد ، ويبلغ بسوء خلقه أسفل درك فى جهنم ، وهو عابد .
وقال يحيى بن معاذ فى سعة الأخلاق كنوز الأرزاق . وقال وهب بن منبه ، مثل السيىء الخلق كمثل الفخارة المكسورة ، لا ترقع ولا تعاد طينا . وقال الفضيل لأن يصحبنى فاجر حسن الخلق ، أحب إلى من أن يصحبنى عابد سيىء الخلق

وصحب ابن المبارك رجلا سيىء الخلق فى سفر ، فكان يحتمل منه ويداريه فلما فارقه بكى . فقيل له فى ذلك ، فقال بكيته رحمة له فارقته وخلقه معه لم يفارقه · وقال الجنيد ، أربع ترفع العبد إلى أعلى الدرجات ، وإن قل عمله ، وعلمه ، الحلم ، والتواضع ، والسخاء ، وحسن الخلق ، وهو كمال الإيمان

وقال الكنانى ، التصوف خلق ، فمن زاد عليك فى الخلق زاد عليك فى التصوف .
وقال عمر رضى الله عنه ، خالطوا الناس بالأخلاق ، وزايلوهم بالأعمال . وقال يحي بن معاذ سوء الخلق سيئة لا تنفع معها كثرة الحسنات . وحسن الخلق حسنة لا تضر معها كثرة السيئات . وسئل ابن عباس ، ما الكرم ؟ فقال هو ما بين الله فى كتابه العزيز : (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ[1]) قيل فما الحسب ؟ قال أحسنكم خلقا أفضلكم حسبا وقال لكل بنيان أساس ، وأساس الإسلام حسن الخلق . وقال عطاء ، ما ارتفع من ارتفع إلا بالخلق الحسن ، ولم ينل أحد كماله إلا المصطفى صلى الله عليه وسلم . فأقرب الخلق إلى الله عز وجل السالكون آثاره بحسن الخلق .

بيان

حقيقة حسن الخلق وسوء الخلق

اعلم أن الناس قد تكلموا فى حقيقة حسن الخلق ، وأنه ماهو . وما تعرضوا لحقيقته ، وإنما تعرضوا لثمرته . ثم لم يستوعبوا جميع ثمراته ، بل ذكر كل واحد من ثمراته ماخطر له وما كان حاضرا فى ذهنه . ولم يصرفوا العناية إلى ذكر حده ، وحقيقته المحيطة بجميع ثمراته

(١) الحجرات : ١٣

على التفصيل والاستيعاب . وذلك كقول الحسن ، حسن الخلق بسط الوجه ، وبذل الندى وكف الأذى . وقال الواسطى ، هو أن لا يخاصم ولا يخاصم ، من شدة معرفته بالله تعالى وقال شاه الكرمانى ، هو كف الأذى ، واحتمال المؤن . وقال بعضهم ، هو أن يكون من الناس قريبا ، وفيما بينهم غريبا . وقال الواسطى مرة ، هو إرضاء الخلق فى السراء والضراء . وقال أبو عثمان ، هو الرضا عن الله تعالى . وسئل سهل التسترى عن حسن الخلق فقال أدناه الاحتمال ، وترك المكافأة ، والرحمة للظالم ، والاستغفار له ، والشفقة عليه . وقال مرة ، أن لا يتهم الحق فى الرزق ، ويثق به ، ويسكن إلى الوفاء بما ضمن ، فيطيعه ولا يعصيه فى جميع الأمور فيما بينه وبينه ، وفيما بينه وبين الناس . وقال على رضى الله عنه ، حسن الخلق فى ثلاث خصال : اجتناب المحارم ، وطلب الحلال ، والتوسعة على العيال . وقال الحسين ابن منصور ، هو أن لا يؤثر فيك جفاء الخلق ، بعد مطالعتك للحق . وقال أبو سعيد الخراز ، هو أن لا يكون لك هم غير الله تعالى .

فهذا وأمثاله كثير ، وهو تعرض لثمرات حسن الخلق لا لنفسه . ثم ليس هو محيطا بجميع الثمرات أيضا . وكشف الغطاء عن الحقيقة أولى ، من نقل الأقاويل المختلفة

فنقول الخلق والخلق عبارتان مستعملتان معا ، يقال فلان حسن الخلق والخلق ، أى حسن الباطن والظاهر . فيراد بالخلق الصورة الظاهرة ، ويراد بالخُلُق الصورة الباطنة . وذلك لأن الإنسان مركب من جسد مدرك بالبصر ، ومن روح ونفس مدرك بالبصيرة . ولكل واحد منهما هيئة وصورة ، إما قبيحة ، وإما جميلة . فالنفس المدركة بالبصيرة ، أعظم قدرا من الجسد المدرك بالبصر . ولذلك عظم الله أمره بإضافته إليه ، إذ قال تعالى (إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ [1]) فنبه على أن الجسد منسوب إلى الطين ، والروح إلى رب العالمين . والمراد بالروح والنفس فى هذا المقام واحد

فالخلق عبارة عن هيئة فى النفس راسخة ، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر ، من غير حاجة إلى فكر وروية . فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة ، المحمودة عقلا وشرعا ، سميت تلك الهيئة خلقا حسنا . وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة ، سميت الهيئة

---

(١) ص : ٧١ و ٧٢ .

التى هى المصدر خلقا سيئا . وإنما قلنا إنها هيئة راسخة : لأن من يصدر منه بذل المال على الندور لحاجة عارضة ، لا يقال خلقه السخاء ، مالم يثبت ذلك فى نفسه ثبوت رسوخ . وإنما اشترطنا أن تصدر منه الأفعال بسهولة من غير روية ، لأن من تكلف بذل المال ، أو السكوت عند الغضب. بجهد وروية ، لا يقال خلقه السخاء والحلم

فهنا أربعة أمور

أحدها : فعل الجميل والقبيح . والثانى : القدرة عليهما . والثالث: المعرفة بهما

والرابع : هيئة للنفس بها تميل إلى أحد الجانبين ، ويتيسر عليها أحد الأمرين، إما الحسن وإما القبيح .

وليس الخلق عبارة عن الفعل ، فرب شخص خلقه السخاء ولا يبذل ، أما لفقد المال أو لمانع . وربما يكون خلقه البخل ، وهو يبذل، إما لباعث ، أو لرياء

وليس هو عبارة عن القوة ، لأن نسبة القوة إلى الإمساك والإعطاء ، بل إلى الضدين واحد . وكل إنسان خلق بالفطرة قادر على الإعطاء والإمساك . وذلك لا يوجب خلق البخل ، ولا خلق السخاء .

وليس هو عبارة عن المعرفة ، فإن المعرفة تتعلق بالجميل والقبيح جميعا ، على وجه واحد بل هو عبارة عن المعنى الرابع ، وهو الهيئة التى بها تستعد النفس لأن يصدر منها الإمساك أو البذل. فالخلق إذاً عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة

وكما أن حسن الصورة الظاهرة مطلقا ، لا يتم بحسن العينين دون الأنف ، والفم ، والخد بل لابد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر ، فكذلك فى الباطن أربعة أركان ، لا بد من الحسن فى جميعها حتى يتم حسن الخلق . فإذا استوت الأركان الأربعة ، واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق . وهو قوة العلم ، وقوة الغضب ، وقوة الشهوة ، وقوة العدل بين هذه القوى الثلاث

أما قوة العلم ، فحسنها وصلاحها فى أن تصير بحيث يسهل بها درك الفرق بين الصدق والكذب فى الأقوال ، وبين الحق والباطل فى الاعتقادات ، وبين الجميل والقبيح فى الأفعال

فإذا صلحت هذه القوة ، خصل منها ثمرة الحكمة . والحكمة رأس الأخلاق الحسنة . وهى التى قال الله فيها (وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا [١])

وأما قوة الغضب ، فحسنها فى أن يصير انقباضها وانبساطها على حد ماتقتضيه الحكمة

وكذلك الشهوة حسنها وصلاحها فى أن تكون تحت إشارة الحكمة . أعنى إشارة العقل والشرع

وأما قوة العدل فهو ضبط الشهوة والغضب تحت إشارة العقل والشرع . فالعقل مثاله مثال الناصح المشير . وقوة العدل هى القدرة ، ومثالها مثال المنفذ الممضى لإشارة العقل . والغضب هو الذى تنفذ فيه الإشارة ، ومثاله مثال كلب الصيد ، فإنه يحتاج إلى أن يؤدب حتى يكون استرساله وتوقفه بحسب الإشارة ، لا بحسب هيجان شهوة النفس . والشهوة مثالها مثال الفرس الذى يركب فى طلب الصيد ، فإنه تارة يكون مروضا مؤدبا ، وتارة يكون جموحا .

فمن استوت فيه هذه الخصال واعتدلت ، فهو حسن الخلق مطلقا . ومن اعتدل فيه بعضها دون البعض ، فهو حسن الخلق بالإضافة إلى ذلك المعنى خاصة . كالذى يحسن بعض أجزاء وجهه دون بعض . وحسن القوة الغضبية واعتدالها يعبر عنه بالشجاعة . وحسن قوة الشهوة واعتدالها يعبر عنه بالعفة . فإن مالت قوة الغضب عن الاعتدال إلى طرف الزيادة تسمى تهورا . وإن مالت إلى الضعف والنقصان تسمى جبنا وخورا . وإن مالت قوة الشهوة إلى طرف الزيادة تسمى شرها . وإن مالت إلى النقصان تسمى جمودا . والمحمود هو الوسط وهو الفضيلة . والطرفان رذيلتان مذمومتان . والعدل إذا فات فليس له طرفا زيادة ونقصان بل له ضد واحد ومقابل : وهو الجور . وأما الحكمة ، فيسمى إفراطها عند الاستعمال فى الأغراض الفاسدة خبثا وجربزة . ويسمى تفريطها بلها . والوسط هو الذى يختص باسم الحكمة

فإذاً أمهات الأخلاق وأصولها أربعة ، الحكمة ، والشجاعة ، والعفة ، والعدل . ونعنى بالحكمة : حالة للنفس بها يدرك الصواب من الخطأ فى جميع الأفعال الاختيارية . ونعنى بالعدل : حالة للنفس وقوة بها تسوس الغضب والشهوة ، وتحملهما على مقتضى الحكمة

---

(١) البقرة : ٢٦٩

ويضبطهما فى الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاها . ونعنى بالشجاعة : كون قوة الغضب منقادة للعقل فى إقدامها وإحجامها · ونعنى بالعفة : تأدب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع.

فمن اعتدال هذه الأصول الأربعة تصدر الأخلاق الجميلة كلها · إذ من اعتدال قوة العقل يحصل حسن التدبير ، وجودة الذهن ، وثقابة الرأى ، وإصابة الظن ، والتفطن لدقائق الأعمال ، وخفايا آفات النفوس . ومن إفراطها تصدر الجربزة ، والمكر ، والخداع ، والدهاء ومن تفريطها يصدر البله ، والغمارة ، والحمق ، والجنون · وأعنى بالغمارة قلة التجربة فى الأمور مع سلامة التخيل . فقد يكون الإنسان غمرا فى شىء دون شىء . والفرق بين الحمق والجنون أن الأحمق مقصوده صحيح ، ولكن سلوكه الطريق فاسد ، فلا تكون له روية صحيحة فى سلوك الطريق الموصل إلى الغرض . وأما المجنون فإنه يختار ما لا ينبغى أن يختار ، فيكون أصل اختياره وإيثاره فاسداً

وأما خلق الشجاعة ، فيصدر منه الكرم ، والنجدة ، والشهامة ، وكسر النفس ، والاحتمال ، والحلم ، والثبات ، وكظم الغيظ ، والوقار ، والتودد ، وأمثالها . وهى أخلاق محمودة . وأما إفراطها وهو التهور ، فيصدر منه الصلف ، والبذخ ، والاستشاطة ، والتكبر والعجب . وأما تفريطها ، فيصدر منه المهانة ، والذلة ، والجزع ، والخساسة ، وصغر النفس والانقباض عن تناول الحق الواجب

وأما خلق العفة ، فيصدر منه السخاء ، والحياء ، والصبر ، والمسامحة ، والقناعة ، والورع واللطافة ، والمساعدة ، والظرف ، وقلة الطمع . وأما ميلها إلى الإفراط أو التفريط ، فيحصل منه الحرص ، والشره ، والوقاحة ، والخبث ، والتبذير ، والتقصير ، والرياء ، والهتكة ، والمجانة والعبث ، والملق ، والحسد ، والشماتة ، والتذلل للأغنياء ، واستحقار الفقراء ، وغير ذلك

فأمهات محاسن الأخلاق هذه الفضائل الأربعة ، وهى الحكمة ، والشجاعة ، والعفة والعدل . والباقى فروعها . ولم يبلغ كمال الاعتدال فى هذه الأربع إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم . والناس بعده متفاوتون فى القرب والبعد منه . فكل من قرب منه فى هذه الأخلاق فهو قريب من الله تعالى ، بقدر قربه من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكل من جمع كمال هذه الأخلاق ، استحق أن يكون بين الخلق ملكا مطاعا، يرجع الخلق كلهم إليه ، ويقتدون به فى جميع الأفعال . ومن انفك عن هذه الأخلاق كلها ، واتصف بأضدادها ، استحق أن يخرج من بين البلاد والعباد ، فإنه قد قرب من الشيطان اللعين المبعد ، فينبغى أن يبعد ، كما أن الأول قريب من الملك المقرب ، فينبغى أن يقتدى به ، ويتقرب إليه : فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] لم يبعث إلا ليتمم مكارم الأخلاق كما قال.

وقد أشار القرءان إلى هذه الأخلاق فى أوصاف المؤمنين ، فقال تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ [1]) فالإيمان بالله وبرسوله من غير ارتياب ، هو قوة اليقين ، وهو ثمرة العقل ومنتهى الحكمة. والمجاهدة بالمال ، هو السخاء، الذى يرجع إلى ضبط قوة الشهوة . والمجاهدة بالنفس ، هى الشجاعة ، التى ترجع إلى استعمال قوة الغضب على شرط العقل ، وحد الاعتدال فقد وصف الله تعالى الصحابة فقال (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ [2]) إشارة إلى أن للشدة موضعا ، وللرحمة موضعا . فليس الكمال فى الشدة بكل حال ،ولا فى الرحمة بكل حال . فهذا بيان معنى الخلق ، وحسنه وقبحه ، وبيان أركانه وثمراته وفروعه

بيان
قبول الأخلاق للتغيير بطريق الرياضة

اعلم أن بعض من غلبت البطالة عليه ، استثقل المجاهدة والرياضة ، والاشتغال بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق . فلم تسمح نفسه بأن يكون ذلك ، لقصوره ونقصه وخبث دخلته ، فزعم أن الأخلاق لا يتصور تغييرها ، فإن الطباع لا تتغير . واستدل فيه بأمرين

أحدهما : أن الخلق هو صورة الباطن، كما أن الخلق هو صورة الظاهر . فالخلقة الظاهرة لا يقدر على تغييرها. فالقصير لا يقدر أن يجعل نفسه طويلا ، ولا الطويل يقدر أن يجعل نفسه قصيرا ، ولا القبيح يقدر على تحسين صورته . فكذلك القبح الباطن يجرى هذا المجرى

---

(١) حديث بعثت لأتمم مكارم الأخلاق :تقدم فى آداب الصحبة

(١) الحجرات : ١٥ (٢) الفتح : ٢٩

والثانى: أنهم قالوا حسن الخلق بقمع الشهوة والغضب ، وقد جربنا ذلك بطول المجاهدة وعرفنا أن ذلك من مقتضى المزاج والطبع ، فإنه قط لا ينقطع عن الآدمى . فاشتغاله به تضييع زمان بغير فائدة . فإن المطلوب هو قطع التفات القلب إلى الحظوظ العاجلة ، وذلك محال وجوده

فنقول لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير ، لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات ، ولما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « حَسِّنُوا أَخْلاَقَكُمْ » وكيف ينكر هذا فى حق الآدمى ، وتغيير خلق البهيمة ممكن . إذ ينقل البازى من الاستيحاش إلى الأنس ، والكلب من شره الأكل إلى التأدب والإمساك والتخلية ، والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد وكل ذلك تغيير للأخلاق

والقول الكاشف للغطاء عن ذلك أن نقول

الموجودات منقسمة إلى ما لا مدخل للآدمى واختياره فى أصله وتفصيله ، كالسماء والكواكب ، بل أعضاء البدن داخلا وخارجا ، وسائر أجزاء الحيوانات ، وبالجملة كل ما هو حاصل كامل ، وقع الفراغ من وجوده وكماله . وإلى ما وجد وجودا ناقصا ، وجعل فيه قوة لقبول الكمال بعد أن وجد شرطه . وشرطه قد يرتبط باختيار العبد ، بأن النواة ليست بتفاح ولا نخل ، إلا أنها خلقت خلقة يمكن أن تصير نخلة إذا انضاف التربية إليها . ولا تصير تفاحا أصلا ، ولا بالتربية . فإذا صارت النواة متأثرة بالاختيار ، حتى تقبل بعض الأحوال دون بعض ، فكذلك الغضب والشهوة ، لو أردنا قمعهما وقهرهما بالكلية حتى لا يبقى لهما أثر ، لم نقدر عليه أصلا . ولو أردنا سلاستهما وقودهما بالرياضة والمجاهدة ، قدرنا عليه . وقد أمرنا بذلك . وصار ذلك سبب نجاتنا ووصولنا إلى الله تعالى . نعم الجبلات مختلفة ، بعضها سريعة القبول ، وبعضها بطيئة القبول . ولاختلافها سببان

أحدهما: قوة الغريزة فى أصل الجبلة ، وامتداده مدة الوجود ، فإن قوة الشهوة ، والغضب والتكبر ، موجودة فى الإنسان . ولكن أصعبها أمرا ، وأعصاها على التغيير ، قوة الشهوة

---

(١) حديث حسنوا أخلاقكم : أبو بكر ابن لال فى مكارم الأخلاق من حديث معاذ يامعاذ حسن خلقك للناس منقطع ورجاله ثقات :

فإنها أقدم وجودا . إذا الصبي فى مبدأ الفطرة تخلق له الشهوة . ثم بعد سبع سنين ربما يخلق له الغضب . وبعد ذلك يخلق له قوة التمييز

والسبب الثانى: أن الخلق قديتأكد بكثرة العمل بمقتضاه ، والطاعة له ، وباعتقاد كونه حسنا ومرضيا ، والناس فيه على أربع مراتب

الأولى : وهو الأنسان الغفل ، الذى لايميز بين الحق والباطل ، والجميل والقبيح ، بل بقى كما فطر عليه ، خاليا عن جميع الاعتقادات ، ولم تستتم شهوته أيضا باتباع اللذات . فهذا سريع القبول للعلاج جدا ، فلا يحتاج إلا إلى معلم ومرشد ، وإلى باعث من نفسه ، يحمله على المجاهدة ، فيحسن خلقه فى أقرب زمان

والثانية : أن يكون قد عرف قبح القبيح ؛ ولكنه لم يتعود العمل الصالح ، بل زين له سوء عمله فتعاطاه ، انقيادا لشهواته ، وإعراضا عن صواب رأيه ، لاستيلاء الشهوة عليه . ولكن علم تقصيره فى عمله . فأمره أصعب من الأول ، إذقد تضاعفت الوظيفة عليه ، إذ عليه قلع ما رسخ فى نفسه أولا ، من كثرة الاعتياد للفساد ، والآخر أن يغرس فى نفسه صفة الاعتياد للصلاح . ولكنه بالجملة محل قابل للرياضة ، إن انتهض لها بجد وتشمير وحزم

والثالثة : أن يعتقد فى الأخلاق القبيحة أنها الواجبة المستحسنة ، وأنها حق وجميل ، وتربى عليها . فهذا يكاد تمتنع معالجته ، ولا يرجى صلاحه إلا على الندور ، وذلك لتضاعف أسباب الضلال

والرابعة : أن يكون مع نشئه على الرأى الفاسد ، وتربيته على العمل به ، يرى الفضيلة فى كثرة الشر ، واستهلاك النفوس ، ويباهى به ، ويظن أن ذلك يرفع قدره . وهذا هو أصعب المراتب . وفى مثله قيل : ومن العناء رياضة الهرم ، ومن التعذيب تهذيب الذيب

والأول من هؤلاء جاهل فقط : والثاني جاهل وضال ، والثالث جاهل وضال وفاسق والرابع جاهل وضال وفاسق وشرير

وأما الخيال الآخر ، الذى استدلوا به ، وهو قولهم إن الآدمى مادام حيا فلا ينقطع عنه الشهوة والغضب ، وحب الدنيا ، وسائر هذه الأخلاق ، فهذا غلط وقع لطائفة . ظنوا أن المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكلية ومحوها . وهيهات . فإن الشهوة خلقت لفائدة ،

وهى ضرورية فى الجبلة . فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان ، ولو انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النسل ؛ ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الإنسان عن نفسه مايهلكه ولهلك . ومهما بقى أصل الشهوة ، فيبقى لامحالة حب المال الذى يوصله إلى الشهوة ، حتى يحمله ذلك على إمساك المال . وليس المطلوب إماطة ذلك بالكلية . بل المطلوب ردها إلى الاعتدال ،الذى هو وسط بين الإفراط والتفريط . والمطلوب فى صفة الغضب حسن الحمية وذلك بأن يخلو عن التهور وعن الجبن جميعا . وبالجملة أن يكون فى نفسه قويا ، ومع قوته منقادا للعقل . ولذلك قال الله تعالى (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ [1]) وصفهم بالشدة وإنما تصدر الشدة عن الغضب : ولو بطل الغضب لبطل الجهاد . وكيف يقصد قلع الشهوة والغضب بالكلية ، والأنبياء عليهم السلام لم ينفكوا عن ذلك . إذ قال صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ » [2] وكان إذا تكلم بين يديه بما يكرهه يغضب ، حتى تحمر وجنتاه . ولكن لا يقول إلا حقا . فكان عليه السلام لا يخرجه غضبه عن الحق . وقال تعالى (وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ [2]) ولم يقل والفاقدين الغيظ .

فرد الغضب والشهوة إلى حد الاعتدال ، بحيث لا يقهر واحد منهما العقل ، ولا يغلبه ، بل يكون العقل هو الضابط لهما ، والغالب عليهما ، ممكن . وهو المراد بتغيير الخلق . فإنه ربما تستولى الشهوة على الإنسان ، بحيث لا يقوى عقله على دفعها عن الانبساط إلى الفواحش وبالرياضة تعود إلى حد الاعتدال . فدل أن ذلك ممكن . والتجربة والمشاهدة تدل على ذلك دلالة لاشك فيها

---

(١) حديث إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر : م من حديث أنس وله من حديث أبى هريرة إنما محمد بشر يغضب كما يغضب البشر

(٢) حديث أنه كان يتكلم بين يديه بما يكرهه فيغضب حتى تحمر وجنتاه ولكن لايقول إلا حقا فكان الغضب لايخرجه عن الحق : الشيخان من حديث عبد الله بن الزبير فى قصة شراج الحرة فقال لأن كان ابن عمتك فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهما من حديث أبى سعيد الخدرى وكان إذا كره شيئا عرفناه فى وجهه ولهما من حديث عائشة وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله ولمسلم ماينال منه شىء قط فينتقم من صاحبه ـ الحديث

---

(١) الفتح : ٢٩ (٢) آل عمران : ١٣٤ .

والذى يدل على أن المطلوب هو الوسط فى الأخلاق دون الطرفين ، أن السخاء خلق محمود شرعا ، وهو وسط بين طرفي التبذير والتقتير . وقد أثنى الله تعالى عليه فقال (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا [1]) وقال تعالى (وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ [2])وكذلك المطلوب فى شهوة الطعام الاعتدال دون الشره والجمود.قال الله تعالى (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ [3]) وقال فى الغضب (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ [4])وقال صلى الله عليه وسلم [1] «خَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَاطُهَا » وهذا له سر وتحقيق ، وهو أن السعادة منوطة بسلامة القلب عن عوارض هذا العالم .قال الله تعالى (إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ [5])والبخل من عوارض الدنيا . والتبذير أيضا من عوارض الدنيا. وشرط القلب أن يكون سلما منهما ،أى لا يكون ملتفتا إلى المال ، ولا يكون حريصا على إنفاقه ولا على إمساكه .فإن الحريص على الإنفاق مصروف القلب إلى الإنفاق ، كما أن الحريص على الإمساك مصروف القلب إلى الإمساك فكان كمال القلب أن يصفو عن الوصفين جميعا . وإذا لم يكن ذلك فى الدنيا طلبنا ماهو الأشبه لعدم الوصفين ، وأبعد عن الطرفين ، وهو الوسط . فإن الفاتر لا حار ولا بارد ، بل هو وسط بينهما ، فكأنه خال عن الوصفين : فكذلك السخاء بين التبذير و التقتير . والشجاعة بين الجبن والتهور . والعفة بين الشره والجمود . وكذلك سائر الأخلاق. فكلا طرفى الأمور ذميم . هذا هو المطلوب . وهو ممكن . نعم يجب على الشيخ المرشد للمريد أن يقبح عنده الغضب رأسا ، ويذم إمساك المال رأسا ، ولا يرخص له فى شيء منه ، لأنه لو رخص له فى أدنى شيء اتخذ ذلك عذرا فى استبقاء بخله وغضبه، وظن أنه القدر المرخص فيه . فإذا قصد قطع الأصل ، وبالغ فيه ، ولم يتيسر له إلا كسر سورته ، بحيث يعود إلى الاعتدال ،فالصواب له أن يقصد قلع الأصل ، حتى يتيسر له القدر المقصود ،فلا يكشف هذا السر للمريد،فإنه موضع غرور الحمق ، إذ يظن بنفسه أن غضبه بحق ، وأن إمساكه بحق.

---

(١) حديث خير الأمور أوساطها : البيهقى فى شعب الايمان من رواية مطرف بن عبد الله معضلا

---

[1] الفرقان : ٦٧ [2] الاسراء : ٢٩ [3] الأعراف : ٣١ [4] الفتح : ٢٩ [5] الشعراء : ٨٩

بيان

السبب الذى به ينال حسن الخلق على الجملة

قد عرفت أن حسن الخلق يرجع إلى اعتدال قوة العقل ، وكمال الحكمة ، وإلى اعتدال قوة الغضب والشهوة ، وكونها للعقل مطيعة، وللشرع أيضا. وهذا الإعتدال يحصل على وجهين

أحدهما بجود إلهى ، وكمال فطرى ، بحيث يخلق الإنسان ويولد كامل العقل ، حسن الخلق ، قد كفى سلطان الشهوة والغضب ، بل خلقتا معتدلتين منقادتين للعقل والشرع فيصير عالما بغير تعليم ، ومؤدبا بغير تأديب ، كعيسى بن مريم ، ويحي بن زكريا عليهما السلام ، وكذا سائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين .ولا يبعد أن يكون فى الطبع والفطرة ماقد ينال بالاكتساب . فرب صبي خلق صادق اللهجة ، سخيا جريا ، وربما يخلق بخلافه فيحصل ذلك فيه بالاعتياد ومخالطة المتخلقين بهذه الأخلاق . وربما يحصل بالتعلم

والوجه الثانى اكتساب هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياضة ، وأعنى به حمل النفس على الأعمال التى يقتضيها الخلق المطلوب . فمن أراد مثلا أن يحصل لنفسه خلق الجود ، فطريقه أن يتكلف تعاطى فعل الجواد ، وهو بذل المال . فلا يزال يطالب نفسه ، ويواظب عليه تكلفا ، مجاهدا نفسه فيه ، حتى يصير ذلك طبعا له ، ويتيسر عليه ، فيصير به جوادا. وكذا من أراد أن يحصل لنفسه خلق التواضع ، وقد غلب عليه الكبر ، فطريقه أن يواظب على أفعال المتواضعين مدة مديدة ، وهو فيها مجاهد نفسه ومتكلف ، إلى أن يصير ذلك خلقا له وطبعا ، فيتيسر عليه . وجميع الأخلاق المحمودة شرعا تحصل بهذا الطريق . وغايته أن يصير الفعل الصادر منه لذيذا . فالسخى هو الذى يستلذ بذل المال الذى يبذله ، دون الذى يبذله عن كراهة . والمتواضع هو الذى يستلذ التواضع . ولن ترسخ الأخلاق الدينية فى النفس ، مالم تتعود النفس جميع العادات الحسنة ، ومالم تترك جميع الأفعال السيئة. ومالم تواظب عليها مواظبة من يشتاق إلى الأفعال الجميلة ، ويتنعم بها ، ويكره الأفعال القبيحة ويتألم بها . كما قال صلى الله عليه وسلم [1] « وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاَةِ » ومهما كانت

---

(١) حديث وجعلت قرة عينى فى الصلاة : ن من حديث أنس وقد تقدم

العبادات، وترك المحظورات، مع كراهة واستثقال، فهو النقصان. ولا ينال كمال السعادة به. نعم المواظبة عليها بالمجاهدة خير، ولكن بالإضافة إلى تركها، لا بالإضافة إلى فعلها عن طوع. ولذلك قال الله تعالى (وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ[1]) وقال صلى الله عليه وسلم[1] «اُعْبُدِ اللهَ فِي الرِّضَا فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَفِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرٌ كَثِيرٌ»

ثم لا يكفي في نيل السعادة الموعودة على حسن الخلق، استلذاذ الطاعة، واستكراه المعصية، في زمان دون زمان، بل ينبغي أن يكون ذلك على الدوام، وفي جملة العمر. وكلما كان العمر أطول، كانت الفضيلة أرسخ وأكمل. ولذلك لما سئل صلى الله عليه وسلم عن السعادة فقال[2] «طُولُ الْعُمُرِ فِي طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى» ولذلك كره الأنبياء والأولياء الموت فإن الدنيا مزرعة الآخرة. وكلما كانت العبادات أكثر بطول العمر، كان الثواب أجزل والنفس أزكى وأطهر، والأخلاق أقوى وأرسخ. وإنما مقصود العبادات تأثيرها في القلب وإنما يتأكد تأثيرها بكثرة المواظبة على العبادات. وغاية هذه الأخلاق أن ينقطع عن النفس حب الدنيا، ويرسخ فيها حب الله تعالى. فلا يكون شيء أحب إليه من لقاء الله تعالى عز وجل. فلا يستعمل جميع ماله إلا على الوجه الذي يوصله إليه. وغضبه وشهوته من المسخرات له، فلا يستعملها إلا على الوجه الذي يوصله إلى الله تعالى. وذلك بأن يكون موزونا بميزان الشرع والعقل ثم يكون بعد ذلك فرحا به، مستلذا له.

ولا ينبغي أن يستبعد مصير الصلاة إلى حد تصيرهي قرة العين، ومصير العبادات لذيذة فإن العادة تقتضي في النفس عجائب أغرب من ذلك. فإنا قد نرى الملوك والمنعمين في أحزان دائمة، ونرى المقامر المفلس قد يغلب عليه من الفرح واللذة بقماره وما هو فيه، ما يستثقل معه فرح الناس بغير قمار. مع أن القمار ربما سلبه ماله، وخرب بيته، وتركه مفلسا،

---

(١) حديث اعبد الله في الرضا فان لم تستطع ففي الصبر على ماتكره خير كثير: طب

(٢) حديث سئل عن السعادة فقال طول العمر في عبادة الله: رواه القطاعي في مسند الشهاب وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر باسناد ضعيف وللترمذي من حديث أبي بكرة وصححه أي الناس خير قال من طال عمره وحسن عمله

---

(1) البقره: ٤٥

ومع ذلك فهو يحبه ، ويلتذبه . وذلك لطول ألفه له وصرف نفسه إليه مدة

وكذلك اللاعب بالحمام ، قد يقف طول النهار في حر الشمس ، قائما رجليه . وهو لايحس بألمها ، لفرحه بالطيور وحركاتها ، وطيرانها وتحليقها في جو السماء

بل نرى الفاجر العيار ، يفتخر بما يلقاه من الضرب والقطع ، والصبر على السيط ، وعلى أن يتقدم به للصلب ، وهو مع ذلك متبجح بنفسه ، وبقوته في الصبر على ذلك، حتى يرى ذلك فخرا لنفسه . ويقطع الواحد منهم إربا إربا ، على أن يقر بما تعاطاه أو تعاطاه غيره فيصر على الإنكار ، ولا يبالي بالعقوبات ، فرحا بما يعتقده كمالا وشجاعة ورجولية . فقد صارت أحواله مع ما فيها من النكال ، قرة عينه ، وسبب افتخاره

بل لا حالة أخس وأقبح من حال المخنث في تشبهه بالإناث ، في نتف الشعر ، ووشم الوجه ، ومخالطة النساء . فترى المخنث في فرح بحاله ، وافتخار بكماله في تخنثه ، يتباهى به مع المخنثين. حتى يجري بين الحجامين والكناسين التفاخر والمباهاة ، كما يجري بين الملوك والعلماء

فكل ذلك نتيجة العادة والمواظبة على نمط واحد على الدوام ، مدة مديدة ومشاهدة ذلك في المخالطين والمعارف . فإذا كانت النفس بالعادة تستلذ الباطل ، وتميل إليه وإلى القبائح، فكيف لا تستلذ الحق لو ردت إليه مدة ، والتزمت المواظبة عليه ! بل ميل النفس إلى هذه الأمور الشنيعة خارج عن الطبع ، يضاهي الميل إلى أكل الطين . فقد يغلب على بعض الناس ذلك بالعادة . فأما ميله إلى الحكمة ، وحب الله تعالى ، ومعرفته ، وعبادته ، فهو كالميل إلى الطعام والشراب ، فإنه مقتضى طبع القلب . فإنه أمر رباني . وميله إلى مقتضيات الشهوة غريب من ذاته ، وعارض على طبعه . وإنما غذاء القلب الحكمة والمعرفة ، وحب الله عز وجل . ولكن انصرف عن مقتضى طبعه لمرض قد حل به ، كما قد يحل المرض بالمعدة، فلا تشتهي الطعام والشراب ، وهما سببان لحياتها . فكل قلب مال إلى حب شيء سوى الله تعالى ، فلا ينفك عن مرض بقدر ميله ، إلا إذا كان أحب ذلك الشيء لكونه معينا له على حب الله تعالى ، وعلى دينه ، فعند ذلك لا يدل ذلك على المرض

فإذاً قد عرفت بهذا قطعا ، أن هذه الأخلاق الجميلة يمكن اكتسابها بالرياضة ، وهي تكلف الأفعال الصادرة عنها ابتداء ، لتصير طبعا انتهاء . وهذا من عجيب العلاقة بين

القلب والجوارح ، أعنى النفس والبدن . فإن كل صفة تظهر فى القلب ، يفيض أثرها على الجوارح ، حتى لاتتحرك إلا على وفقها لا محالة . وكل فعل يجرى على الجوارح فإنه قد يرتفع منه أثر إلى القلب . والأمر فيه دور ، ويعرف ذلك بمثال ، وهو أن من أراد أن يصير الحذق فى الكتابة له صفة نفسية ، حتى يصير كاتبا بالطبع ، فلا طريق له إلا أن يتعاطى بجارحة اليد ، مايتعاطاه الكاتب الحاذق ، ويواظب عليه مدة طويلة ، يحاكى الخط الحسن فإن فعل الكاتب هو الخط الحسن . فيتشبه بالكاتب تكلفا ، ثم لايزال يواظب عليه ، حتى يصير صفة راسخة فى نفسه ، فيصدر منه فى الآخر الخط الحسن طبعا ، كما كان يصدر منه فى الابتداء تكلفا . فكان الخط الحسن ، هو الذى جعل خطه حسنا . ولكن الأول بتكلف ، إلا أنه ارتفع منه أثر إلى القلب ، ثم انخفض من القلب إلى الجارحة ، فصار يكتب الخط الحسن بالطبع .

وكذلك من أراد أن يصير فقيه النفس ، فلا طريق له إلا أن يتعاطى أفعال الفقهاء وهو التكرار للفقه ، حتى تنعطف منه على قلبه صفة الفقه ، فيصير فقيه النفس .

وكذلك من أراد أن يصير سخيا عفيف النفس ، حليما متواضعا ، فيلزمه أن يتعاطى أفعال هؤلاء تكلفا ، حتى يصير ذلك طبعا له ، فلا علاج له إلا ذلك . وكما أن طالب فقه النفس ، لاييأس من نيل هذه الرتبة بتعطيل ليلة ، ولا ينالها بتكرار ليلة ، فكذلك طالب تزكية النفس وتكميلها ، وتحليتها بالأعمال الحسنة ، لاينالها بعبادة يوم ، ولا يحرم عنها بعصيان يوم . وهو معنى قولنا ، إن الكبيرة الواحدة لاتوجب الشقاء المؤبد ، ولكن العطلة فى يوم واحد تدعو إلى مثلها ، ثم تتداعى قليلا قليلا ، حتى تأنس النفس بالكسل ، وتهجر التحصيل رأسا ، فيفوتها فضيلة الفقه . وكذلك صغائر المعاصى ، يجر بعضها إلى بعض ، حتى يفوت أصل السعادة ، بهدم أصل الإيمان عند الخاتمة . وكما أن تكرار ليلة لايحس تأثيره فى فقه النفس ، بل يظهر فقه النفس شيئا فشيئا على التدريج ، مثل نمو البدن ، وارتفاع القامة ، فكذلك الطاعة الواحدة لايحس تأثيرها فى تزكية النفس وتطهيرها فى الحال ولكن لاينبغى أن يستهان بقليل الطاعة ، فإن الجملة الكثيرة منها مؤثرة ، وإنما اجتمعت الجملة من الآحاد ، فلكل واحد منها تأثير . فما من طاعة إلا ولها أثر وإن خفى ، فله ثواب

لامحالة ، فإن الثواب بأزاء الأثر ، وكذلك المعصية

وكم من فقيه يستهين بتعطيل يوم وليلة ، وهكذا على التوالى، يسوف نفسه يوما فيوما إلى أن يخرج طبعه عن قبول الفقه . فكذا من يستهين صغائر المعاصى ، ويسوف نفسه بالتوبة على التوالى ، إلى أن يختطفه الموت بغتة ، أو تتراكم ظلمة الذنوب على قلبه وتتعذر عليه التوبة ، إذ القليل يدعو إلى الكثير ، فيصير القلب مقيدا بسلاسل شهوات لايمكن تخليصه من مخالبها . وهو المعنى بانسداد باب التوبة . وهو المراد بقوله تعالى (وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا [1]) الآية . ولذلك قال عليّ رضي الله عنه، إن الإيمان ليبدو فى القلب نكتة بيضاء ، كلما ازداد الإيمان ازداد ذلك البياض ، فإذا استكمل العبد الإيمان ابيضّ القلب كله . وإن النفاق ليبدو فى القلب نكتة سوداء ، كلما ازداد النفاق ازداد ذلك السواد ، فإذا استكمل النفاق اسودّ القلب كله

فإذا عرفت أن الأخلاق الحسنة تارة تكون بالطبع والفطرة ، وتارة تكون باعتياد الأفعال الجميلة ، وتارة بمشاهدة أرباب الفعال الجميلة ومصاحبتهم ، وهم قرناء الخير ، وإخوان الصلاح إذ الطبع يسرق من الطبع الشر والخير جميعا . فمن تظاهرت فى حقه الجهات الثلاث حتى صار ذا فضيلة طبعا واعتيادا وتعلما ، فهو فى غاية الفضيلة . ومن كان رذلا بالطبع ، واتفق له قرناء السوء ، فتعلم منهم ، وتيسرت له أسباب الشر حتى اعتادها ، فهو فى غاية البعد من الله عز وجل . وبين الرتبتين من اختلفت فيه هذه الجهات ، ولكل درجة فى القرب والبعد بحسب ما تقتضيه صفته وحالته (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [2]) (وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ ، وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ [3])

بيان

تفصيل الطريق إلى تهذيب الأخلاق

قد عرفت من قبل أن الاعتدال فى الأخلاق هو صحة النفس ، والميل عن الاعتدال سقم ومرض فيها ، كما أن الاعتدال فى مزاج البدن هو صحة له ، والميل عن الاعتدال مرض فيه . فلنتخذ البدن مثالا فنقول .

---

(١) يس : ٩ (٢) الزلزال : ٧ و ٨ (٣) النحل : ٣٣

مثال النفس فى علاجها، بمحو الرذائل والأخلاق الرديئة عنها، وجلب الفضائل والأخلاق الجميلة إليها ، بمثال البدن فى علاجه ، بمحو العلل عنه ، وكسب الصحة له وجلبها إليه . وكما أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال ، وإنما تعترى المعدة المضرة بعوارض الأغذية والأهوية والأحوال ، فكذلك كل مولود يولد معتدلا صحيح الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، أى بالاعتياد والتعليم تكتسب الرذائل . وكما أن البدن فى الابتداء لا يخلق كاملا ، وإنما يكمل ويقوى بالنشو والتربية بالغذاء ، فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال ، وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق ، والتغذية بالعلم

وكما أن البدن إن كان صحيحا ، فشأن الطبيب تمهيد القانون الحافظ للصحة ، وإن كان مريضا فشأنه جلب الصحة إليه. فكذلك النفس منك إن كانت زكية طاهرة مهذبة ، فينبغى أن تُسعى لحفظها ، وجلب مزيد قوة إليها واكتساب زيادة صفائها وإن كانت عديمة الكمال والصفاء ، فينبغى أن تسعى لجلب ذلك إليها

وكما أن العلة المغيرة لاعتدال البدن ، الموجبة للمرض ، لا تعالج إلا بضدها ، فإن كانت من حرارة فبالبرودة ، وإن كانت من برودة فبالحرارة، فكذلك الرذيلة التى هى مرض القلب علاجها بضدها ، فيعالج مرض الجهل بالتعلم ، ومرض البخل بالتسخى ، ومرض الكبر بالتواضع ، ومرض الشره بالكف عن المشتهى تكلفا

وكما أنه لابد من الاحتمال لمرارة الدواء، وشدة الصبر عن المشتهيات، لعلاج الأبدان المريضة فكذلك لابد من احتمال مرارة المجاهدة والصبر، لمداواة مرض القلب، بل أولى. فإن مرض البدن يخلص منه بالموت ، ومرض القلب والعياذ بالله تعالى، مرض يدوم بعد الموت أبد الآباد

وكما أن كل مبرد لا يصلح لعلة سببها الحرارة، إلا إذا كان على حد مخصوص، ويختلف ذلك بالشدة والضعف ، والدوام وعدمه ، وبالكثرة والقلة ؛ ولا بد له من معيار يعرف به مقدار النافع منه ، فإنه إن لم يحفظ معياره زاد الفساد ، فكذلك النقائض التى تعالج بها الأخلاق لابد لها من معيار

وكما أن معيار الدواء مأخوذ من عيار العلة حتى أن الطبيب لا يعالج ما لم يعرف أن العلة من حرارة أو برودة، فإن كانت من حرارة فيعرف درجتها، أهى ضعيفة أم قوية، فإذا عرف ذلك

التفت إلى أحوال البدن ،وأحوال الزمان،وصناعة المريض،وسنه وسائر أحواله ، ثم يعالج بحسبها ، فكذلك الشيخ المتبوع الذى يطبب نفوس المريدين ، ويعالج قلوب المسترشدين ينبغى أن لا يهجم عليهم بالرياضة والتكاليف فى فن مخصوص ، وفى طريق مخصوص ما لم يعرف أخلاقهم وأمراضهم

وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد ، قتل أكثرهم ، فكذلك الشيخ لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم ، وأمات قلوبهم . بل ينبغى أن ينظر فى مرض المريد ، وفى حاله . وسنه ، ومزاجه ، وما تحتمله بنيته من الرياضة ، ويبنى على ذلك رياضته . فإن كان المريد مبتدئا ، جاهلا بحدود الشرع ، فيعلمه أولا الطهارة ، والصلاة ، وظواهر العبادات . وإن كان مشغولا بمال حرام ، أو مقارفا لمعصية ، فيأمره أولا بتركها فإذا تزين ظاهره بالعبادات ، وطهر عن المعاصى الظاهرة جوارحه ، نظر بقرائن الأحوال إلى باطنه ، ليتفطن لأخلاقه ، وأمراض قلبه . فإن رأى معه مالا فاضلا عن قدر ضرورته أخذه منه ، وصرفه إلى الخيرات وفرغ قلبه منه ، حتى لا يلتفت إليه . وإن رأى الرعونة والكبر وعزة النفس غالبة عليه ، فيأمره أن يخرج إلى الأسواق للكدية والسؤال ، فإن عزة النفس والرياسة لا تنكسر إلا بالذل ، ولا ذل أعظم من ذل السؤال . فيكلفه المواظبة على ذلك مدة ، حتى ينكسر كبره وعز نفسه . فإن الكبر من الأمراض المهلكة ، وكذلك الرعونة . وإن رأى الغالب عليه النظافة فى البدن والثياب ، ورأى قلبه مائلا إلى ذلك ، فرحا به ، ملتفتا إليه استخدمه فى تعهد بيت الماء وتنظيفه ، وكنس المواضع القذرة ، وملازمة المطبخ ومواضع الدخان ، حتى تتشوش عليه رعونته فى النظافة . فإن الذين ينظفون ثيابهم ويزينونها ، ويطلبون المرقعات النظيفة ، والسجادات الملونة ، لا فرق بينهم وبين العروس التى تزين نفسها طول النهار . فلا فرق بين أن يعبد الإنسان نفسه ، أو يعبد صنما . فمهما عبد غير الله تعالى . فقد حجب عن الله . ومن راعى فى ثوبه شيئا سوى كونه حلالا وطاهرا مراعاة يلتفت إليها قلبه ، فهو مشغول بنفسه

ومن لطائف الرياضة إذا كان المريد لا يسخو بترك الرعونة رأسا ، أو بترك صفة أخرى ولم يسمح بضدها دفعة ، فينبغى أن ينقله من الخلق المذموم إلى خلق مذموم آخر أخف منه ،

كالذى يغسل الدم بالبول ، ثم يغسل البول بالماء ، إذا كان الماء لايزيل الدم . كما يرغب الصبي فى المكتب ، باللعب بالكرة والصولجان وما أشبهه ، ثم ينقل من اللعب إلى الزينة وفاخر الثياب ، ثم ينقل من ذلك بالترغيب فى الرياسة وطلب الجاه ، ثم ينقل من الجاه بالترغيب فى الآخرة . فكذلك من لم تسمح نفسه بترك الجاه دفعة ، فلينقل إلى جاه أخف منه . وكذلك سائر الصفات . وكذلك إذا رأى شره الطعام غالبا عليه . ألزمه الصوم وتقليل الطعام ، ثم يكلفه أن يهيء الأطعمة اللذيذة ، ويقدمها إلى غيره ، وهو لا يأكل منها ، حتى يقوى بذلك نفسه ، فيتعود الصبر وينكسر شرهه . وكذلك إذا رآه شابا متشوقا إلى النكاح ، وهو عاجز عن الطول ، فيأمره بالصوم . وربما لا تسكن شهوته بذلك ، فيأمره أن يفطر ليلة على الماء دون الخبز وليلة على الخبز دون الماء ، ويمنعه اللحم والأدم رأسا ، حتى تذل نفسه ، وتنكسر شهوته. فلا علاج فى مبدإ الإرادة أنفع من الجوع . وإن رأى الغضب غالبا عليه ، ألزمه الحلم والسكوت ، وسلط عليه من يصحبه ممن فيه سوء خلق ، ويلزمه خدمة من ساء خلقه ، حتى يمرن نفسه على الاحتمال معه . كما حكى عن بعضهم أنه كان يعود نفسه الحلم ، ويزيل عن نفسه شدة الغضب ، فكان يستأجر من يشتمه على ملأ من الناس ، ويكلف نفسه الصبر ويكظم غيظه ، حتى صار الحلم عادة له بحيث كان يضرب به المثل . وبعضهم كان يستشعر فى نفسه الجبن وضعف القلب ، فأراد أن يحصل لنفسه خلق الشجاعة ، فكان يركب البحر فى الشتاء عند اضطراب الأمواج . وعباد الهند يعالجون الكسل عن العبادة بالقيام طول الليل على نصبة واحدة . وبعض الشيوخ فى ابتداء إرادته كان يكسل عن القيام ، فألزم نفسه القيام على رأسه طول الليل ليسمح بالقيام على الرجل عن طوع . وعالج بعضهم حب المال بأن باع جميع ماله ورمى به فى البحر ، إذ خاف من تفرقته على الناس رعونة الجود، والرياء بالبذل

فهذه الأمثلة تعرفك طريق معالجة القلوب . وليس غرضنا ذكر دواء كل مرض ، فإن ذلك سيأتى فى بقية الكتب . وإنما غرضنا الآن التنبيه على أن الطريق الكلى فيه سلوك مسلك المضادة لكل ماتهواه النفس ، وتميل إليه . وقد جمع الله ذلك كله فى كتابه العزيز

فى كلمة واحدة ، فقال تعالى (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى [١])

والأصل المهم فى المجاهدة الوفاء بالعزم . فإذا عزم على ترك شهوة فقد تيسرت أسبابها ويكون ذلك ابتلاء من الله تعالى واختبارا ، فينبغى أن يصبر ويستمر . فإنه إن عود نفسه ترك العزم ألفت ذلك ، ففسدت . وإذا اتفق منه نقض عزم ، فينبغى أن يلزم نفسه عقوبة عليه ، كما ذكرناه فى معاقبة النفس ، فى كتاب المحاسبة والمراقبة . وإذا لم يخوف النفس بعقوبة غلبته ، وحسنت عنده تناول الشهوة ، فتفسد بها الرياضة بالكلية .

بيان

علامات أمراض القلوب وعلامات عودها إلى الصحة

اعلم أن كل عضو من أعضاء البدن خلق لفعل خاص به . وإنما مرضه أن يتعذر عليه فعله الذى خلق له ، حتى لا يصدر منه أصلا ، أو يصدر منه مع نوع من الاضطراب . فمرض اليد أن يتعذر عليها البطش . ومرض العين أن يتعذر عليها الإبصار . وكذلك مرض القلب أن يتعذر عليه فعله الخاص به ، الذى خلق لأجله ، وهو العلم والحكمة والمعرفة ، وحب الله تعالى وعبادته ، والتلذذ بذكره ، وإيثاره ذلك على كل شهوة سواه ، والاستعانة بجميع الشهوات والأعضاء عليه . قال الله تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ [٢]) ففى كل عضو فائدة . وفائدة القلب الحكمة والمعرفة ، وخاصية النفس التى للآدمى ما يتميز بها عن البهائم ، فإنه لم يتميز عنها بالقوة على الأكل والوقاع والإبصار أو غيرها ، بل بمعرفة الأشياء على ما هى عليه

وأصل الأشياء وموجدها ومخترعها هو الله عز وجل ، الذى جعلها أشياء . فلو عرف كل شىء ، ولم يعرف الله عز وجل ، فكأنه لم يعرف شيئا . وعلامة المعرفة المحبة . فمن عرف الله تعالى أحبه . وعلامة المحبة أن لا يؤثر عليه الدنيا ولا غيرها من المحبوبات ، كما قال الله تعالى (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ [٣]) إلى قوله (أَحَبَّ إِلَيْكُمْ

(١) النازعات : ٤٠ (٢) الذاريات : ٥٦ (٣) التوبة : ٢٤

مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ (١)) فمن عنده شيء أحب إليه من الله فقلبه مريض . كما أن كل معدة صار الطين أحب إليها من الخبز والماء أوسقطت شهوتها عن الخبز والماء ، فهي مريضة فهذه علامات المرض

وبهذا يعرف أن القلوب كلها مريضة ، إلا ماشاء الله . إلا أن من الأمراض مالا يعرفها صاحبها . ومرض القلب مما لا يعرفه صاحبه . فلذلك يغفل عنه . وإن عرفه صعب عليه الصبر على مرارة دوائه . فإن دواءه مخالفة الشهوات . وهو نزع الروح . فإن وجد من نفسه قوة الصبر عليه ، لم يجد طبيبا حاذقا يعالجه . فإن الأطباء هم العلماء ، وقد استولى عليهم المرض فالطبيب المريض قلما يلتفت إلى علاجه . فلهذا صار الداء عضالا ، والمرض مزمنا ، واندرس هذا العلم ، وأنكر بالكلية طب القلوب ، وأنكر مرضها ، وأقبل الخلق على حب الدنيا وعلى أعمال ظاهرها عبادات ، وباطنها عادات ومراآت . فهذه علامات أصول الأمراض

وأما علامات عودها إلى الصحة بعد المعالجة ، فهو أن ينظر فى العلة التى يعالجها فإن كان يعالج داء البخل ، فهو المهلك المبعد عن الله عز وجل ، وإنما علاجه ببذل المال وإنفاقه ولكنه قد يبذل المال إلى حد يصير به مبذرا ، فيكون التبذير أيضا داء . فكان كمن يعالج البرودة بالحرارة ، حتى تغلب الحرارة ، فهو أيضا داء . بل المطلوب الاعتدال بين الحرارة والبرودة . وكذلك المطلوب الاعتدال بين التبذير والتقتير ، حتى يكون على الوسط ، وفى غاية البعد عن الطرفين

فإن أردت أن تعرف الوسط ، فانظر إلى الفعل الذى يوجبه الخلق المحذور . فإن كان أسهل عليك وألذ من الذى يضاده ، فالغالب عليك ذلك الخلق الموجب له ، مثل أن يكون إمساك المال وجمعه ألذ عندك وأيسر عليك من بذله لمستحقة . فاعلم أن الغالب عليك خلق البخل ، فزد فى المواظبة على البذل . وإن صار البذل على غير المستحق ألذ عندك وأخف عليك من الإمساك بالحق ، فقد غلب عليك التبذير ، فارجع إلى المواظبة على الإمساك . فلا تزال تراقب نفسك ، وتستدل على خلقك بتيسير الأفعال وتعسيرها ، حتى تنقطع علاقة قلبك عن الالتفات إلى المال ، فلا تميل إلى بذله ، ولا إلى إمساكه ، بل يصير عندك كالماء ،

(١) التوبة : ٢٤

فلا تطلب فيه إلا إمساكه لحاجة محتاج أو بذله لحاجة محتاج ، ولا يترجح عندك البذل على الإمساك . فكل قلب صار كذلك ، فقد أتى الله سليما عن هذا المقام خاصة. ويجب أن يكون سليما عن سائر الأخلاق ، حتى لا يكون له علاقة بشيء مما يتعلق بالدنيا ، حتى ترتحل النفس عن الدنيا منقطعة العلائق منها ، غير ملتفتة إليها ، ولا متشوقة إلى أسبابها . فعند ذلك ترجع إلى ربها رجوع النفس المطمئنة ، راضية مرضية ، داخلة فى زمرة عباد الله المقربين ، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا

ولما كان الوسط الحقيقى بين الطرفين فى غاية الغموض ، بل هو أدق من الشعر ، وأحد من السيف ، فلا جرم من استوى على هذا الصراط المستقيم فى الدنيا ، جاز على مثل هذا الصراط فى الآخرة . وقلما ينفك العبد من ميل عن الصراط المستقيم . أعنى الوسط ، حتى لا يميل إلى أحد الجانبين ، فيكون قلبه متعلقا بالجانب الذى مال إليه . ولذلك لا ينفك عن عذاب ما ، واجتياز على النار ، وإن كان مثل البرق . قال الله تعالى (وَإِن مِنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا [1]) أى الذين كان قربهم إلى السراط المستقيم أكثر من بعدهم عنه . ولأجل عسر الاستقامة ، وجب على كل عبد أن يدعو الله تعالى فى كل يوم سبع عشرة مرة ، فى قوله إهدنا الصراط المستقيم ، إذ وجب قراءة الفاتحة فى كل ركعة

فقد روى أن بعضهم رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام ، فقال قد قلت يا رسول الله شيبتنى هود ، فلم قلت ذلك ؟ فقال عليه السلام لقوله تعالى (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ [2]) فالاستقامة على سواء السبيل فى غاية الغموض . ولكن ينبغى أن يجتهد الإنسان فى القرب من الاستقامة إن لم يقدر على حقيقتها . فكل من أراد النجاة فلا نجاة له إلا بالعمل الصالح ولا تصدر الأعمال الصالحة إلا عن الأخلاق الحسنة . فليتفقد كل عبد صفاته وأخلاقه ، وليعددها ، وليشتغل بعلاج واحد واحد فيها على الترتيب ، فنسأل الله الكريم أن يجعلنا من المتقين

بيان

الطريق الذى يعرف به الإنسان عيوب نفسه

اعلم أن الله عز وجل إذا أراد بعبد خيرا ، بصره بعيوب نفسه . فمن كانت بصيرته نافذة

---

(١) مريم : ٧١ (٢) هود : ١١٢

لم تخف عليه عيوبه . فإذا عرف العيوب أمكنه العلاج . ولكن أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم ، يرى أحدهم القذى فى عين أخيه ، ولا يرى الجذع فى عين نفسه . فمن أراد أن يعرف عيوب نفسه فله أربعة طرق

الأول: أن يجلس بين يدى شيخ بصير بعيوب النفس ، مطلع على خفايا الآفات ، ويحكمه فى نفسه ، ويتبع إشارته فى مجاهدته . وهذا شأن المريد مع شيخه ، والتلميذ مع أستاذه فيعرفه أستاذه وشيخه عيوب نفسه ويعرفه طريق علاجه . وهذا قد عز فى هذا الزمان وجوده

الثانى : أن يطلب صديقا صدوقا ، بصيرا متدينا ، فينصبه رقيبا على نفسه ، ليلاحظ أحواله وأفعاله . فما كره من أخلاقه وأفعاله ، وعيوبه الباطنة والظاهرة ، ينبهه عليه. فهكذا كان يفعل الأكياس والأكابر من أئمة الدين . كان عمر رضى الله عنه يقول ، رحم الله امرأ أهدى إلى عيوبى . وكان يسأل سلمان عن عيوبه . فلما قدم عليه ، قال له ما الذى بلغك عنى مما تكرهه ؟ فاستعفى . فألح عليه ، فقال بلغنى أنك جمعت بين أدامين على مائدة ، وإن لك حلتين حلة بالنهار وحلة بالليل . قال وهل بلغك غير هذا ؟ قال لا . فقال أما هذان فقد كفيتهما . وكان يسأل حذيفة ويقول له ، أنت صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنافقين ، فهل ترى عليّ شيئا من آثار النفاق ؟ فهو على جلالة قدره ، وعلو منصبه ، هكذا كانت تهمته لنفسه رضى الله عنه . فكل من كان أوفر عقلا ، وأعلى منصبا ، كان أقل إعجابا ، وأعظم اتهاما لنفسه

إلا أن هذا أيضا قد عز ، فقل فى الأصدقاء من يترك المداهنة ، فيخبر بالعيب ، أو يترك الحسد ، فلا يزيد على قدر الواجب . فلا تخلو فى أصدقائك عن حسود ، أو صاحب غرض يرى ما ليس بعيب عيبا . أو عن مداهن ، يخفى عنك بعض عيوبك . ولهذا كان داود الطائي قد اعتزل الناس ، فقيل له لم لا تخالط الناس ؟ فقال وماذا أصنع بأقوام يخفون عنى عيوبى . فكانت شهوة ذوى الدين أن يتنبهوا لعيوبهم بتنبيه غيرهم . وقد آل الأمر فى أمثالنا إلى أن أبغض الخلق إلينا من ينصحنا ويعرفنا عيوبنا . ويكاد هذا أن يكون مفصحا عن ضعف الإيمان . فإن الأخلاق السيئة حيات وعقارب لداغة . فلو نبهنا منبه على أن تحت ثوبنا عقربا لتقلدنا منه منة ، وفرحنا به ، واشتغلنا بإزالة العقرب ، وإبعادها وقتلها . وإنما

نكايتها على البدن . ويدوم ألمها يوما فما دونه. ونكاية الأخلاق الرديئة على صميم القلب، أخشى أن تدوم بعد الموت أبدا ، أو آلافا من السنين ، ثم أنا لا نفرح بمن ينبهنا عليها، ولا نشتغل بإزالتها ، بل نشتغل بمقابلة الناصح بمثل مقالته ، فنقول له وأنت أيضا تصنع كيت وكيت وتشغلنا العداوة معه عن الانتفاع بنصحه . ويشبه أن يكون ذلك من قساوة القلب ، التي أثمرتها كثرة الذنوب : وأصل كل ذلك ضعف الإيمان . فنسأل الله عز وجل ، أن يلهمنا رشدنا ، ويبصرنا بعيوبنا ، ويشغلنا بمداواتها ، ويوفقنا للقيام بشكر من يطلعنا على مساوينا بمنه وفضله

الطريق الثالث : أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه . فإن عين السخط تبدى المساويا . ولعل انتفاع الإنسان بعدو مشاحن . يذكره عيوبه . أكثر من انتفاعه بصديق مداهن ، يثني عليه ويمدحه ، ويخفي عنه عيوبه . إلا أن الطبع مجبول على تكذيب العدو ، وحمل مايقوله على الحسد . ولكن البصير لايخلو عن الانتفاع بقول أعدائه ،فإن مساويه لابد وأن تنتشر على ألسنتهم

الطريق الرابع : أن يخالط الناس . فكل ما رآه مذموما فيما بين الخلق ، فليطالب نفسه به ، وينسبها إليه . فإن المؤمن مرآة المؤمن . فيرى من عيوب غيره عيوب نفسه . ويعلم أن الطباع متقاربة فى اتباع الهوى . فما يتصف به واحد من الأقران، لاينفك القرن الآخر عن أصله ، أو عن أعظم منه ، أو عن شيء منه . فليتفقد نفسه . ويطهرها من كل مايذمه من غيره. وناهيك بهذا تأديبا .فلو ترك الناس كلهم مايكرهونه من غيرهم،لاستغنوا عن المؤدب . قيل لعيسى عليه السلام ، مَن أدبك ؟ قال ماأدبنى أحد . رأيت جهل الجاهل شينا فاجتنبته .

وهذا كله حيل من فقد شيخا عارفا زكيا ، بصيرا بعيوب النفس،مشفقا ناصحا فى الدين فارغا من تهذيب نفسه ، مشتغلا بتهذيب عباد الله تعالى ، ناصحا لهم . فمن وجد ذلك فقد وجد الطبيب ، فليلازمه فهو الذي يخلصه من مرضه ، وينجيه من الهلاك الذي هو بصدده

بيان

شواهد النقل من أرباب البصائر وشواهد الشرع على أن الطريق فى معالجة أمراض القلوب ترك الشهوات وإن مادة أمراضها هى اتباع الشهوات

اعلم أن ماذكرناه إن تأملته بعين الاعتبار ، إنفتحت بصيرتك ، وانكشفت لك علل القلوب وأمراضها وأدويتها بنور العلم واليقين . فإن عجزت عن ذلك، فلاينبغى أن يفوتك التصديق والإيمان على سبيل التلقى والتقليد لمن يستحق التقليد . فإن للإيمان درجة، كما أن للعلم درجة . والعلم يحصل بعد الإيمان . وهو وراءه . قال الله تعالى (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ [1]) فمن صدق بأن مخالفة الشهوات هى الطريق إلى الله عز وجل ، ولم يطلع على سببه وسره ،فهو من الذين آمنوا . وإذا اطلع على ماذكرناه من أعوان الشهوات ، فهومن الذين أوتوا العلم . وكلاوعدالله الحسنى .والذى يقتضى الإيمان بهذا الأمر فى القرءان والسنة وأقاويل العلماء ، أكثر من أن يحصر

قال الله تعالى (وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى [2]) وقال تعالى (أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى [3]) قيل نزع منها محبة الشهوات

وقال صلى الله عليه وسلم [1] « الْمُؤْمِنُ بَيْنَ خَمْسِ شَدَائِدَ مُؤْمِنٍ يَحْسُدُهُ وَمُنَافِقٍ يُبْغِضُهُ وَكَافِرٍ يُقَاتِلُهُ وَشَيْطَانٍ يُضِلُّهُ وَنَفْسٍ تُنَازِعُهُ » فبين أن النفس عدو منازع ، يجب عليه مجاهدتها . ويروى أن الله تعالى ، أوحى إلى داود عليه السلام ،ياداود ، حذروأنذرأصحابك أكل الشهوات ، فإن القلوب المتعلقة بشهوات الدنيا عقولها عنى محجوبة . وقال عيسى عليه السلام ، طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لموعود غائب لم يره .

وقال نبينا صلى الله عليه وسلم ، لقوم قدموا من الجهاد [2] «مَرْحَبًا بِكُمْ قَدِمْتُمْ مِنَ الْجِهَادِ

---

(١) حديث المؤمن بين خمس شدائد مؤمن يحسده ومنافق يبغضه ـ الحديث : أبو بكر بن بلال فى مكارم الأخلاق من حديث أنس بسند ضعيف

(٢) حديث مرحبا بكم قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر : البيهقى فى الزهد وقد تقدم فى شرح عجائب القلب

---

(١) المجادلة : ١١ (٢) النازعات ٤٠ و ٤١ (٣) الحجرات : ٣

الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ » قيل يارسول الله ، وما الجهاد الأكبر ؟ قال « جِهَادُ النَّفْسِ »
وقال صلى الله عليه وسلم (١) « الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ » وقال
صلى الله عليه وسلم (٢) « كُفَّ أَذَاكَ عَنْ نَفْسِكَ وَلاَ تُتَابِعْ هَوَاهَا فِي مَعْصِيَةِ اللهِ تَعَالَى
إِذاً تُخَاصِمُكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَلْعَنُ بَعْضُكَ بَعْضاً إِلاَّ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ تَعَالَى وَيَسْتُرَ »

وقال سفيان الثورى ، ما عالجت شيئا أشد علىّ من نفسى ، مرة لى ، ومرة علىّ .
وكان أبو العباس الموصلى يقول لنفسه ، يانفس ، لا فى الدنيا مع أبناء الملوك تتنعمين ،
ولا فى طلب الآخرة مع العباد تجتهدين . كأنى بك بين الجنة والنار تحبسين . يانفس ،
ألا تستحين ! وقال الحسن : ما الدابة الجموح بأحوج إلى اللجام الشديد من نفسك.

وقال يحيى بن معاذ الرازى ، جاهد نفسك بأسياف الرياضة ، والرياضة على أربعة أوجه
القوت من الطعام ، والغمض من المنام ، والحاجة من الكلام ، وحمل الأذى من جميع
الأنام . فيتولد من قلة الطعام موت الشهوات ، ومن قلة المنام صفو الإرادات ، ومن قلة
الكلام السلامة من الآفات . ومن احتمال الأذى البلوغ إلى الغايات . وليس على العبد شيء
أشد من الحلم عند الجفا ، والصبر على الأذى ، وإذا تحركت من النفس إرادة الشهوات
والآثام ، وهاجت منها حلاوة فضول الكلام ، جردت عليها سيوف قلة الطعام ، من غمد
التهجد وقلة المنام ، وضربتها بأيدى الخمول وقلة الكلام ، حتى تنقطع عن الظلم والانتقام ،
فتأمن من بوائقها من بين سائر الأنام ، وتصفيها من ظلمة شهواتها ، فتنجو من غوائل
آفاتها ، فتصير عند ذلك نظيفة ونورية ، خفيفة روحانية ، فتجول فى ميدان الخيرات ،
وتسير فى مسالك الطاعات ، كالفرس الفاره فى الميدان ، وكالملك المتنزه فى البستان
وقال أيضا أعداء الإنسان ثلاثة ، دنياه ، وشيطانه ونفسه . فاحترس من الدنيا بالزهد فيها ،
ومن الشيطان بمخالفته ، ومن النفس بترك الشهوات . وقال بعض الحكماء ، من استولت عليه
النفس صار أسيرا فى جب شهواتها ، محصورا فى سجن هواها ، مقهورا مغلولا زمامه فى يدها.

---

(١) حديث المجاهد من جاهد نفسه : ت فى أثناء حديث وصححه و هـ من حديث فضالة بن عبيد

(٢) حديث كف أذاك عن نفسك ولا تتابع هواها فى معصية الله ـ الحديث : لم أجده بهذا السياق

تجره حيث شاءت ، فتمنع قلبه من الفوائد : وقال جعفر بن حميد ، أجمعت العلماء والحكماء على أن النعيم لايدرك إلا بترك النعيم . وقال أبو يحيى الوراق. من أرضى الجوارح بالشهوات ، فقد غرس فى قلبه شجر الندامات . وقال وهيب بن الورد ، مازاد على الخبز فهو شهوة . وقال أيضا ، من أحب شهوات الدنيا فليتهيأ للذل

ويروى أن امرأة العزيز ، قالت ليوسف عليه السلام ، بعد أن ملك خزائن الأرض ، وقعدت له على رابية الطريق فى يوم موكبه ، وكان يركب فى زهاء اثنى عشر ألفا من عظماء مملكته ، سبحان من جعل الملوك عبيداً بالمعصية ، وجعل العبيد ملوكا بطاعتهم له . إن الحرص والشهوة صيرا الملوك عبيدا ، وذلك جزاء المفسدين . وإن الصبر والتقوى صيرا العبيد ملوكا . فقال يوسف ، كما أخبر الله تعالى عنه (إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ [1])

وقال الجنيد ، أرقت ليلة ، فقمت إلى وردى ، فلم أجد الحلاوة التى كنت أجدها . فأردت أن أنام ، فلم أقدر . فجلست ، فلم أطق الجلوس . فخرجت . فإذا رجل ملتف فى عباءة ، مطروح على الطريق . فلما أحس بى قال ، ياأباالقاسم ، إلى الساعة . فقلت ياسيدى من غير موعد ! فقال بلى ، سألت الله عز وجل أن يحرك لى قلبك . فقلت قد فعل ، فما حاجتك ؟ قال فمتى يصير داء النفس دواءها ؟ فقلت إذا خالفت النفس هواها . فأقبل على نفسه فقال ، اسمعى ، فقد أجبتك بهذا سبع مرات ، فأبيت أن تسمعيه إلا من الجنيد . ها قد سمعتيه ، ثم انصرف وما عرفته

وقال يزيد الرقاشى ، إليكم عنى الماء البارد فى الدنيا ، لعلى لا أحرمه فى الآخرة ، وقال رجل لعمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى ، متى أتكلم ؟ قال إذا اشتهيت الصمت . قال متى أصمت قال إذا اشتهيت الكلام . وقال على رضى الله عنه ، من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات فى الدنيا وكان مالك بن دينار يطوف فى السوق ، فإذا رأى الشىء يشتهيه ، قال لنفسه اصبرى ، فو الله ما أمنعك إلا من كرامتك علىّ

---

(1) يوسف : ٩٠

فإذا قد اتفق العلماء والحكماء ، على أن لا طريق إلى سعادة الآخرة ، إلا بنهي النفس عن الهوى ، ومخالفة الشهوات . فالإيمان بهذا واجب . وأما علم تفصيل ما يترك من الشهوات وما لا يترك ، لا يدرك إلا بما قدمناه

وحاصل الرياضة وسرها ، أن لا تتمتع النفس بشيء مما لا يوجد في القبر ، إلا بقدر الضرورة . فيكون مقتصرا من الأكل ، والنكاح ، واللباس ، والمسكن ، وكل ما هو مضطر إليه ، على قدر الحاجة والضرورة . فإنه لو تمتع بشيء منه ، أنس به وألفه . فإذا مات تمنى الرجوع إلى الدنيا بسببه . ولا يتمنى الرجوع إلى الدنيا إلا من لا حظ له في الآخرة بحال . ولا خلاص منه إلا بأن يكون القلب مشغولا بمعرفة الله وحبه ، والتفكر فيه والانقطاع إليه ، ولا قوة على ذلك إلا بالله . ويقتصر من الدنيا على ما يدفع عوائق الذكر والفكر فقط . فمن لم يقدر على حقيقة ذلك ، فليقرب منه والناس فيه أربعة

رجل مستغرق قلبه بذكر الله ، فلا يتلفت إلى الدنيا إلا في ضرورات المعيشة فهو من الصديقين . ولا ينتهي إلى هذه الرتبة إلا بالرياضة الطويلة ، والصبر عن الشهوات مدة مديدة

الثاني : رجل استغرقت الدنيا قلبه ، ولم يبق لله تعالى ذكر في قلبه ، إلا من حيث حديث النفس ، حيث يذكره باللسان لا بالقلب ، فهذا من الهالكين

والثالث : رجل اشتغل بالدنيا والدين ، ولكن الغالب على قلبه هو الدين ، فهذا لا بد له من ورود النار ، إلا أنه ينجو منها سريعا ، بقدر غلبة ذكر الله تعالى على قلبه

والرابع : رجل اشتغل بهما جميعا ، لكن الدنيا أغلب على قلبه ، فهذا يطول مقامه في النار لكن يخرج منها لا محالة ، لقوة ذكر الله تعالى في قلبه ، وتمكنه من صميم فؤاده ، وإن كان ذكر الدنيا أغلب على قلبه . اللهم إنا نعوذ بك من خزيك ، فإنك أنت المعاذ

وربما يقول القائل ، إن التنعم بالمباح مباح ، فكيف يكون التنعم سبب البعد من الله عز وجل ؟ وهذا خيال ضعيف . بل حب الدنيا رأس كل خطيئة ، وسبب إحباط كل حسنة والمباح الخارج عن قدر الحاجة أيضا من الدنيا ، وهو سبب البعد . وسيأتي ذلك في كتاب ذم الدنيا

وقد قال ابراهيم الخواص ، كنت مرة فى جبل اللكام ، فرأيت رمانا ، فاشتهيته ؛ فأخذت منه واحدة ، فشققتها ، فوجدتها حامضة . فمضيت وتركتها . فرأيت رجلا مطروحا وقد اجتمعت عليه الزنابير . فقلت السلام عليك : فقال وعليك السلام ياابراهيم . فقلت كيف عرفتنى ؟ فقال من عرف الله عز وجل لم يخف عليه شيء . فقلت أرى لك حالا مع الله عز وجل ، فلو سألته أن يحميك من هذه الزنابير ؟ فقال وأرى لك حالا مع الله تعالى فلو سألته أن يحميك من شهوة الرمان ؟ فإن لدغ الرمان يجد الإنسان ألمه فى الآخرة ، ولدغ الزنابير يجد ألمه فى الدنيا . فتركته ومضيت

وقال السرى ، أنا منذ أربعين سنة ، تطالبنى نفسى أن أغمس خبزة فى دبس * فما أطعمتها

فإذاً لا يمكن إصلاح القلب لسلوك طريق الآخرة ، مالم يمنع نفسه عن التنعم بالمباح فإن النفس إذا لم تمنع بعض المباحات ، طمعت فى المحظورات . فمن أراد حفظ لسانه عن الغيبة والفضول ، فحقه أن يلزمه السكوت إلا عن ذكر الله وإلا عن المهمات فى الدين ، حتى تموت منه شهوة الكلام . فلا يتكلم إلا بحق . فيكون سكوته عبادة ، وكلامه عبادة

ومهما اعتادت العين رمي البصر إلى كل شيء جميل ، لم تتحفظ عن النظر إلى مالا يحل وكذلك سائر الشهوات . لأن الذى يشتهى به الحلال ، هو بعينه الذى يشتهى الحرام . فالشهوة واحدة . وقد وجب على العبد منعها من الحرام . فإن لم يعودها الاقتصار على قدر الضرورة من الشهوات غلبته . فهذه إحدى آفات المباحات ، ووراءها آفات عظيمة أعظم من هذه ، وهو أن النفس تفرح بالتنعم فى الدنيا وتركن إليها ، وتطمئن إليها أشرا وبطرا حتى تصير ثملة ، كالسكران الذى لا يفيق من سكره ، وذلك الفرح بالدنيا سم قاتل ، يسرى فى العروق فيخرج من القلب الخوف والحزن ، وذكر الموت ، وأهوال يوم القيامة ، وهذا هو موت القلب ، قال الله تعالى : (وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا [1]) وقال تعالى : (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ [2]) وقال تعالى : (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ [3]) الآية وكل ذلك ذم لها فنسأل الله السلامة ، فأولوا الحزم من أرباب القلوب ، جربوا قلوبهم فى حال الفرح بمؤاتاة

(١) يونس : ٧ (٢) الرعد : ٢٦ (٣) الحديد : ٢٠

* الدبس : عسل التمر وعسل النحل

الدنيا فوجدوها قاسية نفرة ، بعيدة التأثر عن ذكر الله واليوم الآخر ، وجربوها فى حالة الحزن ، فوجدوها لينة رقيقة صافية ، قابلة لأثر الذكر ، فعلموا أن النجاة فى الحزن الدائم والتباعد من أسباب الفرح والبطر ، ففطموها عن ملاذها ، وعودوها الصبر عن شهواتها حلالها وحرامها ، وعلموا أن حلالها حساب ، وحرامها عقاب ، ومتشابهها عتاب ، وهو نوع عذاب ، فمن نوقش الحساب فى عرصات القيامة فقد عذب ، فخلصوا أنفسهم من عذابها وتوصلوا إلى الحرية والملك الدائم فى الدنيا والآخرة ، بالخلاص من أسر الشهوات ورقها والأنس بذكر الله عز وجل ، والاشتغال بطاعته ، وفعلوا بها ما يفعل بالبازى إذا قصد تأديبه ، ونقله من التوثب والاستيحاش ، إلى الانقياد والتأديب ، فإنه يحبس أولا فى بيت مظلم ، وتخاط عيناه ، حتى يحصل به الفطام عن الطيران فى جو الهواء وينسى ما قد كان ألفه من طبع الاسترسال . ثم يرفق به باللحم ، حتى يأنس بصاحبه ويألفه إلفا إذا دعاه أجابه ومهما سمع صوته رجع إليه

فكذلك النفس لا تألف ربها ولا تأنس بذكره ، إلا إذا فطمت عن عادتها بالخلوة والعزلة أولا ، ليحفظ السمع والبصر عن المألوفات ، ثم عودت الثناء والذكر والدعاء ثانيا فى الخلوة ، حتى يغلب عليها الأنس بذكر الله عز وجل ، عوضا عن الأنس بالدنيا وسائر الشهوات . وذلك يثقل على المريد فى البداية ، ثم يتنعم به فى النهاية ، كالصبي يفطم عن الثدي وهو شديد عليه ، إذ كان لا يصبر عنه ساعة ، فلذلك يشتد بكاؤه وجزعه عند الفطام ويشتد نفوره عن الطعام الذى يقدم إليه بدلا عن اللبن . ولكنه إذا منع اللبن رأسا يوما فيوما ، وعظم تعبه فى الصبر عليه ، وغلبه الجوع ، تناول الطعام تكلفا . ثم يصير له طبعا. فلو رد بعد ذلك إلى الثدى لم يرجع إليه . فيهجر الثدى ، ويعاف اللبن ، ويألف الطعام .

وكذلك الدابة ، فى الابتداء تنفر عن السرج واللجام والركوب ، فتحمل على ذلك قهرا وتمنع عن السرح الذى ألفته بالسلاسل والقيود أولا ، ثم تأنس به ، بحيث تترك فى موضعها فتقف فيه من غير قيد

فكذلك تؤدب النفس كما يؤدب الطير والدواب . وتأديبها بأن تمنع من النظر ، والأنس والفرح بنعيم الدنيا . بل بكل ما يزايلها بالموت : إذ قيل له أحبب ما أحببت فإنك مفارقه

فإذا علم أنه من أحب شيئا يلزمه فراقه ، ويشق لامحالة لفراقه ، شغل قلبه بحب مالا يفارقه وهو ذكر الله تعالى ، فإن ذلك يصحبه فى القبر ولا يفارقه . وكل ذلك يتم بالصبر أولا أياما قلائل ، فإن العمر قليل بالإضافة إلى مدة حياة الآخرة . وما من عاقل إلا وهو راض باحتمال المشقة فى سفر وتعلم صناعة وغيرها شهرا ، ليتنعم به سنة أو دهرا . وكل العمر بالإضافة إلى الأبد أقل من الشهر بالإضافة إلى عمر الدنيا . فلا بد من الصبر والمجاهدة ، فعند الصباح يحمد القوم السرى ، وتذهب عنهم عمايات الكرى : كما قاله علي رضي الله عنه

وطريق المجاهدة والرياضة لكل إنسان تختلف بحسب اختلاف أحواله . والأصل فيه أن يترك كل واحد ما به فرحه من أسباب الدنيا . فالذى يفرح بالمال ، أو بالجاه ، أو بالقبول فى الوعظ ، أو بالعز فى القضاء والولاية ، أو بكثرة الأتباع فى التدريس والإفادة فينبغى أن يترك أولا ما به فرحه . فإنه إن منع عن شيء من ذلك ، وقيل له ثوابك فى الآخرة لم ينقص بالمنع ، فكره ذلك ، وتألم به ، فهو ممن فرح بالحياة الدنيا واطمأن بها . وذلك مهلك فى حقه . ثم إذا ترك أسباب الفرح ، فليعتزل الناس ، ولينفرد بنفسه ، وليراقب قلبه ، حتى لا يشتغل إلا بذكر الله تعالى ، والفكر فيه . وليترصد لما يبدو فى نفسه من شهوة ووسواس ، حتى يقمع مادته مهما ظهر ، فإن لكل وسوسة سببا ، ولا تزول إلا بقطع ذلك السبب والعلاقة ، وليلازم ذلك بقية العمر ، فليس للجهاد آخر إلا الموت

بيان

علامات حسن الخلق

اعلم أن كل إنسان جاهل بعيوب نفسه . فإذا جاهد نفسه أدنى مجاهدة ، حتى ترك فواحش المعاصى ، ربما يظن بنفسه أنه قد هذب نفسه ، وحسن خلقه ، واستغنى عن المجاهدة فلا بد من إيضاح علامة حسن الخلق . فإن حسن الخلق هو الإيمان : وسوء الخلق هو النفاق وقد ذكر الله تعالى صفات المؤمنين والمنافقين فى كتابه . وهى بجملتها ثمرة حسن الخلق وسوء الخلق فلنورد جملة من ذلك ، لتعلم آية حسن الخلق

قال الله تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ [١]) إلى قوله (أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ [٢]) وقال عز وجل: (التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ [٣]) الى قوله (وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ [٤]) وقال عز وجل : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ [٥]) إلى قوله (أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا [٦]) وقال تعالى (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا [٧]) إلى آخر السورة .

فمن أشكل عليه حاله ، فليعرض نفسه على هذه الآيات . فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق ، وفقد جميعها علامة سوء الخلق ، ووجود بعضها دون بعض يدل على البعض دون البعض . فليشتغل بتحصيل مافقده ، وحفظ ماوجده

وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمن بصفات كثيرة ، وأشار بجميعها إلى محاسن الأخلاق فقال [١] « الْمُؤْمِنُ يُحِبُّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ » وقال عليه السلام [٢] « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ » وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ » وقال [٤] « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ »

وذكر أن صفات المؤمنين هي حسن الخلق فقال صلى الله عليه وسلم [٥] « أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ أَخْلَاقًا » وقال صلى الله عليه وسلم [٦] « إِذَا رَأَيْتُمُ الْمُؤْمِنَ صَمُوتًا وَقُورًا

---

(١) حديث المؤمن يحب لأخيه مايحب لنفسه : الشيخان من حديث أنس لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه

(٢) حديث من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه : متفق عليه من حديث أبي شريح الخزاعي ومن حديث أبي هريرة

(٣) حديث من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره : متفق عليه من حديثهما وهو بعض الحديث الذي قبله

(٤) حديث من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت : متفق عليه أيضاً من حديثهما وهو بعض الذي قبله

(٥) حديث أكمل المؤمنين ايمانا أحسنهم خلقا : تقدم غير مرة

(٦) حديث إذا رأيتم المؤمن صموتا وقورا فادنوا منه فانه يلقن الحكمة ه من حديث أبي خلا بلفظ إذا رأيتم الرجل قد أعطى زهدا في الدنيا وقلة منطق فاقربوا منه فانه يلقن الحكمة

---

(١) المؤمنون : ١ و ٢ و ٣ (٢) المؤمنون : ١٠ (٣) و (٤) التوبة : ١١٢ (٥) الانفال : ٢ (٦) الانفال : ٤ (٧) الفرقان : ٦٣

فَادْنُوا مِنْهُ فَإِنَّهُ يُلَقَّنُ الْحِكْمَةَ » وقال [(١)] « مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَهُوَ مُؤْمِنٌ » وقال [(٢)] « لَا يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يُشِيرَ إِلَى أَخِيهِ بِنَظْرَةٍ تُؤْذِيهِ » وقال عليه السلام [(٣)] « لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُرَوِّعَ مُسْلِمًا » وقال صلى الله عليه وسلم [(٤)] « إِنَّمَا يَتَجَالَسُ الْمُتَجَالِسَانِ بِأَمَانَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَلَا يَحِلُّ لِأَحَدِهِمَا أَنْ يُفْشِيَ عَلَى أَخِيهِ مَا يَكْرَهُهُ »

وجمع بعضهم علامات حسن الخلق فقال ، هو أن يكون كثير الحياء ، قليل الأذى ، كثير الصلاح ، صدوق اللسان ، قليل الكلام ، كثير العمل ، قليل الزلل ، قليل الفضول ، برا ، وصولا ، وقورا ، صبورا ، شكورا ، رضيا ، حليما ، رفيقا ، عفيفا ، شفيقا ، لا لعانا ، ولا سبابا ، ولا نماما ، ولا مغتابا ، ولا عجولا ، ولا حقودا ، ولا بخيلا ، ولا حسودا ، بشاشا ، هشاشا ، يحب فى الله ، ويبغض فى الله ، ويرضى فى الله ، ويغضب فى الله ، فهذا هو حسن الخلق .

[(٥)] وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن علامة المؤمن والمنافق ، فقال « إِنَّ الْمُؤْمِنَ هِمَّتُهُ فِي الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَالْعِبَادَةِ وَالْمُنَافِقَ هِمَّتُهُ فِي الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ كَالْبَهِيمَةِ »

وقال حاتم الأصم ، المؤمن مشغول بالفكر والعبر ، والمنافق مشغول بالحرص والأمل والمؤمن آيس من كل أحد إلا من الله ، والمنافق راج كل أحد إلا الله . والمؤمن آمن من كل أحد إلا من الله والمنافق خائف من كل أحد إلا من الله . والمؤمن يقدم ماله دون دينه والمنافق يقدم دينه دون ماله . والمؤمن يحسن ويبكى ، والمنافق يسىء ويضحك . والمؤمن يحب الخلوة والوحدة ، والمنافق يحب الخلطة والملأ . والمؤمن يزرع ويخشى الفساد ، والمنافق يقلع ويرجو الحصاد . والمؤمن يأمر وينهى للسياسة فيصلح ، والمنافق يأمر وينهى للرياسة فيفسد

وأولى ما يمتحن به حسن الخلق الصبر على الأذى ، واحتمال الجفاء . ومن شكا من سوء

---

(١) حديث من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن : أحمد والطبرانى وك وصححه على شرطهما من حديث أبى موسى ورواه طب ك وصححه على شرط الشيخين من حديث أبى أمامة

(٢) حديث لا يحل لمسلم أن يشير إلى أخيه بنظر يؤذيه : ابن المبارك فى الزهد والرقائق وفى البر والصلة مرسلا وقد تقدم

(٣) حديث لا يحل لمسلم أن يروع مسلما : طب طس من حديث النعمان بن بشير والبزار من حديث ابن عمر وإسناده ضعيف

(٤) حديث إنما يتجالس المتجالسان بأمانة الله ـ الحديث : تقدم فى آداب الصحبة

(٥) حديث سئل عن علامة المؤمن والمنافق فقال إن المؤمن همه فى الصلاة والصيام ـ الحديث : لم أجد له أصلا

خلق غيره ، دل ذلك على سوء خلقه . فإن حسن الخلق احتمال الأذى . فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] ، كان يوما يمشي ومعه أنس . فأدركه أعرابي ، فجذبه جذبا شديدا وكان عليه برد نجراني غليظ الحاشية . قال أنس رضي الله عنه ، حتى نظرت إلى عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أثرت فيه حاشية البرد من شدة جذبه . فقال يا محمد ، هب لي من مال الله الذى عندك . فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وضحك ، ثم أمر بإعطائه ولما أكثرت قريش إيذاءه وضربه ، قال ، [٢] « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » قيل إن هذا يوم أحد . فلذلك أنزل الله تعالى فيه (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ [١])

ويحكى أن ابراهيم بن أدهم ، خرج يوما إلى بعض البراري ، فاستقبله رجل جندى ، فقال أنت عبد ؟ قال نعم . فقال له أين العمران ؟ فأشار إلى المقبرة . فقال الجندى ، إنما أردت العمران ، فقال هو المقبرة . فغاظه ذلك ، فضرب رأسه بالسوط فشجه ، ورده إلى البلد ، فاستقبله أصحابه ، فقالوا ما الخبر ؟ فأخبرهم الجندى ما قال له . فقالوا هذا ابراهيم بن أدهم . فنزل الجندى عن فرسه ، وقبل يديه ورجليه ، وجعل يعتذر إليه . فقيل بعد ذلك له ، لم قلت له أنا عبد ؟ فقال إنه لم يسألني عبد من أنت ؟ بل قال أنت عبد؟ فقلت نعم ، لأني عبد الله فلما ضرب رأسي سألت الله له الجنة . قيل كيف وقد ظلمك ؟ فقال علمت أنني أوجر على مانالني منه ، فلم أرد أن يكون نصيبي منه الخير ، ونصيبه مني الشر

ودعي أبو عثمان الحيرى إلى دعوة ، وكان الداعى قد أراد تجربته . فلما بلغ منزله ، قال له ليس لى وجه . فرجع أبو عثمان . فلما ذهب غير بعيد ، دعاه ثانيا ، فقال له يا أستاذ ارجع ، فرجع أبو عثمان ، ثم دعاه الثالثة ، وقال ارجع على ما يوجب الوقت ، فرجع . فلما بلغ الباب ، قال له مثل مقالته الأولى ، فرجع أبو عثمان ثم جاءه الرابعة ، فرده : حتى عامله بذلك مرات ، وأبو عثمان لايتغير من ذلك . فأكب على

---

(١) حديث كان يمشى فادركه أعرابي فجذبه جذبا شديدا وكان عليه برد نجراني غليظ الحاشية ـ الحديث: متفق عليه من حديث أنس

(٢) حديث اللهم اغفر لقومى فانهم لايعلمون : حب والبيهقي فى دلائل النبوة من حديث سهل بن سعد وفى الصحيحين من حديث ابن مسعود أنه حكاه صلى الله عليه وسلم عن نبي من الأنبياء ضربه قومه

---

[١] ن : ٤

رجليه وقال ، ياأستاذ ، إنما أردت أن أختبرك ، فما أحسن خلقك ! فقال إن الذى رأيت مني هو خلق الكلب . إن الكلب إذا دعي أجاب ، وإذا زجر انزجر

وروي عنه أيضا أنه اجتاز يوما فى سكة ،فطرحت عليه إجّانة * رماد . فنزل عن دابته فسجد سجدة الشكر ،ثم جعل ينفض الرماد عن ثيابه ، ولم يقل شيئا . فقيل ألا زبرتهم؟ فقال إن من استحق النار فصولح على الرماد لم يجز له أن يغضب.

وروي أن علي بن موسى الرضا رحمة الله عليه ، كان لونه يميل إلى السواد ، إذ كانت أمه سوداء . وكان بنيسابور حمام على باب داره . وكان إذا أراد دخول الحمام ، فرّغه له الحمامىّ فدخل ذات يوم ، فأغلق الحمامى الباب ، ومضى فى بعض حوائجه . فتقدم رجل رستاق * إلى باب الحمام ، ففتحه ، ودخل ، فنزع ثيابه ودخل ، فرأى على بن موسى الرضا . فظن أنه بعض خدام الحمام . فقال له قم واحمل إلىّ الماء . فقام على بن موسى ،وامتثل جميع ما كان يأمره به . فرجع الحمامى ، فرأى ثياب الرستاق ،وسمع كلامه مع على بن موسى الرضا ،فخاف وهرب ، وخلاهما . فلما خرج على بن موسى ، سأل عن الحمامى . فقيل له إنه خاف مما جرى فهرب . قال لاينبغى له أن يهرب . إنما الذنب لمن وضع ماءه عند أمة سوداء .

وروي أن أبا عبد الله الخياط ، كان يجلس على دكانه . وكان له حريف مجوسى ،يستعمله فى الخياطة . فكان إذا خاط له شيئا ، حمل إليه دراهم زائفة . فكان أبو عبد الله يأخذها منه ولا يخبره بذلك ، ولا يردها عليه . فاتفق يوما أن أبا عبدالله قام لبعض حاجته، فأتى المجوسى فلم يجده . فدفع إلى تلميذه الأجرة ، واسترجع ما قد خاطه . فكان درهما زائفا . فلما نظر إليه التلميذ ، عرف أنه زائف ، فرده عليه . فلما عاد أبو عبد الله ، أخبره بذلك . فقال بئس ما عملت . هذا المجوسى يعاملنى بهذه المعاملة منذ سنة ، وأنا أصبر عليه ، وآخذ الدراهم منه ، وألقيها فى البئر ، لئلا يغر بها مسلما

وقال يوسف بن أسباط ، علامة حسن الخلق عشر خصال: قلة الخلاف ، وحسن الإنصاف ، وترك طلب العثرات، وتحسين ما يبدو من السيئات ،والتماس المعذرة ،واحتمال الأذى ، والرجوع بالملامة على النفس ، والتفرد بمعرفة عيوب نفسه دون عيوب غيره ، وطلاقة الوجه للصغير والكبير ، ولطف الكلام لمن دونه ولمن فوقه

---

* الاجانة بالتشديد : الوعاء الذى يغسل فيه الثياب * الرستاق : الساكن طرف الاقليم

وسئل سهل عن حسن الخلق فقال ، أدناه احتمال الأذى ، وترك المكافأة ، والرحمة للظالم ، والاستغفار له ، والشفقة عليه

وقيل للأحنف بن قيس ، ممن تعلمت الحلم ؟ فقال من قيس بن عاصم . قيل وما بلغ من حلمه ؟ قال بينما هو جالس فى داره ، إذ أتته جارية له بسفود عليه شواء . فسقط من يدها ، فوقع على ابن له صغير ، فمات . فدهشت الجارية . فقال لها لاروع عليك ، أنت حرة لوجه الله تعالى

وقيل إن أويسا القرنى ، كان إذا رآه الصبيان ، يرمونه بالحجارة . فكان يقول لهم ، ياإخوتاه ، إن كان ولا بد فارمونى بالصغار ، حتى لاتدموا ساقى ، فتمنعونى عن الصلاة

وشتم رجل الأحنف بن قيس ، وهو لايجيبه . وكان يتبعه . فلما قرب من الحى وقف وقال ، إن كان قد بقى فى نفسك شىء فقله ، كى لايسمعك بعض سفهاء الحى فيؤذوك

وروى أن عليا كرم الله وجهه ، دعا غلاما فلم يجبه . فدعاه ثانيا وثالثا فلم يجبه . فقام إليه ، فرآه مضطجعا. فقال أما تسمع ياغلام ؟ قال بلى . قال فما حملك على ترك إجابتى ؟ قال أمنت عقوبتك فتكاسلت . فقال امض فأنت حر لوجه الله تعالى

وقالت امرأة لمالك بن دينار رحمه الله ، يامرائى ، فقال ياهذه ، وجدت اسمى الذى أضله أهل البصرة

وكان ليحيى بن زياد الحارثى غلام سوء . فقيل له لم تمسكه ؟ فقال لأتعلم الحلم عليه

فهذه نفوس قد ذللت بالرياضة ، فاعتدلت أخلاقها ، ونقيت من الغش والغل والحقد بواطنها ، فأثمرت الرضا بكل ماقدره الله تعالى ، وهو منتهى حسن الخلق . فإن من يكره فعل الله تعالى ولا يرضى به ، فهو غاية سوء خلقه . فهؤلاء ظهرت العلامات على ظواهرهم كما ذكرناه . فمن لم يصادف من نفسه هذه العلامات ، فلا ينبغى أن يغتر بنفسه ، فيظن بها حسن الخلق . بل ينبغى أن يشتغل بالرياضة والمجاهدة ، إلى أن يبلغ درجة حسن الخلق ، فإنها درجة رفيعة ، لاينالها إلا المقربون والصديقون

بيان

الطريق فى رياضة الصبيان فى أول نشوهم ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم

اعلم أن الطريق فى رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها . والصبي أمانة عند والديه وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة، خالية عن كل نقش وصورة. وهو قابل لكل ما نقش ومائل إلى كل ما يمال به إليه . فإن عود الخير وعلمه ، نشأ عليه ، وسعد فى الدنيا والآخرة وشاركه فى ثوابه أبواه وكل معلم له ومؤدب . وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم ، شقى وهلك ، وكان الوزر فى رقبة القيم عليه ، والوالى له . وقد قال الله عز وجل : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً[1]) ومهما كان الأدب يصونه عن نار الدنيا، فبأن يصونه عن نار الآخرة أولى . وصيانته بأن يؤدبه ويهذبه ، ويعلمه محاسن الأخلاق ، ويحفظه من القرناء السوء ، ولا يعوده التنعم ، ولا يحبب إليه الزينة وأسباب الرفاهية ، فيضيع عمره فى طلبها إذا كبر ، فيهلك هلاك الأبد . بل ينبغى أن يراقبه من أول أمره ، فلا يستعمل فى حضانته وإرضاعه إلا امرأة صالحة متدينة ، تأكل الحلال ، فإن اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه ، فإذا وقع عليه نشو الصبي انعجنت طينته من الخبث ، فيميل طبعه إلى ما يناسب الخبائث .

ومهما رأى فيه مخايل التميز ، فينبغى أن يحسن مراقبته . وأول ذلك ظهور أوائل الحياء فإنه إذا كان يحتشم ويستحى ، ويترك بعض الأفعال ، فليس ذلك إلا لإشراق نور العقل عليه حتى يرى بعض الأشياء قبيحا ومخالفا للبعض . فصار يستحى من شيء دون شيء . وهذه هدية من الله تعالى إليه ، وبشارة تدل على اعتدال الأخلاق وصفاء القلب ، وهو مبشر بكمال العقل عند البلوغ . فالصبي المستحى لا ينبغى أن يهمل ، بل يستعان على تأديبه بحيائه أو تميزه

وأول ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام . فينبغى أن يؤدب فيه ، مثل أن لا يأخذ الطعام إلا بيمينه ، وأن يقول عليه بسم الله عند أخذه ، وأن يأكل مما يليه ، وأن لا يبادر إلى الطعام قبل غيره ، وأن لا يحدق النظر إليه ولا إلى من يأكل ، وأن لا يسرع فى الأكل

---

(١) التحريم : ٦

وأن يجيد المضغ ، وأن لا يوالى بين اللقم ، ولا يلطخ يده ولا ثوبه ، وأن يعود الخبز القفار فى بعض الأوقات ، حتى لا يصير بحيث يرى الأدم حتما ، ويقبح عنده كثرة الأكل ، بأن يشبه كل من يكثر الأكل بالبهائم ، وبأن يذم بين يديه الصبي الذى يكثر الأكل ، ويمدح عنده الصبي المتأدب القليل الأكل ، وأن يحبب إليه الإيثار بالطعام، وقلة المبالاة به ، والقناعة بالطعام الخشن أى طعام كان

وأن يحبب إليه من الثياب البيض دون الملون والابريسم ، ويقرر عنده أن ذلك شأن النساء والمخنثين ، وأن الرجال يستنكفون منه ، ويكرر ذلك عليه . ومهما رأى على صبي ثوبا من ابريسم أو ملون ، فينبغى أن يستنكره ويذمه . ويحفظ الصبي عن الصبيان الذين عودوا التنعم والرفاهية ، ولبس الثياب الفاخرة ، وعن مخالطة كل من يسمعه مايرغبه فيه فإن الصبي مهما أهمل فى ابتداء نشوه ، خرج فى الأغلب ردىء الأخلاق ، كذابا، حسودا سروقا، نماما، لحوحا، ذافضول وضحك، وكياد ومجانة. وإنما يحفظ عن جميع ذلك بحسن التأديب

ثم يشغل فى المكتب ، فيتعلم القرءان ، وأحاديث الأخبار ، وحكايات الأبرار وأحوالهم لينغرس فى نفسه حب الصالحين ويحفظ من الأشعار التى فيها ذكر العشق وأهله ، ويحفظ من مخالطة الأدباء الذين يزعمون أن ذلك من الظرف ورقة الطبع ، فإن ذلك يغرس فى قلوب الصبيان بذر الفساد

ثم مهما ظهر من الصبي خلق جميل ، وفعل محمود ، فينبغى أن يكرم عليه ، ويجازى عليه بما يفرح به ، ويمدح بين أظهر الناس . فإن خالف ذلك فى بعض الأحوال مرة واحدة ، فينبغى أن يتغافل عنه ، ولا يهتك ستره ، ولا يكاشفه ، ولا يظهر له أنه يتصور أن يتجاسر أحد على مثله ، ولاسيما إذا ستره الصبي ، واجتهد فى إخفائه . فإن إظهار ذلك عليه ربما يفيده جسارة ، حتى لا يبالى بالمكاشفة . فعند ذلك إن عاد ثانيا ، فينبغى أن يعاتب سرا ، ويعظم الأمر فيه ، ويقال له إياك أن تعود بعد ذلك لمثل هذا ، وأن يطلع عليك فى مثل هذا فتفتضح بين الناس . ولا تكثر القول عليه بالعتاب فى كل حين ، فإنه يهون عليه سماع الملامة ، وركوب القبائح ، ويسقط وقع الكلام من قلبه

وليكن الأب حافظا هيبة الكلام معه ، فلا يوبخه إلا أحيانا ، والأم تخوفه

بالأب ، وتزجره عن القبائح

وينبغى أن يمنع عن النوم نهارا ، فإنه يورث الكسل . ولا يمنع منه ليلا . ولكن يمنع الفرش الوطيئة ، حتى تتصلب أعضاؤه ، ولا يسمن بدنه ، فلا يصبر عن التنعم . بل يعود الخشونة فى المفرش والملبس والمطعم

وينبغى أن يمنع من كل ما يفعله فى خفية : فإنه لا يخفيه إلا وهو يعتقد أنه قبيح . فإذا تعود ترك فعل القبيح

ويعود فى بعض النهار المشى والحركة والرياضة حتى لا يغلب عليه الكسل . ويعود أن لا يكشف أطرافه ، ولا يسرع المشى ، ولا يرخى يديه ، بل يضمهما إلى صدره

ويمنع من أن يفتخر على أقرانه بشىء مما يملكه والداه ، أو بشىء من مطاعمه وملابسه أو لوحه ودواته بل يعود التواضع والإكرام لكل من عاشره ، والتلطف فى الكلام معهم

ويمنع من أن يأخذ من الصبيان شيئا بداله حشمة إن كان من أولاد المحتشمين . بل يعلم أن الرفعة فى الإعطاء لا فى الأخذ ، وأن الأخذ لؤم وخسة ودناءة ، وإن كان من أولاد الفقراء ، فيعلم أن الطمع والأخذ مهانة وذلة ، وأن ذلك من دأب الكلب ، فإنه يبصبص فى انتظار لقمة والطمع فيها

وبالجملة يقبح إلى الصبيان حب الذهب والفضة ، والطمع فيهما : ويحذر منهما أكثر مما يحذر من الحيات والعقارب ، فإن آفة حب الذهب والفضة ، والطمع فيهما أضر من آفة السموم على الصبيان . بل على الأكابر أيضا

وينبغى أن يعود أن لا يبصق فى مجلسه ، ولا يتمخط ، ولا يتثاءب بحضرة غيره ، ولا يستدبر غيره ، ولا يضع رجلا على رجل ، ولا يضع كفه تحت ذقنه ، ولا يعمد رأسه بساعده ، فإن ذلك دليل الكسل . ويعلم كيفية الجلوس ، ويمنع كثرة الكلام ، ويبين له أن ذلك يدل على الوقاحة ، وأنه فعل أبناء اللئام . ويمنع اليمين رأسا ، صادقا كان أو كاذبا ، حتى لا يعتاد ذلك فى الصغر . ويمنع أن يبتدىء بالكلام ، ويعود أن لا يتكلم إلا جوابا وبقدر السؤال . وأن يحسن الاستماع مهما تكلم غيره ، ممن هو أكبر منه سنا ، وأن يقوم لمن فوقه ، ويوسع له المكان ، ويجلس بين يديه .

ويمنع من لغو الكلام وفحشه ، ومن اللعن والسب ، ومن مخالطة من يجرى على لسانه شيء من ذلك . فإن ذلك يسرى لا محالة من القرناء السوء ، وأصل تأديب الصبيان الحفظ من قرناء السوء

وينبغى إذا ضربه المعلم أن لا يكثر الصراخ والشغب ، ولا يستشفع بأحد ، بل يصبر ، ويذكر له أن ذلك دأب الشجعان والرجال ، وأن كثرة الصراخ دأب المماليك والنسوان

وينبغى أن يؤذن له بعد الانصراف من الكتاب ، أن يلعب لعبا جميلا ، يستريح إليه من تعب المكتب ، بحيث لا يتعب فى اللعب . فإن منع الصبى من اللعب ، وإرهاقه إلى التعلم دائما ، يميت قلبه ، ويبطل ذكاءه ، وينغص عليه العيش ، حتى يطلب الحيلة فى الخلاص منه رأسا

وينبغى أن يعلم طاعة والديه ومعلمه ومؤدبه ، وكل من هو أكبر منه سنا ، من قريب وأجنبى : وأن ينظر إليهم بعين الجلالة والتعظيم ، وأن يترك اللعب بين أيديهم

ومهما بلغ سن التمييز ، فينبغى أن لا يسامح فى ترك الطهارة والصلاة ، ويؤمر بالصوم فى بعض أيام رمضان ، ويجنب لبس الديباج والحرير والذهب ، ويعلم كل ما يحتاج إليه من حدود الشرع ، ويخوف من السرقة وأكل الحرام ، ومن الخيانة والكذب والفحش وكل ما يغلب على الصبيان

فإذا وقع نشوه كذلك فى الصبا ، فمهما قارب البلوغ ، أمكن أن يعرف أسرار هذه الأمور . فيذكر له أن الأطعمة أدوية ، وإنما المقصود منها أن يقوى الإنسان بها على طاعة الله عز وجل ، وأن الدنيا كلها لا أصل لها ، إذ لا بقاء لها ، وأن الموت يقطع نعيمها ، وأنها دار ممر ، لا دار مقر . وأن الآخرة دار مقر لا دار ممر وأن الموت منتظر فى كل ساعة . وأن الكيس العاقل من تزود من الدنيا للآخرة ، حتى تعظم درجته عند الله تعالى ، ويتسع نعيمه فى الجنان

فإذا كان النشو صالحا ، كان هذا الكلام عند البلوغ واقعا مؤثرا ناجعا ، يثبت فى قلبه كما يثبت النقش فى الحجر . وإن وقع النشو بخلاف ذلك ، حتى ألف الصبى اللعب ، والفحش والوقاحة ، وشره الطعام ، واللباس ، والتزين ، والتفاخر ، نبا قلبه عن قبول الحق ، نبوة الحائط عن التراب اليابس

فأوائل الأمور هي التي ينبغي أن تراعى ، فإن الصبي بجوهره خلق قابلا للخير والشر جميعا . وإنما أبواه يميلان به إلى أحد الجانبين . قال صلى الله عليه وسلم [1] « كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ وَإِنَّمَا أَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ »

قال سهل بن عبد الله التستري ، كنت وأنا ابن ثلاث سنين أقوم بالليل ، فأنظر إلى صلاة خالي محمد بن سوار . فقال لي يوما ، ألا تذكر الله الذي خلقك ؟ فقلت كيف أذكره قال قل بقلبك عند تقلبك في ثيابك ثلاث مرات ، من غير أن تحرك به لسانك، الله معي الله ناظر إليّ ، الله شاهد . فقلت ذلك ليالي ، ثم أعلمته ، فقال قل في كل ليلة سبع مرات فقلت ذلك ، ثم أعلمته . فقال قل ذلك كل ليلة إحدى عشر مرة ، فقلته . فوقع في قلبي حلاوته . فلما كان بعد سنة ، قال لي خالي ، احفظ ما علمتك ، ودم عليه إلى أن تدخل القبر فإنه ينفعك في الدنيا والآخرة . فلم أزل على ذلك سنين ، فوجدت لذلك حلاوة في سري ثم قال لي خالي يوما ، ياسهل ، من كان الله معه ، وناظر إليه ، وشاهده ، أيعصيه ؟ إياك والمعصية ، فكنت أخلو بنفسي . فبعثوا بي إلى المكتب ، فقلت إني لأخشى أن يتفرق على همي ، ولكن شارطوا المعلم أني أذهب إليه ساعة فأتعلم . ثم أرجع . فمضيت إلى الكتاب ، فتعلمت القرآن وحفظته وأنا ابن ست سنين ، أو سبع سنين ، وكنت أصوم الدهر ، وقوتي من خبز الشعير اثنتي عشرة سنة ، فوقعت لي مسألة وأنا ابن ثلاث عشرة سنة ، فسألت أهلي أن يبعثوني إلى أهل البصرة لأسأل عنها ، فأتيت البصرة ، فسألت علماءها ، فلم يشف أحد عني شيئا . فخرجت إلى عبادان إلى رجل يعرف بأبي حبيب حمزة ابن أبي عبد الله العباداني فسألته عنها ، فأجابني . فأقمت عنده مدة ، أنتفع بكلامه، وأتأدب بآدابه . ثم رجعت إلى تستر ، فجعلت قوتي اقتصادا على أن يشترى لي بدرهم من الشعير الفرق فيطحن ويخبز لي ، فأفطر عند السحر على أوقية كل ليلة ، بحتا بغير ملح ولا أدم ، فكان يكفيني ذلك الدرهم سنة . ثم عزمت على أن أطوى ثلاث ليال ثم أفطر ليلة ، ثم خمسا ، ثم سبعا ثم خمسا وعشرين ليلة . فكنت على ذلك عشرين سنة . ثم خرجت أسيح في الأرض سنين ، ثم رجعت إلى تستر ، وكنت أقوم الليل كله ماشاء الله تعالى . قال أحمد ، فما رأيته أكل الملح حتى لقي الله تعالى .

(١) حديث كل مولود يولد على الفطرة ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة

بيان

شروط الإرادة ومقدمات المجاهدة وتدريج المريد فى سلوك سبيل الرياضة

واعلم أن من شاهد الآخرة بقلبه مشاهدة يقين ، أصبح بالضرورة مريدا حرث الآخرة مشتاقا إليها ، سالكا سبلها ، مستهينا بنعيم الدنيا ولذاتها . فإن من كانت عنده خرزة، فرأى جوهرة نفيسة ، لم يبق له رغبة فى الخرزة ، وقويت إرادته فى بيعها بالجوهرة ومن ليس مريدا حرث الآخرة ، ولا طالبا للقاء الله تعالى ، فهو لعدم إيمانه بالله واليوم الآخر. ولست أعنى بالإيمان حديث النفس ، وحركة اللسان بكلمتى الشهادة ، من غير صدق وإخلاص ، فإن ذلك يضاهى قول من صدق بأن الجوهرة خير من الخرز ، إلا أنه لا يدرى من الجوهرة إلا لفظها ، وأما حقيقتها فلا . ومثل هذا المصدق ، إذا ألف الخرزة قد لا يتركها ، ولا يعظم اشتياقه إلى الجوهرة . فإذاً: المانع من الوصول عدم السلوك، والمانع من السلوك عدم الإرادة ، والمانع من الإرادة عدم الإيمان ، وسبب عدم الإيمان عدم الهداة والمذكرين والعلماء بالله تعالى ، الهادين إلى طريقه ، والمنبهين على حقارة الدنيا وانقراضها ، وعظم أمر الآخرة ودوامها . فالخلق غافلون ، قد انهمكوا فى شهواتهم ، وغاصوا فى رقدتهم . وليس فى علماء الدين من ينبههم . فإن تنبه منهم متنبه ، عجز عن سلوك الطريق لجهله. فإن طلب الطريق من العلماء ، وجدهم مائلين إلى الهوى ، عادلين عن نهج الطريق . فصار ضعف الإرادة ، والجهل بالطريق ، ونطق العلماء بالهوى ، سببا لخلو طريق الله تعالى عن السالكين فيه . ومهما كان المطلوب محجوبا. والدليل مفقودا ، والهوى غالبا، والطالب غافلا ، امتنع الوصول ، وتعطلت الطرق لا محالة . فإن تنبه متنبه من نفسه ، أو من تنبيه غيره ، وانبعث له إرادة فى حرث الآخرة وتجارتها ، فينبغى أن يعلم أن له شروطا لا بد من تقديمها فى بداية الإرادة ، وله معتصم لا بد من التمسك به ، وله حصن لا بد من التحصن به ، ليأمن من الأعداء القطاع لطريقه ، وعليه وظائف لا بد من ملازمتها فى وقت سلوك الطريق

أما الشروط التى لابد من تقديمها فى الإرادة ، فهى رفع السد والحجاب الذى بينه وبين الحق . فإن حرمان الخلق عن الحق ، سببه تراكم الحجب ، ووقوع السد على الطريق . قال الله تعالى (وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ[1])

والسد بين المريد وبين الحق أربعة ، المال ، والجاه ، والتقليد ، والمعصية

وإنما يرفع حجاب المال بخروجه عن ملكه ، حتى لايبقى له إلا قدر الضرورة . فما دام يبقى له درهم يلتفت إليه قلبه ، فهو مقيد به ، محجوب عن الله عز وجل

وإنما يرتفع حجاب الجاه بالبعد عن موضع الجاه ، بالتواضع وإيثار الخمول ، والهرب من أسباب الذكر ، وتعاطى أعمال تنفر قلوب الخلق عنه

وإنما يرتفع حجاب التقليد بأن يترك التعصب للمذاهب ، وأن يصدق بمعنى قوله لاإله إلا الله ، محمد رسول الله ، تصديق إيمان ، ويحرص فى تحقيق صدقه بأن يرفع كل معبود له سوى الله تعالى . وأعظم معبود له الهوى ، حتى إذا فعل ذلك ، انكشف له حقيقة الأمر فى معنى اعتقاده الذى تلقفه تقليدا . فينبغى أن يطلب كشف ذلك من المجاهدة ، لامن المجادلة . فإن غلب عليه التعصب لمعتقده ، ولم يبق فى نفسه متسع لغيره ، صار ذلك قيدا له وحجابا . إذ ليس من شرط المريد الانتماء إلى مذهب معين أصلا

وأما المعصية فهى حجاب ، ولا يرفعها إلا التوبة والخروج من المظالم ، وتصميم العزم على ترك العود ، وتحقيق الندم على مامضى ، ورد المظالم ، وإرضاء الخصوم . فإن من لم يصحح التوبة ، ولم يهجر المعاصى الظاهرة ، وأراد أن يقف على أسرار الدين بالمكاشفة كان كمن يريد أن يقف على أسرار القرءان وتفسيره ، وهو بعد لم يتعلم لغة العرب . فإن ترجمة عربية القرءان لابد من تقديمها أولا ، ثم الترقى منها إلى أسرار معانيه . فكذلك لابد من تصحيح ظاهر الشريعة أولا وآخرا ، ثم الترقى إلى أغوارها وأسرارها

فإذا قدم هذه الشروط الأربعة ، وتجرد عن المال والجاه ، كان كمن تطهر وتوضأ ورفع الحدث ، وصار صالحا للصلاة . فيحتاج إلى إمام يقتدى به . فكذلك المريد ، يحتاج إلى شيخ وأستاذ يقتدى به لامحالة ، ليهديه إلى سواء السبيل . فإن سبيل الدين غامض ،

[1] يس : ٩

وسبل الشيطان كثيرة ظاهرة. فمن لم يكن له شيخ يهديه قاده الشيطان إلى طرقه لامحالة. فمن سلك سبل البوادى المهلكة بغير خفير ، فقد خاطر بنفسه وأهلكها . ويكون المستقل بنفسه كالشجرة التى تنبت بنفسها ، فإنها تجف على القرب . وإن بقيت مدة وأورقت لم تثمر . فمعتصم المريد بعد تقديم الشروط المذكورة شيخه ، فليتمسك به تمسك الأعمى على شاطىء النهر بالقائد ، بحيث يفوض أمره إليه بالكلية ، ولا يخالفه فى ورده ولا صدره ولا يبقى فى متابعته شيئا ولا يذر . وليعلم أن نفعه فى خطأ شيخه لو أخطأ ، أكثر من نفعه فى صواب نفسه لو أصاب

فإذا وجد مثل هذا المعتصم ، وجب على معتصمه أن يحميه ويعصمه بحصن حصين ، يدفع عنه قواطع الطريق ، وهو أربعة أمور . الخلوة ، والصمت ، والجوع ، والسهر . وهذا تحصن من القواطع . فإن مقصود المريد إصلاح قلبه ، ليشاهد به ربه ، ويصلح لقربه

أما الجوع ، فإنه ينقص دم القلب ويبيضه ، وفى بياضه نوره . ويذيب شحم الفؤاد ، وفى ذوبانه رقته ، ورقته مفتاح المكاشفة ، كما أن قساوته سبب الحجاب . ومهما نقص دم القلب ، ضاق مسلك العدو فإن مجاريه العروق الممتلئة بالشهوات . وقال عيسى عليه السلام يامعشر الحواريين جوعوا بطونكم ، لعل قلوبكم ترى ربكم وقال سهل بن عبد الله التسترى ماصار الأبدال أبدالا إلا بأربع خصال . بإخماص البطون ، والسهر ، والصمت ، والاعتزال عن الناس

ففائدة الجوع فى تنوير القلب أمر ظاهر ، يشهد له التجربة . وسيأتى بيان وجه التدريج فيه فى كتاب كسر الشهوتين

وأما السهر ، فإنه يجلو القلب ، ويصفيه وينوره ، فيضاف ذلك إلى الصفاء الذى حصل من الجوع ، فيصير القلب كالكوكب الدرى ، والمرآة المجلوة ، فيلوح فيه جمال الحق ، ويشاهد فيه رفيع الدرجات فى الآخرة ، وحقارة الدنيا وآفاتها . فتتم بذلك رغبته عن الدنيا وإقباله على الآخرة .

والسهر أيضا نتيجة الجوع ، فإن السهر مع الشبع غير ممكن. والنوم يقسى القلب ويميته

الا إذا كان بقدر الضرورة ، فيكون سبب المكاشفة لأسرار الغيب . فقد قيل فى صفة الأبدال ، إن أكلهم فاقة ، ونومهم غلبة ، وكلامهم ضرورة . وقال ابراهيم الخواص رحمه الله، أجمع رأى سبعين صديقا على أن كثرة النوم من كثرة شرب الماء

وأما الصمت ، فإنه تسهله العزلة ، ولكن المعتزل لا يخلو عن مشاهدة من يقوم له بطعامه وشرابه وتدبير أمره ، فينبغى أن لا يتكلم إلا بقدر الضرورة . فإن الكلام يشغل القلب ، وشره القلوب إلى الكلام عظيم ، فإنه يستروح إليه ، ويستثقل التجرد للذكر والفكر ، فيستريح إليه . فالصمت يلقح العقل ، ويجلب الورع ، ويعلم التقوى

وأما الخلوة ، ففائدتها دفع الشواغل ، وضبط السمع والبصر ، فإنهما دهليز القلب ، والقلب فى حكم حوض تنصب إليه مياه كريهة كدرة قذرة ، من أنهار الحواس . ومقصود الرياضة تفريغ الحوض من تلك المياه ، ومن الطين الحاصل منها ، ليتفجر أصل الحوض ، فيخرج منه الماء النظيف الطاهر . وكيف يصح له أن ينزح الماء من الحوض ، والأنهار مفتوحة إليه ، فيتجدد فى كل حال أكثر مما ينقص . فلابد من ضبط الحواس إلا عن قدر الضرورة ، وليس يتم ذلك إلا بالخلوة فى بيت مظلم . وإن لم يكن له مكان مظلم ، فليلف رأسه فى جيبه ، أو يتدثر بكساء أو إزار ، ففى مثل هذه الحالة يسمع نداء الحق ، ويشاهد جلال الحضرة الربوبية . أما ترى أن نداء رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغه وهو على مثل هذه الصفة ، (١) فقيل له (يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١)) (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (٢))

فهذه الأربعة جنة وحصن ، بها تدفع عنه القواطع ، وتمنع العوارض القاطعة للطريق

فإذا فعل ذلك ، اشتغل بعده بسلوك الطريق . وإنما سلوكه بقطع العقبات ، ولا عقبة على طريق الله تعالى إلا صفات القلب ، التى سببها الالتفات إلى الدنيا . وبعض تلك العقبات أعظم من بعض . والترتيب فى قطعها ، أن يشتغل بالأسهل فالأسهل ، وهى تلك الصفات

---

(١) حديث بدء رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مدثر فقيل له يا أيها المزمل يا أيها المدثر : متفق عليه من حديث جابر جاورت بحراء فلما قضيت جوارى هبطت فنوديت فنظرت عن يمينى ـ الحديث : وفيه فأتيت خديجة فقلت دثرونى وصبوا على الماء باردا فدثرونى وصبوا على ماء باردا قال فنزلت يا أيها المدثر وفى رواية فقلت زملونى زملونى ولهما من حديث عائشة فقال زملونى زملونى فزملوه حتى ذهب عنه الروع

(١) المزمل : ١ (٢) المدثر : ١

أعنى أسرار العلائق ، التى قطعها فى أول الإرادة وآثارها ، أعنى المال ، والجاه ، وحب الدنيا والالتفات إلى الخلق ، والتشوف إلى المعاصى . فلا بد أن يخلى الباطن عن آثارها ، كما أخلى الظاهر عن أسبابها الظاهرة . وفيه تطول المجاهدة . ويختلف ذلك باختلاف الأحوال . فرب شخص قد كفى أكثر الصفات ،فلا تطول عليه المجاهدة . وقد ذكرنا أن طريق المجاهدة مضادة الشهوات ، ومخالفة الهوى ، فى كل صفة غالبة على نفس المريد كما سبق ذكره

فإذا كفى ذلك ، أو ضعف بالمجاهدة ، ولم يبق فى قلبه علاقة ، شغله بعد ذلك بذكر يلزم قلبه على الدوام ويمنعه من تكثير الأوراد الظاهرة ، بل يقتصر على الفرائض والرواتب ويكون ورده وردا واحدا ، وهو لباب الأوراد وثمرتها ،أعنى ملازمة القلب لذكر الله تعالى بعد الخلو من ذكر غيره . ولا يشغله به مادام قلبه ملتفتا إلى علائقه . قال الشبلى للحصرى إن كان يخطر بقلبك من الجمعة التى تأتينى فيها ، إلى الجمعة الأخرى ، شىء غير الله تعالى فحرام عليك أن تأتينى

وهذا التجرد لا يحصل إلا مع صدق الإرادة ، واستيلاء حب الله تعالى على القلب ، حتى يكون فى صورة العاشق المستهتر ، الذى ليس له إلا هم واحد . فإذا كان كذلك ،ألزمه الشيخ زاوية ينفرد بها ، ويوكل به من يقوم له بقدر يسير من القوت الحلال . فإن أصل طريق الدين القوت الحلال . وعند ذلك يلقنه ذكرا من الأذكار ، حتى يشغل به لسانه وقلبه فيجلس ويقول مثلا ، الله الله ، أو سبحان الله سبحان الله ، أو مايراه الشيخ من الكلمات فلا يزال يواظب عليه ، حتى تسقط حركة اللسان ، وتكون الكلمة كأنها جارية على اللسان من غير تحريك . ثم لا يزال يواظب عليه ،حتى يسقط الأثر عن اللسان ، وتبقى صورة اللفظ فى القلب . ثم لا يزال كذلك ، حتى يمحى عن القلب حروف اللفظ وصورته ،وتبقى حقيقة معناه لازمة للقلب ، حاضرة معه ، غالبة عليه ، قد فرغ عن كل ماسواه . لأن القلب إذا شغل بشىء ، خلا عن غيره أى شىء كان . فإذا اشتغل بذكر الله تعالى ، وهو المقصود ، خلا لا محالة عن غيره

وعند ذلك يلزمه أن يراقب وساوس القلب ، والخواطر التى تتعلق بالدنيا ، ومايتذكر فيه مما قد مضى من أحواله وأحوال غيره . فإنه مهما اشتغل بشىء منه ولو فى لحظة ،

خلا قلبه عن الذكر فى تلك اللحظة . وكان أيضا نقصانا . فليجتهد فى دفع ذلك

ومهما دفع الوساوس كلها ورد النفس إلى هـذه الكلمة ، جاءته الوساوس من هـذه الكلمة . وأنها ماهى ، وما معنى قولنا الله ، ولأى معنى كان إلها وكان معبودا . ويعتريه عند ذلك خواطر تفتح عليه باب الفكر . وربما يرد عليه من وساوس الشيطان ماهو كفر وبدعة . ومهما كان كارها لذلك ، ومتشمرا لإماطته عن القلب ، لم يضره ذلك. وهي منقسمة إلى مايعلم قطعا أن الله تعالى منزه عنه ، ولكن الشيطان يلقى ذلك فى قلبه ، ويجريه على خاطره ، فشرطه أن لايبالى به ، ويفزع إلى ذكر الله تعالى ، ويبتهل إليه ليدفعه عنه ، كما قال تعالى: (وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ [1]) وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ [2]) وإلى مايشك فيه ، فينبغى أن يعرض ذلك على شيخه . بل كل مايجد فى قلبه من الأحوال ، من فترة أو نشاط ، أو التفات إلى علقة ، أو صدق فى إرادة ، فينبغى أن يظهر ذلك لشيخه ، وأن يستره عن غيره ، فلا يطلع عليه أحدا

ثم إن شيخه ينظر فى حاله ، ويتأمل فى ذكائه وكياسته ، فلو علم أنه لو تركه وأمره بالفكر تنبه من نفسه على حقيقة الحق ، فينبغى أن يحيله على الفكر ، ويأمره بملازمته ، حتى يقذف فى قلبه من النور مايكشف له حقيقته . وإن علم أن ذلك مما لايقوى عليه مثله ، رده إلى الاعتقاد القاطع ، بما يحتمله قلبه من وعظ وذكر ودليل قريب من فهمه . وينبغى أن يتأنق الشيخ ويتلطف به ، فإن هـذه مهالك الطريق ومواضع أخطارها . فكم من مريد اشتغل بالرياضة ، فغلب عليه خيال فاسد لم يقو على كشفه . فانقطع عليه طريقه ، فاشتغل بالبطالة ، وسلك طريق الإباحة ، وذلك هو الهلاك العظيم . ومن تجرد للذكر ، ودفع العلائق الشاغلة عن قلبه ، لم يخل عن أمثال هذه الأفكار . فإنه قد ركب سفينة الخطر . فإن سلم كان من ملوك الدين ، وإن أخطأ كان من الهالكين . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم

---

(١) الاعراف : ٢٠٠ (٢) الاعراف : ٢٠١

[(١)] «عَلَيْكُمْ بِدِينِ الْعَجَائِزِ» وهو تلقى أصل الإيمان وظاهر الاعتقاد بطريق التقليد، والاشتغال بأعمال الخير. فإن الخطر فى العدول عن ذلك كثير. ولذلك قيل يجب على الشيخ أن يتفرس فى المريد فإن لم يكن ذكيا فطنا، متمكنا من اعتقاد الظاهر، لم يشغله بالذكر والفكر، بل يرده إلى الأعمال الظاهرة، والأوراد المتواترة. أو يشغله بخدمة المتجردين للفكر، لتشمله بركتهم. فإن العاجز عن الجهاد فى صف القتال ينبغى أن يسقى القوم، ويتعهد دوابهم، ليحشر يوم القيامة فى زمرتهم وتعمه بركتهم، وإن كان لا يبلغ درجتهم

ثم المريد المتجرد للذكر والفكر، قد يقطعه قواطع كثيرة، من العجب والرياء والفرح بما ينكشف له من الأحوال، وما يبدو من أوائل الكرامات. ومهما التفت إلى شىء من ذلك، وشغلت به نفسه، كان ذلك فتورا فى طريقه ووقوفا. بل ينبغى أن يلازم حاله جملة عمره، ملازمة العطشان الذى لا ترويه البحار ولو أفيضت عليه. ويدوم على ذلك، ورأس ماله الانقطاع عن الخلق إلى الحق والخلوة. قال بعض السياحين، قلت لبعض الأبدال المنقطعين عن الخلق، كيف الطريق إلى التحقيق؟ فقال أن تكون فى الدنيا كأنك عابر طريق. وقال مرة، قلت له دلنى على عمل أجد قلبى فيه مع الله تعالى على الدوام. فقال لى لا تنظر إلى الخلق، فإن النظر إليهم ظلمة. قلت لابد لى من ذلك، قال فلا تسمع كلامهم فإن كلامهم قسوة. قلت لابد لى من ذلك. قال فلا تعاملهم، فإن معاملتهم وحشة، قلت أنا بين أظهرهم لابد لى من معاملتهم. قال فلا تسكن إليهم، فإن السكون إليهم هلكة. قلت هذا لعلة. قال ياهذا، أتنظر إلى الغافلين، وتسمع كلام الجاهلين، وتعامل البطالين وتريد أن تجد قلبك مع الله تعالى على الدوام! هذا مالا يكون أبدا

فإذاً: منتهى الرياضة أن يجد قلبه مع الله تعالى على الدوام. ولا يمكن ذلك إلا بأن يخلو عن غيره. ولا يخلو عن غيره إلا بطول المجاهدة. فإذا حصل قلبه مع الله تعالى، انكشف

---

(١) حديث عليكم بدين العجائز: قال ابن طاهر فى كتاب التذكرة هذا اللفظ تداوله العامة ولم أقف له على أصل يرجع إليه من رواية صحيحة ولا سقيمة حتى رأيت حديث محمد بن عبد الرحمن بن السلمانى عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم إذا كان فى آخر الزمان واختلفت الأهواء فعليكم بدين أهل البادية والنساء وابن السلمانى له عن أبيه عن ابن عمر نسخة كان يتهم بوضعها انتهى وهذا اللفظ من هذا الوجه رواه حب فى الضعفاء فى ترجمة بن السلمانى والله أعلم

له جلال الحضرة الربوبية ، ويجلى له الحق ، وظهر له من لطائف الله تعالى ما لا يجوز أن يوصف ، بل لا يحيط به الوصف أصلا . وإذا انكشف للمريد شيء من ذلك ؟ فأعظم القواطع عليه أن يتكلم به وعظا ونصحا ، ويتصدى للتذكير ، فتجد النفس فيه لذة ليس وراءها لذة فتدعوه تلك اللذة إلى أن يتفكر في كيفية إيراد تلك المعاني ، وتحسين الألفاظ المعبرة عنها ، وترتيب ذكرها ، وتزيينها بالحكايات وشواهد القرءان والأخبار ، وتحسين صنعة الكلام ، لتميل إليه القلوب والأسماع . فربما يخيل إليه الشيطان أن هذا إحياء منك لقلوب الموتى الغافلين عن الله تعالى ، وإنما أنت واسطة بين الله تعالى وبين الخلق ، تدعو عباده إليه ، ومالك فيه نصيب ، ولا لنفسك فيه لذة . ويتضح كيد الشيطان بأن يظهر في أقرانه من يكون أحسن كلاما منه ، وأجزل لفظا ، وأقدر على استجلاب قلوب العوام . فإنه يتحرك في باطنه عقرب الحسد لا محالة ، إن كان محركه كيد القبول . وإن كان محركه هو الحق حرصا على دعوة عباد الله تعالى إلى صراطه المستقيم ، فيعظم به فرحه ، ويقول الحمد لله الذي عضدني وأيدني بمن وازرني على إصلاح عباده . كالذي وجب عليه مثلا أن يحمل ميتا ليدفنه إذ وجده ضائعا ، وتعين عليه ذلك شرعا . فجاء من أعانه عليه ، فإنه يفرح به ، ولا يحسد من يعينه . والغافلون موتى القلوب ، والوعاظ هم المنبهون والمحيون لهم ، ففي كثرتهم استرواح وتناصر ، فينبغي أن يعظم الفرح بذلك ، وهذا عزيز الوجود جدا . فينبغي أن يكون المريد على حذر منه ، فإنه أعظم حبائل الشيطان في قطع الطريق على من انفتحت له أوائل الطريق . فإن إيثار الحياة الدنيا طبع غالب على الإنسان ، ولذلك قال الله تعالى (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا[1]) ثم بين أن الشر قديم في الطباع ، وأن ذلك مذكور في الكتب السالفة فقال (إِنَّ هَـٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ[2])

فهذا منهاج رياضة المريد وتربيته في التدريج إلى لقاء الله تعالى

فأما تفصيل الرياضة في كل صفة ، فسيأتي . فإن أغلب الصفات على الإنسان بطنه وفرجه ولسانه ، وأعني به الشهوات المتعلقة بها ثم الغضب الذي هو كالجند لحماية الشهوات . ثم مهما أحب الإنسان شهوة البطن والفرج . وأنس بهما ، أحب الدنيا ، ولم يتمكن منها إلا بالمال

(١) الأعلى : ١٦ (٢) الأعلى : ١٨

والجاه . وإذا طلب المال والجاه، حدث فيه الكبر والعجب والرياسة . وإذا ظهر ذلك ، لم تسمح نفسه بترك الدنيا رأسا ، وتمسك من الدين بما فيه الرياسة ، وغلب عليه الغرور

فلهذا وجب علينا بعد تقديم هذين الكتابين ، أن نستكمل ربع المهلكات بثمانية كتب إن شاء الله تعالى . كتاب فى كسر شهوة البطن والفرج ، وكتاب فى آفات اللسان وكتاب فى كسر الغضب والحقد والحسد ، وكتاب فى ذم الدنيا وتفصيل خدعها ، وكتاب فى كسر حب المال وذم البخل ، وكتاب فى ذم الرياء وحب الجاه ، وكتاب فى ذم الكبر والعجب . وكتاب فى مواقع الغرور . وبذكر هذه المهلكات ، وتعليم طرق المعالجة فيها ، يتم غرضنا من ربع المهلكات إن شاء الله تعالى ،فإن ماذكرناه فى الكتاب الأول هو شرح لصفات القلب ، الذى هو معدن المهلكات والمنجيات . وماذكرناه فى الكتاب الثانى ، هو إشارة كلية إلى طريق تهذيب الأخلاق ، ومعالجة أمراض القلوب. أما تفصيلها فإنه يأتى فى هذه الكتب إن شاء الله تعالى

تم كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق ، بحمد الله وعونه وحسن توفيقه

يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب كسر الشهوتين ، والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

كتاب كسر الشهوتين

كتاب كسر الشهوتين

وهو الكتاب الثالث من ربع المهلكات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المنفرد بالجلال فى كبريائه وتعاليه، المستحق للتحميد والتقديس والتسبيح والتنزيل القائم بالعدل فيما يبرمه ويقضيه ، المتطول بالفضل فيما ينعم به ويسديه ، المتكفل بحفظ عبده فى جميع موارده ومجاريه ، المنعم عليه بما يزيد على مهمات مقاصده بل بما يفي بأمانيه فهو الذي يرشده ويهديه ، وهو الذى يميته ويحييه ، وإذا مرض فهو يشفيه ، وإذا ضعف فهو يقويه ، وهو الذى يوفقه للطاعة ويرتضيه ، وهو الذى يطعمه ويسقيه ، ويحفظه من الهلاك ويحميه ، ويحرسه بالطعام والشراب عما يهلكه ويرديه ، ويمكنه من القناعة بقليل القوت ويقربه حتى تضيق به مجارى الشيطان الذى يناويه ، ويكسر به شهوة النفس التى تعاديه ، فيدفع شرها ثم يعبد ربه ويتقيه ، هذا بعد أن يوسع عليه ما يلتذ به ويشتهيه ، ويكثر عليه ما يهيج بواعثه ويؤكد دواعيه ، كل ذلك يمتحنه به ويبتليه ، فينظر كيف يؤثره على ما يهواه وينتحيه ، وكيف يحفظ أوامره وينتهى عن نواهيه ، ويواظب على طاعته وينزجر عن معاصيه . والصلاة على محمد عبده النبيه ، ورسوله الوجيه ، صلاة تزلفه وتحظيه وترفع منزلته وتعليه ، وعلى الأبرار من عترته وأقربيه ، والأخيار من صحابته وتابعيه

أما بعد : فأعظم المهلكات لابن آدم شهوة البطن ، فبها أخرج آدم عليه السلام وحواء من دار القرار ، إلى دار الذل والافتقار إذ نهيا عن الشجرة، فغلبتهما شهواتهما حتى أكلا منها فبدت لهما سوآتهما . والبطن على التحقيق ينبوع الشهوات ، ومنبت الأدواء والآفات إذ يتبعها شهوة الفرج ، وشدة الشبق إلى المنكوحات . ثم تتبع شهوة الطعام والنكاح شدة الرغبة فى الجاه والمال ، اللذين هما وسيلة إلى التوسع فى المنكوحات والمطعومات . ثم يتبع استكثار المال والجاه أنواع الرعونات ، وضروب المنافسات والمحاسدات . ثم يتولد بينهما

آفة الرياء ، وغائلة التفاخر والتكاثر والكبرياء . ثم يتداعى ذلك إلى الحقد والحسد والعداوة والبغضاء . ثم يفضى ذلك بصاحبه إلى اقتحام البغي والمنكر والفحشاء . وكل ذلك ثمرة إهمال المعدة ، وما يتولد منها من بطر الشبع والامتلاء . ولو ذلل العبد نفسه بالجوع ، وضيق مجارى الشيطان ، لأذعنت لطاعة الله عز وجل ، ولم تسلك سبيل البطر والطغيان ، ولم ينجر به ذلك إلى الانهماك فى الدنيا ، وإيثار العاجلة على العقبى ، ولم يتكالب كل هذا التكالب على الدنيا

وإذا عظمت آفة شهوة البطن إلى هذا الحد ، وجب شرح غوائلها وآفاتها ، تحذيراً منها ، ووجب إيضاح طريق المجاهدة لها ، والتنبيه على فضلها ، ترغيبا فيها . وكذلك شرح شهوة الفرج ، فإنها تابعة لها

ونحن نوضح ذلك بعون الله تعالى فى فصول يجمعها بيان فضيلة الجوع ، ثم فوائده ، ثم طريق الرياضة فى كسر شهوة البطن ، بالتقليل من الطعام والتأخير ، ثم بيان اختلاف حكم الجوع وفضيلته ، باختلاف أحوال الناس ، ثم بيان الرياضة فى ترك الشهوة ، ثم القول فى شهوة الفرج ، ثم بيان ما على المريد فى ترك التزويج وفعله ، ثم بيان فضيلة من يخالف شهوة البطن والفرج والعين

بيان

فضيلة الجوع وذم الشبع

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « جَاهِدُوا أَنْفُسَكُمْ بِالْجُوعِ وَالْعَطَشِ فَإِنَّ الْأَجْرَ فِي ذَلِكَ كَأَجْرِ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ وَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ عَمَلٍ أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ جُوعٍ وَعَطَشٍ » وقال ابن عباس ، قال النبى صلى الله عليه وسلم [2] « لَا يَدْخُلُ مَلَكُوتَ

﴿ كتاب كسر الشهوتين ﴾

(١) حديث جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش : لم أجد له أصلا

(٢) حديث ابن عباس لايدخل ملكوت السموات من ملأ بطنه : لم أجده أيضا

السَّماءِ مَنْ مَلأَ بَطْنَهُ » وقيل يارسول الله ، (١) أى الناس أفضل ؟قال « مَنْ قَلَّ مَطْعَمُهُ وَضَحِكُهُ وَرَضِيَ بِمَا يَسْتُرُ بِهِ عَوْرَتَهُ » وقال النبي صلى الله عليه وسلم (٢) « سَيِّدُ الْأَعْمَالِ الْجُوعُ وَذُلُّ النَّفْسِ لِبَاسُ الصُّوفِ » وقال أبو سعيد الخدرى ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) « الْبَسُوا وَكُلُوا وَاشْرَبُوا فِي أَنْصَافِ الْبُطُونِ فَإِنَّهُ جُزْءٌ مِنَ النُّبُوَّةِ »

وقال الحسن ، قال النبي صلى الله عليه وسلم (٤) « الْفِكْرُ نِصْفُ الْعِبَادَةِ وَقِلَّةُ الطَّعَامِ هِيَ الْعِبَادَةُ » وقال الحسن أيضا ، (٥) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَفْضَلُكُمْ عِنْدَ اللهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَطْوَلُكُمْ جُوعاً وَتَفَكُّراً فِي اللهِ سُبْحَانَهُ وَأَبْغَضُكُمْ عِنْدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كُلُّ نَؤُومٍ أَكُولٍ شَرُوبٍ »

وفى الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم (٦) كان يجوع من غير عوز ، أى مختارا لذلك وقال صلى الله عليه وسلم (٧) « إِنَّ اللهَ تَعَالَى يُبَاهِي الْمَلَائِكَةَ بِمَنْ قَلَّ مَطْعَمُهُ وَمَشْرَبُهُ فِي الدُّنْيَا يَقُولُ اللهُ تَعَالَى انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي ابْتَلَيْتُهُ بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ فِي الدُّنْيَا فَصَبَرَ وَتَرَكَهُمَا اشْهَدُوا يَامَلَائِكَتِي مَامِنْ أُكْلَةٍ يَدَعُهَا إِلَّا أَبْدَلْتُهُ بِهَا دَرَجَاتٍ فِي الْجَنَّةِ » وقال صلى الله عليه وسلم (٨) « لَا تُمِيتُوا الْقُلُوبَ بِكَثْرَةِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ فَإِنَّ الْقَلْبَ كَالزَّرْعِ يَمُوتُ إِذَا كَثُرَ عَلَيْهِ الْمَاءُ » وقال صلى الله عليه وسلم (٩) « مَامَلَأَ ابْنُ آدَمَ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنِهِ حَسْبُ

---

(١) حديث أى الناس أفضل قال من قل طعمه وضحكه ورضى بما يستر عورته : يأتى الكلام عليه وعلى ما بعده من الأحاديث

(٢) حديث سيد الأعمال الجوع وذل النفس لباس الصوف

(٣) حديث أبى سعيد الخدرى البسوا واشربوا وكلوا فى أنصاف البطون

(٤) حديث الفكر نصف العبادة وقلة الطعام هى العبادة

(٥) حديث الحسن أفضلكم عند الله أطولكم جوعا وتفكرا ـ الحديث : لم أجد لهذه الأحاديث المتقدمة أصلا

(٦) حديث كان يجوع من غير عوز أى مختارا لذلك : البيهقى فى شعب الايمان من حديث عائشة قالت لوشئنا أن نشبع لشبعنا ولكن محمدا صلى الله عليه وسلم كان يؤثر على نفسه وأسناده معضل

(٧) حديث إن الله يباهى الملائكة بمن قل طعمه فى الدنيا ـ الحديث : ابن عدى فى الكامل وقد تقدم فى الصيام

(٨) حديث لاتميتوا القلب بكثرة الطعام والشراب ـ الحديث : لم أقف له على أصل

(٩) حديث ماملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه ـ الحديث : ت من حديث المقدام وقد تقدم ،

ابْنِ آدَمَ لُقَيْمَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ وَإِنْ كَانَ لاَبُدَّ فَاعِلاً فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ »

وفى حديث أسامة بن زيد ، وحديث أبى هريرة [١] الطويل ، ذكر فضيلة الجوع إذ قال فيه « إِنَّ أَقْرَبَ النَّاسِ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ طَالَ جُوعُهُ وَعَطَشُهُ وَحُزْنُهُ فِى الدُّنْيَا الْأَخْفِيَاءِ الْأَتْقِيَاءِ الَّذِينَ إِنْ شَهِدُوا لَمْ يُعْرَفُوا وَإِنْ غَابُوا لَمْ يُفْتَقَدُوا تَعْرِفُهُمْ بِقَاعُ الْأَرْضِ وَتَحُفُّ بِهِمْ مَلاَئِكَةُ السَّمَاءِ نَعِمَ النَّاسُ بِالدُّنْيَا وَنَعِمُوا بِطَاعَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ افْتَرَشَ النَّاسُ الْفُرُشَ الْوَثِيرَةَ وَافْتَرَشُوا الْجِبَاهَ وَالرُّكَبَ ضَيَّعَ النَّاسُ فِعْلَ النَّبِيِّينَ وَأَخْلاَقَهُمْ وَحَفِظُوهَا هُمْ تَبْكِى الْأَرْضُ إِذَا فَقَدَتْهُمْ وَيَسْخَطُ الْجَبَّارُ عَلَى كُلِّ بَلْدَةٍ لَيْسَ فِيهَا مِنْهُمْ أَحَدٌ . لَمْ يَتَكَالَبُوا عَلَى الدُّنْيَا تَكَالُبَ الْكِلاَبِ عَلَى الْجِيَفِ أَكَلُوا الْعُلَقَ وَلَبِسُوا الْخِرَقَ شُعْثًا غُبْرًا يَرَاهُمُ النَّاسُ فَيَظُنُّونَ أَنَّ بِهِمْ دَاءً وَمَا بِهِمْ دَاءٌ وَيُقَالُ قَدْ خُولِطُوا فَذَهَبَتْ عُقُولُهُمْ وَمَا ذَهَبَتْ عُقُولُهُمْ وَلَكِنْ نَظَرَ الْقَوْمُ بِقُلُوبِهِمْ إِلَى أَمْرِ اللهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنْهُمُ الدُّنْيَا فَهُمْ عِنْدَ أَهْلِ الدُّنْيَا يَمْشُونَ بِلاَ عُقُولٍ عَقَلُوا حِينَ ذَهَبَتْ عُقُولُ النَّاسِ لَهُمُ الشَّرَفُ فِى الآخِرَةِ يَا أُسَامَةُ إِذَا رَأَيْتَهُمْ فِى بَلْدَةٍ فَاعْلَمْ أَنَّهُمْ أَمَانٌ لِأَهْلِ تِلْكَ الْبَلْدَةِ وَلاَ يُعَذِّبُ اللهُ قَوْماً هُمْ فِيهِمْ الْأَرْضُ بِهِمْ فَرِحَةٌ وَالْجَبَّارُ عَنْهُمْ رَاضٍ اتَّخِذْهُمْ لِنَفْسِكَ إِخْوَاناً عَسَى أَنْ تَنْجُوَ بِهِمْ وَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَأْتِيَكَ الْمَوْتُ وَبَطْنُكَ جَائِعٌ وَكَبِدُكَ ظَمْآنُ فَافْعَلْ فَإِنَّكَ تُدْرِكُ بِذَلِكَ شَرَفَ الْمَنَازِلِ وَتَحُلُّ مَعَ النَّبِيِّينَ وَتَفْرَحُ بِقُدُومِ رُوحِكَ الْمَلاَئِكَةُ وَيُصَلِّى عَلَيْكَ الْجَبَّارُ »

روى الحسن عن أبى هريرة ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال [٢] « الْبَسُوا الصُّوفَ وَشَمِّرُوا وَكُلُوا فِى أَنْصَافِ الْبُطُونِ تَدْخُلُوا فِى مَلَكُوتِ السَّمَاءِ » وقال عيسى عليه السلام يامعشر الحواريين ، أجيعوا أكبادكم ، وأعروا أجسادكم ، لعل قلوبكم ترى الله عز وجل .

---

(١) حديث أسامة بن زيد وأبى هريرة أقرب الناس من الله يوم القيامة من طال جوعه وعطشه ـ الحديث بطوله الخطيب فى الزهد من حديث سعيد بن زيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبل على أسامة بن زيد فذكره مع تقديم وتأخير ومن طريقه : رواه ابن الجوزى فى الموضوعات وفيه حباب بن عبد الله بن جبلة أحد الكذابين وفيه من لا يعرف وهو منقطع أيضا ورواه الحارث بن أبى أسامة من هذا الوجه

(٢) حديث الحسن عن أبى هريرة البسوا الصوف وشمروا وكلوا فى أنصف البطون تدخلوا فى ملكوت السماء : أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس بسند ضعيف

وروي ذلك أيضا عن نبينا صلى الله عليه وسلم ، رواه طاوس

(١) وقيل مكتوب فى التوراة ، إن الله ليبغض الحبر السمين ، لأن السمن يدل على الغفلة وكثرة الأكل ، وذلك قبيح . خصوصا بالحبر . ولأجل ذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه إن الله تعالى يبغض القارئ السمين . وفى خبر مرسل ، (٢) « إنَّ الشَّيْطَانَ لَيَجْرِى مِنَ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ فَضَيِّقُوا مَجَارِيَهُ بِالْجُوعِ وَالْعَطَشِ » وفى الخبر (٣) « إنَّ الأَكْلَ عَلَى الشِّبَعِ يُورِثُ الْبَرَصَ » وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « الْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِى مِعًى وَاحِدٍ وَالْمُنَافِقُ يَأْكُلُ فِى سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ » أى يأكل سبعة أضعاف ما يأكل المؤمن ، أو تكون شهوته سبعة أضعاف شهوته . وذكر المعى كناية عن الشهوة ، لأن الشهوة هى التى تقبل الطعام وتأخذه كما يأخذه المعى . وليس المعنى زيادة عدد معى المنافق على معى المؤمن

وروى الحسن عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت ، (٥) سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أَدِيمُوا قَرْعَ بَابِ الْجَنَّةِ يُفْتَحْ لَكُمْ » فقلت كيف نديم قرع باب الجنة؟ قال « بِالْجُوعِ وَالظَّمَأِ » . وروي (٦) أن أبا جحيفة تجشأ فى مجلس رسول صلى الله عليه وسلم فقال له « أَقْصِرْ مِنْ جُشَائِكَ فَإِنَّ أَطْوَلَ النَّاسِ جُوعاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ شِبَعاً فِى الدُّنْيَا » وكانت عائشة رضي الله عنها ، تقول (٧) إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمتلئ قط شبعا وربما بكيت رحمة مما أرى به من الجوع ، فأمسح بطنه بيدى ، وأقول نفسى لك الفداء

---

(١) حديث طاوس مرسلا أجيعوا أكبادكم ـ الحديث : لم أجده أيضا

(٢) حديث ان الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم ـ الحديث : تقدم فى الصيام دون الزيادة التى فى آخره وذكر المصنف هنا انه مرسل والمرسل رواه ابن أبى الدنيا فى مكايد الشيطان من حديث على بن الحسين دون الزيادة أيضا

(٣) حديث ان الأكل على الشبع يورث البرص : لم أجد له أصلا

(٤) حديث المؤمن يأكل فى معى واحد والكافر يأكل فى سبعة أمعاء : متفق عليه من حديث عمر وحديث أبى هريرة

(٥) حديث الحسن عن عائشة أديموا قرع باب الجنة ـ الحديث : لم أجده أيضا

(٦) حديث ان جحيفة تجشأ فى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أقصر من جشائك فان أطول الناس جوعا يوم القيامة أكثرهم شبعا فى الدنيا : البيهقى فى الشعب من حديث أبى جحيفة وأصله عند ت وحسنه و ه من حديث ابن عمر تجشأ رجل ـ الحديث : لم يذكر أبا جحيفة

(٧) حديث عائشة انه صلى الله عليه وسلم لم يمتلئ شبعا قط وربما بكيت رحمة له مما أرى به من الجوع ـ الحديث : لم أجده أيضا

لو تبلغت من الدنيا بقدر مايقويك ويمنعك من الجوع ؟ فيقول « يَاعَائِشَةُ إِخْوَانِي مِنْ أُولِي الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ قَدْ صَبَرُوا عَلَى مَاهُوَ أَشَدُّ مِنْ هذَا فَمَضَوْا عَلَى حَالِهِمْ فَقَدِمُوا عَلَى رَبِّهِمْ فَأَكْرَمَ مَآبَهُمْ وَأَجْزَلَ ثَوَابَهُمْ فَأَجِدُنِي أَسْتَحِي إِنْ تَرَفَّهْتُ فِي مَعِيشَتِي أَنْ يَقْصُرَ بِي غَدًا دُونَهُمْ فَالصَّبْرُ أَيَّامًا يَسِيرَةً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَنْقُصَ حَظِّي غَدًا فِي الْآخِرَةِ وَمَامِنْ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ اللُّحُوقِ بِأَصْحَابِي وَإِخْوَانِي » قالت عائشة، فوالله مااستكمل بعد ذلك جمعة ، حتى قبضه الله إليه .

وعن أنس قال ، [1] جاءت فاطمة رضوان الله عليها بكسرة خبز إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال « مَاهَذِهِ الْكِسْرَةُ ؟ » قالت قرص خبزته ، ولم تطب نفسى حتى أتيتك منه بهذه الكسرة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَمَا إِنَّهُ أَوَّلُ طَعَامٍ دَخَلَ فَمَ أَبِيكِ مُنْذُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ » وقال أبو هريرة [2] ما أشبع النبي صلى الله عليه وسلم أهله ثلاثة أيام تباعا من خبز الحنطة حتى فارق الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم [3] « إِنَّ أَهْلَ الْجُوعِ فِي الدُّنْيَا هُمْ أَهْلُ الشِّبَعِ فِي الْآخِرَةِ وَإِنَّ أَبْغَضَ النَّاسِ إِلَى اللهِ الْمُتْخَمُونَ الْمَلاَّى وَمَا تَرَكَ عَبْدٌ أَكْلَةً يَشْتَهِيهَا إِلاَّ كَانَتْ لَهُ دَرَجَةً فِي الْجَنَّةِ »

وأما الآثار ، فقد قال عمر رضي الله عنه ، إياكم والبطنة ، فإنها ثقل فى الحياة ، نتن فى الممات . وقال شقيق البلخي ، العبادة حرفة ، حانوتها الخلوة ، وآلتها المجاعة . وقال لقمان لابنه ، يابنى ، إذا امتلأت المعدة ، نامت الفكرة ، وخرست الحكمة ، وقعدت الأعضاء عن العبادة

وكان الفضيل بن عياض يقول لنفسه ، أى شيء تخافين ؟ أتخافين أن تجوعى ؟ لاتخافى ذلك ؟ أنت أهون على الله من ذلك ، إنما يجوع محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

---

(١) حديث أنس جاءت فاطمة بكسرة خبز لرسول الله صلى الله عليه وسلم ـ الحديث : الحارث بن أبي أسامة فى مسنده بسند ضعيف

(٢) حديث أبي هريرة ماشبع النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام تباعا من خبز الحنطة حتى فارق الدنيا أخرجه م وقد تقدم

(٣) حديث إن أهل الجوع فى الدنيا هم أهل الشبع فى الآخرة : طب وأبو نعيم فى الحلية من حديث ابن عباس باسناد ضعيف

وكان كهمس يقول، إلهى أجعتنى وأعريتنى ، وفى ظلم الليالى بلامصباح أجلستنى ، فبأى وسيلة بلغتنى ما بلغتنى ! وكان فتح الموصلى إذا اشتد مرضه وجوعه يقول ، إلهى ابتليتنى بالمرض والجوع ، وكذلك تفعل بأوليائك ، فبأى عمل أؤدى شكر ما أنعمت به على ؟ وقال مالك ابن دينار ، قلت لمحمد بن واسع ، ياأبا عبد الله ، طوبى لمن كانت له غليلة تقوته وتغنيه عن الناس . فقال لى ، ياأبا يحيى ، طوبى لمن أمسى وأصبح جائعا وهو عن الله راض

وكان الفضيل بن عياض يقول ، إلهى أجعتنى وأجعت عيالى ، وتركتنى فى ظلم الليالى بلا مصباح ، وإنما تفعل ذلك بأوليائك ، فبأى منزلة نلت هذا منك ؟ وقال يحيى بن معاذ بجوع الراغبين منبهة ، وجوع التائبين تجربة ، وجوع المجتهدين كرامة ، وجوع الصابرين سياسة ، وجوع الزاهدين حكمة

وفى التوراة ، اتق الله ، وإذا شبعت فاذكر الجياع . وقال أبو سليمان ، لأن أترك لقمة من عشائى ، أحب إلى من قيام ليلة إلى الصبح . وقال أيضا ، الجوع عند الله فى خزائنه ، لا يعطيه إلا من أحبه

وكان سهل بن عبد الله التسترى يطوى نيفا وعشرين يوما لا يأكل . وكان يكفيه لطعامه فى السنة درهم . وكان يعظم الجوع ويبالغ فيه ، حتى قال لايوافى القيامة عمل بر أفضل من ترك فضول الطعام ، إقتداء بالنبى صلى الله عليه وسلم فى أكله . وقال لم ير الأكياس شيئا أنفع من الجوع للدين والدنيا . وقال لا أعلم شيئا أضر على طلاب الآخرة من الأكل . وقال وضعت الحكمة والعلم فى الجوع ووضعت المعصية والجهل فى الشبع . وقال ما عبد الله بشىء أفضل من مخالفة الهوى فى ترك الحلال . وقد جاء فى الحديث [1] ثلث للطعام ، فمن زاد عليه فإنما يأكل من حسناته . وسئل عن الزيادة فقال ، لا يجد الزيادة حتى يكون الترك أحب إليه من الأكل ، ويكون إذا جاع ليلة سأل الله أن يجعلها ليلتين . فإذا كان ذلك وجد الزيادة . وقال : ما صار الأبدال أبدالا إلا بإخماص البطون والسهر والصمت والخلوة . وقال : رأس كل بر نزل من السماء إلى الأرض الجوع . ورأس كل فجور بينهما الشبع . وقال: من جوع نفسه إنقطعت عنه الوساوس . وقال : إقبال الله عز وجل

(١) حديث : ثلث للطعام : تقدم

على العبد بالجوع والسقم والبلاء إلا من شاء الله . وقال : اعلموا أن هذا زمان لا ينال أحد فيه النجاة إلا بذبح نفسه وقتلها بالجوع والسهر والجهد . وقال : ما مر على وجه الأرض أحد شرب من هذا الماء حتى روى فسلم من المعصية وإن شكر الله تعالى فكيف الشبع من الطعام

وسئل حكيم ، بأى قيد أقيد نفسى ؟ قال قيدها بالجوع والعطش ، وذللها بإخمال الذكر وترك العز ، وصغرها بوضعها تحت أرجل أبناء الآخرة ، وأكسرها بترك زي القراء عن ظاهرها ، وانج من آفاتها بدوام سوء الظن بها ، وأصحبها بخلاف هواها. وكان عبد الواحد ابن زيد يقسم بالله تعالى ، أن الله تعالى ماصافى أحدا إلا بالجوع ، ولا مشوا على الماء إلا به ولا طويت لهم الأرض إلا بالجوع ، ولا تولاهم الله تعالى إلا بالجوع

وقال أبو طالب المكى ، مثل البطن مثل المزهر ، وهو العود المجوف ذوالأوتار ، إنما حسن صوته لخفته ورقته ، ولأنه أجوف غير ممتلىء . وكذلك الجوف إذا خلا كان أعذب للتلاوة ، وأدوم للقيام ، وأقل للمنام . وقال أبو بكر بن عبد الله المزنى، ثلاثة يحبهم الله تعالى رجل قليل النوم ، قليل الأكل ، قليل الراحة .

وروى أن عيسى عليه السلام ، مكث يناجى ربه ستين صباحا لم يأكل ، فخطر بباله الخبز ، فانقطع عن المناجاة ، فإذا رغيف موضوع بين يديه . فجلس يبكى على فقد المناجاة وإذا شيخ قد أظله ، فقال له عيسى بارك الله فيك ياولى الله ، ادع الله تعالى لى ، فإنى كنت فى حالة . فخطر ببالى الخبز ، فانقطعت عنى . فقال الشيخ ، اللهم إن كنت تعلم أن الخبز خطر ببالى منذ عرفتك فلا تغفر لى . بل كان إذا حضر لى شىء أكلته من غير فكر وخاطر

وروى أن موسى عليه السلام ، لما قربه الله عز وجل نجيا ، كان قد ترك الأكل أربعين يوما ، ثلاثين ثم عشرا ، على ماورد به القرءان ، لأنه أمسك بغير تبييت يوما ، فزيد عشرة لأجل ذلك

بيان

فوائد الجوع وآفات الشبع

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « جَاهِدُوا أَنْفُسَكُمْ بِالْجُوعِ وَالْعَطَشِ فَإِنَّ الْأَجْرَ فِي ذَلِكَ » ولعلك تقول ، هذا الفضل العظيم للجوع من أين هو ؟ وما سببه ؟ وليس فيه إلا إيلام المعدة ، ومقاساة الأذى . فإن كان كذلك فينبغي أن يعظم الأجر في كل مايتأذى به الإنسان ، من ضربه لنفسه ، وقطعه للحمه ، وتناوله الأشياء المكروهة ، وما يجري مجراه . فاعلم أن هذا يضاهي قول من شرب دواء فانتفع به ، وظن أن منفعته لكراهة الدواء ومرارته ، فأخذ يتناول كل مايكرهه من المذاق ، وهو غلط . بل نفعه في خاصية في الدواء ، وليس لكونه مرا . وإنما يقف على تلك الخاصية الأطباء . فكذلك لا يقف على علة نفع الجوع إلا سماسرة العلماء . ومن جوع نفسه مصدقا لما جاء في الشرع من مدح الجوع ، وانتفع به ، وإن لم يعرف علة المنفعة . كما أن من شرب الدواء انتفع به ، وإن لم يعلم وجه كونه نافعا . ولكنا نشرح لك ذلك إن أردت أن ترتقي من درجة الإيمان إلى درجة العلم قال الله تعالى (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ [١]) فنقول في الجوع عشر فوائد

الفائدة الأولى : صفاء القلب ، وإيقاد القريحة ، وإنفاذ البصيرة . فإن الشبع يورث البلادة ويعمي القلب ، ويكثر البخار في الدماغ ، شبه السكر ، حتى يحتوي على معادن الفكر ، فيثقل القلب بسببه عن الجريان في الأفكار ، وعن سرعة الإدراك . بل الصبي إذا أكثر الأكل بطل حفظه . وفسد ذهنه ، وصار بطيء الفهم والإدراك . وقال أبو سليمان الداراني ، عليك بالجوع ، فإنه مذلة للنفس ، ورقة للقلب ، وهو يورث العلم السماوي

وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « أَحْيُوا قُلُوبَكُمْ بِقِلَّةِ الضَّحِكِ وَقِلَّةِ الشِّبَعِ وَطَهِّرُوهَا بِالْجُوعِ تَصْفُو وَتَرِقُّ » ويقال ، مثل الجوع مثل الرعد ، ومثل القناعة مثل السحاب ، والحكمة

---

(١) حديث جاهدوا أنفسكم : لم يخرجه العراقي

(٢) حديث أحيوا قلوبكم بقلة الضحك وطهروها بالجوع تصفو وترق : لم أجد له أصلا

---

(١) المجادلة : ١١ .

كالمطر . وقال النبي صلى الله عليه وسلم [1] « مَنْ أَجَاعَ بَطْنَهُ عَظُمَتْ فِكْرَتُهُ وَفَطِنَ قَلْبُهُ » وقال ابن عباس ، قال النبي صلى الله عليه وسلم [2] « مَنْ شَبِعَ وَنَامَ قَسَا قَلْبُهُ » ثم قال « لِكُلِّ شَيْءٍ زَكَاةٌ وَزَكَاةُ الْبَدَنِ الْجُوعُ » وقال الشبلي ، ماجعت لله يوما إلا رأيت فى قلبي بابا مفتوحا من الحكمة والعبرة مارأيته قط

وليس يخفى أن غاية المقصود من العبادات الفكر الموصل إلى المعرفة ، والاستبصار بحقائق الحق ، والشبع يمنع منه ، والجوع يفتح بابه . والمعرفة باب من أبواب الجنة. فبالحرى أن تكون ملازمة الجوع قرعا لباب الجنة . ولهذا قال لقمان لابنه ، يابنى، إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة ، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة . وقال أبو زيد البسطامى الجوع سحاب ، فإذا جاع العبد أمطر القلب الحكمة . وقال النبي صلى الله عليه وسلم [3] « نُورُ الْحِكْمَةِ الْجُوعُ وَالتَّبَاعُدُ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ الشِّبَعُ وَالْقُرْبَةُ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ حُبُّ الْمَسَاكِينِ وَالدُّنُوُّ مِنْهُمْ لَا تَشْبَعُوا فَتُطْفِؤُا نُورَ الْحِكْمَةِ مِنْ قُلُوبِكُمْ وَمَنْ بَاتَ فِي خِفَّةٍ مِنَ الطَّعَامِ بَاتَ الْحُورُ حَوْلَهُ حَتَّى يُصْبِحَ »

الفائدة الثانية : رقة القلب وصفاؤه الذى به يتهيأ لإدراك لذة المثابرة ، والتأثر بالذكر فكم من ذكر يجرى على اللسان مع حضور القلب ، ولكن القلب لا يلتذبه ولا يتأثر ، حتى كأن بينه وبينه حجابا من قسوة القلب . وقد يرق فى بعض الأحوال ، فيعظم تأثره بالذكر ، وتلذذه بالمناجاة . وخلو المعدة هو السبب الأظهر فيه . وقال أبو سليمان الدارانى أحلى ما تكون إليّ العبادة إذا التصق ظهرى ببطنى . وقال الجنيد ، يجعل أحدهم بينه وبين صدره مخلاة من الطعام ، ويريد أن يجد حلاوة المناجاة . وقال أبو سليمان ، إذا جاع القلب وعطش ، صفا ورق . وإذا شبع عمى وغلظ . فإذا تأثر القلب بلذة المناجاة ، أمر وراء تيسير الفكر ، واقتناص المعرفة ، فهى فائدة ثانية

---

(١) حديث من أجاع بطنه عظمت فكرته وفطن قلبه : كذلك لم أجد له أصلا

(٢) حديث من شبع ونام قسا قلبه ثم قال ان لكل شىء زكاة وان زكاة الجسد الجوع : ه من حديث أبى هريرة لكل شىء زكاة وزكاة الجسد الصوم واسناده ضعيف

(٣) حديث نور الحكمة الجوع والتباعد من الله عزوجل الشبع ـ الحديث : ذكره أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى هريرة وكتب عليه انه مسند وهى علامة ماروواه باسناده

الفائدة الثالثة : الانكسار والذل ، وزوال البطر والفرح والأشر ، الذى هو مبدأ الطغيان والغفلة عن الله تعالى . فلا تنكسر النفس ولاتذل بشىء كما تذل بالجوع . فعنده تسكن لربها ، وتخشع له ، وتقف على عجزها وذلها ، إذ ضعفت منتها ، وضاقت حيلتها ، بلقيمة طعام فاتتها ، وأظلمت عليها الدنيا لشربة ماء تأخرت عنها . وما لم يشاهد الإنسان ذل نفسه وعجزه ، لايرى عزة مولاه ولاقهره . وإنما سعادته فى أن يكون دائما مشاهداً نفسه بعين الذل والعجز ، ومولاه بعين العز والقدرة والقهر . فليكن دائما جائعا ، مضطرا إلى مولاه ، مشاهداً للاضطرار بالذوق . ولأجل ذلك لما عرضت الدنيا وخزائنها على النبى صلى الله عليه وسلم[1] قال « لَا بَلْ أَجُوعُ يَوْماً وَأَشْبَعُ يَوْماً فَإِذَا جُعْتُ صَبَرْتُ وَتَضَرَّعْتُ وَإِذَا شَبِعْتُ شَكَرْتُ » أو كما قال

فالبطن والفرج باب من أبواب النار ؛ وأصله الشبع . والذل والانكسار باب من أبواب الجنة ، وأصله الجوع . ومن أغلق بابا من أبواب النار ، فقد فتح بابا من أبواب الجنة بالضرورة لأنهما متقابلان ، كالمشرق والمغرب ، فالقرب من أحدهما بعد من الآخر

الفائدة الرابعة : أن لاينسى بلاء الله وعذابه ، ولا ينسى أهل البلاء . فإن الشبعان ينسى الجائع ، وينسى الجوع والعبد الفطن لايشاهد بلاء من غيره إلا ويتذكر بلاء الآخرة . فيذكر من عطشه عطش الخلق فى عرصات القيامة ، ومن جوعه جوع أهل النار ، حتى أنهم ليجوعون فيطعمون الضريع والزقوم ، ويسقون الغساق والمهل . فلاينبغى أن يغيب عن العبد عذاب الآخرة وآلامها ، فإنه هو الذى يهيج الخوف . فمن لم يكن فى ذلة ، ولا علة ، ولا قلة ، ولا بلاء نسى عذاب الآخرة ، ولم يتمثل فى نفسه ، ولم يغلب على قلبه . فينبغى أن يكون العبد فى مقاساة بلاء ، أو مشاهدة بلاء . وأولى مايقاسيه من البلاء الجوع . فإن فيه فوائد جمة ، سوى تذكر عذاب الآخرة . وهذا أحد الأسباب الذى اقتضى اختصاص البلاء بالأنبياء والأولياء والأمثل فالأمثل . ولذلك قيل ليوسف عليه السلام . لم تجوع وفى يديك خزائن الأرض ؟ فقال أخاف أن أشبع فأنسى الجائع . فذكر الجائعين والمحتاجين إحدى فوائد الجوع

(١) حديث أجوع يوما وأشبع يوما ـ الحديث : تقدم وهو عند ت

فإن ذلك يدعو إلى الرحمة والإطعام ، والشفقة على خلق الله عز وجل . والشبعان في غفلة عن ألم الجائع .

الفائدة الخامسة : وهى من أكبر الفوائد ، كسر شهوات المعاصى كلها ، والاستيلاء على النفس الأمارة بالسوء . فإن منشأ المعاصى كلها الشهوات والقوى . ومادة القوى والشهوات لامحالة الأطعمة . فتقليلها يضعف كل شهوة وقوة . وإنما السعادة كلها فى أن يملك الرجل نفسه ، والشقاوة فى أن تملكه نفسه . وكما أنك لاتملك الدابة الجموح إلا بضعف الجوع ، فإذا شبعت قويت وشردت وجمحت ، فكذلك النفس . كما قيل لبعضهم ، مابالك مع كبرك لا تتعهد بدنك وقدانهد ؟ فقال لأنه سريع المرح ، فاحش الأشر ، فأخاف أن يجمح بى فيورطنى ، فلأن أحمله على الشدائد أحب إلى من أن يحملنى على الفواحش وقال ذو النون ، ما شبعت قط إلا عصيت أوهممت بمعصية . وقالت عائشة رضى الله عنها ، أول بدعة حدثت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الشبع . إن القوم لما شبعت بطونهم ، جمحت بهم نفوسهم إلى هذه الدنيا

وهذه ليست فائدة واحدة ، بل هى خزائن الفوائد . ولذلك قيل ، الجوع خزانة من خزائن الله تعالى . وأقل ما يندفع بالجوع شهوة الفرج وشهوة الكلام . فإن الجائع لا يتحرك عليه شهوة فضول الكلام فيتخلص به من آفات اللسان ، كالغيبة والفحش ، والكذب والنميمة وغيرها ، فيمنعه الجوع من كل ذلك . وإذا شبع ، افتقر إلى فاكهة فيتفكه لامحالة بأعراض الناس ولا يكب الناس فى النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم

وأما شهوة الفرج ، فلا تخفى غائلتها . والجوع يكفى شرها . وإذا شبع الرجل لم يملك فرجه . وإن منعته التقوى فلا يملك عينه . فالعين تزنى ، كما أن الفرج يزنى . فإن ملك عينه بغض الطرف ، فلا يملك فكره . فيخطر له من الأفكار الرديئة ، وحديث النفس بأسباب الشهوة ، وما يتشوش به مناجاته . وربما عرض له ذلك فى أثناء الصلاة

وإنما ذكرنا آفة اللسان والفرج مثالا . وإلا فجميع معاصى الأعضاء السبعة سببها القوة الحاصلة بالشبع قال حكيم ، كل مريد صبر على السياسة ، فصبر على الخبز البحت سنة ، لا يخلط به شيئا من الشهوات ، ويأكل فى نصف بطنه ، رفع الله عنه مؤنة النساء

الفائدة السادسة : دفع النوم ، ودوام السهر . فإن من شبع شرب كثيرا ، ومن كثر شربه كثر نومه . ولأجل ذلك كان بعض الشيوخ يقول عند حضور الطعام ، معاشر المريدين لا تأكلوا كثيرا ، فتشربوا كثيرا ، فترقدوا كثيرا ، فتخسروا كثيرا . وأجمع رأى سبعين صديقا ، على أن كثرة النوم من كثرة الشرب . وفى كثرة النوم ضياع العمر ، وفوت التهجد ، وبلادة الطبع ، وقساوة القلب ، والعمر أنفس الجواهر ، وهو رأس مال العبد فيه يتجر . والنوم موت ، فتكثيره ينقص العمر . ثم فضيلة التهجد لا تخفى . وفى النوم فواتها ومهما غلب النوم ، فإن تهجد لم يجد حلاوة العبادة . ثم المتعزب إذا نام على الشبع احتلم . ويمنعه ذلك أيضا من التهجد ، ويحوجه إلى الغسل ، إما بالماء البارد فيتأذى به ، أو يحتاج إلى الحمام وربما لا يقدر عليه بالليل ، فيفوته الوتر إن كان قد أخره إلى التهجد . ثم يحتاج إلى مؤنة الحمام ، وربما تقع عينه على عورة فى دخول الحمام ، فإن فيه أخطارا ذكرناها فى كتاب الطهارة . وكل ذلك أثر الشبع . وقد قال أبو سليمان الدارانى : الاحتلام عقوبة . وإنما قال ذلك لأنه يمنع من عبادات كثيرة ، لتعذر الغسل فى كل حال . فالنوم منبع الآفات والشبع مجلبة له ، والجوع مقطعة له

الفائدة السابعة : تيسير المواظبة على العبادة . فإن الأكل يمنع من كثرة العبادات ، لأنه يحتاج إلى زمان يشتغل فيه بالأكل . وربما يحتاج إلى زمان فى شراء الطعام وطبخه ، ثم يحتاج إلى غسل اليد والخلال ، ثم يكثر تردده إلى بيت الماء لكثرة شربه . والأوقات المصروفة إلى هذا لو صرفها إلى الذكر والمناجاة وسائر العبادات ، لكثر ربحه . قال السرى : رأيت مع على الجرجانى سويقا يستف منه ، فقلت ما حملك على هذا ؟ قال إنى حسبت ما بين المضغ إلى الاستفاف سبعين تسبيحة ، فما مضغت الخبز منذ أربعين سنة . فانظر كيف أشفق على وقته ولم يضيعه فى المضغ ! وكل نفس من العمر جوهرة نفيسة لا قيمة لها ، فينبغى أن يستوفى منه خزانة باقية فى الآخرة لا آخر لها ، وذلك بصرفه إلى ذكر الله وطاعته

ومن جملة ما يتعذر بكثرة الأكل الدوام على الطهارة وملازمة المسجد . فإنه يحتاج إلى الخروج لكثرة شرب الماء وإراقته

ومن جملته الصوم ؛ فإنه يتيسر لمن تعود الجوع . فالصوم ، ودوام الاعتكاف ، ودوام الطهارة ، وصرف أوقات شغله بالأكل وأسبابه إلى العبادة أرباح كثيرة . وإنما يستحقرها الغافلون ، الذين لم يعرفوا قدر الدين ، لكن رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها (يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ[1])

وقد أشار أبو سليمان الداراني إلى ست آفات من الشبع فقال : من شبع دخل عليه ست آفات ، فقد حلاوة المناجاة ، وتعذر حفظ الحكمة ، وحرمان الشفقة على الخلق ؛ لأنه إذا شبع ظن أن الخلق كلهم شباع ، وثقل العبادة ، وزيادة الشهوات ، وأن سائر المؤمنين يدورون حول المساجد والشباع يدورون حول المزابل

الفائدة الثامنة : يستفيد من قلة الأكل صحة البدن ، ودفع الأمراض . فإن سببها كثرة الأكل ، وحصول فضلة الاخلاط في المعدة والعروق . ثم المرض يمنع من العبادات ، ويشوش القلب ، ويمنع من الذكر والفكر ، وينغص العيش ، ويحوج إلى الفصد والحجامة والدواء والطبيب . وكل ذلك يحتاج إلى مؤن ونفقات ؛ لا يخلو الإنسان منها بعد التعب عن أنواع من المعاصي واقتحام الشهوات . وفي الجوع ما يمنع ذلك كله

حكي أن الرشيد جمع أربعة أطباء ، هندي ، ورومي ، وعراقي ، وسوادي ، وقال : ليصف كل واحد منكم الدواء الذي لا داء فيه . فقال الهندي ، الدواء الذي لا داء فيه عندي ، هو الأهليلج الأسود* . وقال العراقي ، هو حب الرشاد الأبيض . وقال الرومي ، هو عندي الماء الحار . وقال السوادي ، وكان أعلمهم : الأهليلج يعفص المعدة ، وهذا داء . وحب الرشاد يزلق المعدة ، وهذا داء . والماء الحار يرخي المعدة ، وهذا داء . قالوا فما عندك ؟ فقال الدواء الذي لا داء معه عندي ، أن لا تأكل الطعام حتى تشتهيه ، وأن ترفع يدك عنه وأنت تشتهيه . فقالوا صدقت .

وذكر لبعض الفلاسفة من أطباء أهل الكتاب قول النبي صلى الله عليه وسلم[1] « ثُلُثٌ لِلطَّعَامِ وَثُلُثٌ لِلشَّرَابِ وَثُلُثٌ لِلنَّفَسِ » فتعجب منه وقال ، ما سمعت كلاما في قلة الطعام

---

(١) حديث ثلث للطعام : تقدم أيضا

(١) الروم : ٧ * الاهليلج ثمر منه أصفر ومنه أسود وهو البالغ النضيج

أحكم من هذا ، وإنه لكلام حكيم . وقال صلى الله عليه وسلم «[1] أَلْبِطْنَةُ أَصْلُ الدَّاءِ وَالْحِمْيَةُ أَصْلُ الدَّوَاءِ وَعَوِّدُوا كُلَّ جِسْمٍ مَا اعْتَادَ » وأظن تعجب الطبيب جرى من هذا الخبر لا من ذاك

وقال ابن سالم ، من أكل خبز الحنطة بحتا بأدب ، لم يعتل إلا علة الموت قيل وما الأدب قال تأكل بعد الجوع ، وترفع قبل الشبع وقال بعض أفاضل الأطباء ، فى ذم الاستكثار ، إن أنفع ما أدخل الرجل بطنه الرمان ، وأضر ما أدخل معدته المالح ولأن يقلل من المالح خير له من أن يستكثر من الرمان . وفى الحديث [2] « صُومُوا تَصِحُّوا » ففى الصوم والجوع وتقليل الطعام صحة الأجسام من الأسقام ، وصحة القلوب من سقم الطغيان والبطر وغيرهما

الفائدة التاسعة : خفة المؤنة . فإن من تعود قلة الأكل كفاه من المال قدر يسير . والذى تعود الشبع صار بطنه غريما ملازما له ، آخذا بمخنقه فى كل يوم ، فيقول ماذا تأكل اليوم؟ فيحتاج إلى أن يدخل المداخل ، فيكتسب من الحرام فيعصى ، أو من الحلال فيذل . وربما يحتاج إلى أن يمد أعين الطمع إلى الناس ، وهو غاية الذل والقماءة . والمؤمن خفيف المؤنة وقال بعض الحكماء ، إنى لأقضى عامة حوائجى بالترك ، فيكون ذلك أروح لقلبى . وقال آخر ، إذا أردت أن أستقرض من غيرى لشهوة أو زيادة ، استقرضت من نفسى ، فتركت الشهوة ، فهى خير غريم لى .

وكان إبراهيم بن أدهم رحمه الله ، يسأل أصحابه عن سعر المأكولات : فيقال إنها غالية فيقول أرخصوها بالترك . وقال سهل رحمه الله ، الأكول مذموم فى ثلاثة أحوال ، إن كان من أهل العبادة فيكسل . وإن كان مكتسبا فلا يسلم من الآفات . وإن كان ممن يدخل عليه شيء فلا ينصف الله تعالى من نفسه

وبالجملة سبب هلاك الناس حرصهم على الدنيا . وسبب حرصهم على الدنيا البطن والفرج وسبب شهوة الفرج شهوة البطن . وفى تقليل الأكل ما يحسم هذه الأحوال كلها ، وهى أبواب النار . وفى حسمها فتح أبواب الجنة ، كما قال صلى الله عليه وسلم « أَدِيمُوا قَرْعَ بَابِ الْجَنَّةِ بِالْجُوعِ » فمن قنع برغيف فى كل يوم ، قنع فى سائر الشهوات أيضا ، وصار حرا ،

---

(١) حديث البطنة أصل الداء والحمية أصل الدواء وعودوا كل بدن بما اعتاد : لم أجده أصلا

(٢) حديث صوموا تصحوا : الطبرانى فى الأوسط وأبو نعيم فى الطب النبوى من حديث أبى هريرة بسند ضعيف

واستغنى عن الناس ، واستراح من التعب ، وتخلى لعبادة الله عز وجل ، وتجارة الآخرة فيكون من الذين لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وإنما لاتلهيهم لاستغنائهم عنها بالقناعة وأما المحتاج فتلهيه لامحالة

الفائدة العاشرة : أن يتمكن من الإيثار ، والتصدق بما فضل من الأطعمة على اليتامى والمساكين ، فيكون يوم القيامة فى ظل صدقته ، [٢] كما ورد به الخبر . فما يأكله كان خزانته الكنيف ، وما يتصدق به كان خزانته فضل الله تعالى . فليس للعبد من ماله إلا ما تصدق فأبقى ، أو أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى . فالتصدق بفضلات الطعام أولى من التخمة والشبع

وكان الحسن رحمة الله عليه، إذا تلا قوله تعالى (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا [١]) قال عرضها على السموات السبع الطباق ، والطرائق التى زينها بالنجوم ، وحملة العرش العظيم ، فقال لها سبحانه وتعالى ، هل تحملين الأمانة بما فيها ؟ قالت وما فيها ؟ قال إن أحسنت جوزيت . وإن أسأت عوقبت . فقالت لا . ثم عرضها كذلك على الأرض ، فأبت ثم عرضها على الجبال الشم الشوامخ الصلاب الصعاب ، فقال لها هل تحملين الأمانة بما فيها ؟ قالت وما فيها ؟ فذكر الجزاء والعقوبة ، فقالت لا . ثم عرضها على الإنسان فحملها إنه كان ظلوما لنفسه ، جهولا بأمر ربه . فقد رأيناهم والله اشتروا الأمانة بأموالهم، فأصابوا آلافا ، فماذا صنعوا فيها ؟ وسعوا بها دورهم ، وضيقوا بها قبورهم ، وأسمنوا براذينهم ، وأهزلوا دينهم ، وأتعبوا أنفسهم بالغدو والرواح إلى باب السلطان ، يتعرضون للبلاء وهم من الله فى عافية ، يقول أحدهم تبيعنى أرض كذا وكذا وأزيدك كذا وكذا، يتكىء على شماله ، ويأكل من غير ماله ، حديثه سخرة، وماله حرام، حتى إذا أخذته الكظة ، ونزلت به البطنة ، قال ياغلام ائتنى بشىء أهضم به طعامى . يالكع ، أطعامك تهضم ؟ إنما دينك تهضم . أين الفقير ؟ أين الأرملة ؟ أين المسكين ؟ أين اليتيم الذى أمرك الله تعالى بهم ؟

فهذه إشارة إلى هذه الفائدة ، وهو صرف فاضل الطعام إلى الفقير ليدخر به الأجر .

---

(١) حديث كل امرىء فى ظل صدقته : ك من حديث عقبة بن عامر وقد تقدم

---

(١) الاحزاب : ٧٢

فذلك خير له من أن يأكله حتى يتضاعف الوزر عليه .[١] ونظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رجل سمين البطن ، فأومأ إلى بطنه بأصبعه وقال « لَوْ كَانَ هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا لَكَانَ خَيْراً لَكَ » أى لو قدمته لآخرتك ، وآثرت به غيرك ، وعن الحسن قال : والله لقد أدركت أقواما كان الرجل منهم يمسى وعنده من الطعام ما يكفيه ، ولو شاء لأكله ، فيقول والله لا أجعل هذا كله لبطنى ، حتى أجعل بعضه لله

فهذه عشرة فوائد للجوع ، يتشعب من كل فائدة فوائد لا ينحصر عددها ، ولا تتناهى فوائدها . فالجوع خزانة عظيمة لفوائد الآخرة . ولأجل هذا قال بعض السلف : الجوع مفتاح الآخرة ، وباب الزهد . والشبع مفتاح الدنيا ، وباب الرغبة . بل ذلك صريح فى الأخبار التى رويناها . وبالوقوف على تفصيل هـذه الفوائد تدرك معانى تلك الأخبار إدراك علم وبصيرة . فإذا لم تعرف هـذا وصدقت بفضل الجوع ، كانت لك رتبة المقلدين فى الإيمان ، والله أعلم بالصواب

بيان

طريق الرياضة فى كسر شهوات البطن

اعلم أن على المريد فى بطنه ومأكوله أربع وظائف :

الأولى : أن لا يأكل إلا حلالا ، فإن العبادة مع أكل الحرام كالبناء على أمواج البحار . وقد ذكرنا ما تجب مراعاته من درجات الورع فى كتاب الحلال والحرام . وتبقى ثلاث وظائف خاصة بالأكل ، وهو تقدير قدر الطعام فى القلة والكثرة ، وتقدير وقته فى الإبطاء والسرعة ، وتعيين الجنس المأكول فى تناول المشتهيات وتركها

أما الوظيفة الأولى فى تقليل الطعام . فسبيل الرياضة فيه التدريج . فمن اعتاد الأكل الكثير ، وانتقل دفعة واحدة إلى القليل ، لم يحتمله مزاجه وضعف ، وعظمت مشقته .

---

(١) حديث نظر الى رجل سمين البطن فأومأ الى بطنه بأصبعه وقال لو كان هذا فى غير هذا لكان خيرا لك : أحمد و ك فى المستدرك والبيهقى فى الشعب من حديث جعدة الجشمى واسناده جيد

فينبغى أن يتدرج إليه قليلا قليلا . وذلك بأن ينقص قليلا قليلا من طعامه المعتاد . فإن كان يأكل رغيفين مثلا ، وأراد أن يرد نفسه إلى رغيف واحد ، فينقص كل يوم ربع سبع رغيف ، وهو أن ينقص جزأ من ثمانية وعشرين جزأ ، أوجزأ من ثلاثين جزأ . فيرجع إلى رغيف فى شهر ، ولا يستضر به ، ولا يظهر أثره : فإن شاء فعل فى ذلك بالوزن، وإن شاء بالمشاهدة . فيترك كل يوم مقدار لقمة ، وينقصه مما أكله بالأمس

ثم هذا فيه أربع درجات ، أقصاها أن يرد نفسه إلى قدر القوام الذي لا يبقى دونه، وهو عادة الصديقين ، وهو اختيار سهل التسترى رحمة الله عليه ، إذ قال : إن الله استعبد الخلق بثلاث : بالحياة ، والعقل ، والقوة. فإن خاف العبد على اثنين منها ، وهي الحياة والعقل ، أكل ، وأفطر إن كان صائما ، وتكلف الطلب إن كان فقيرا . وإن لم يخف عليهما بل على القوة ، قال فينبغى أن لا يبالى ، ولو ضعف حتى صلى قاعدا ، ورأى أن صلاته قاعدا مع ضعف الجوع ، أفضل من صلاته قائما مع كثرة الأكل .

وسئل سهل عن بدايته وما كان يقتات به ، فقال كان قوتى فى كل سنة ثلاثة دراهم ، كنت آخذ بدرهم دبسا ، وبدرهم دقيق الأرز ، وبدرهم سمنا ، وأخلط الجميع ، وأسوى منه ثلثمائة وستين أكرة ، آخذ فى كل ليلة أكرة أفطر عليها . فقيل له فالساعة كيف تأكل؟ قال بغير حد ولا توقيت . ويحكى عن الرهابين أنهم قد يردون أنفسهم إلى مقدار درهم من الطعام

الدرجة الثانية :أن يرد نفسه بالرياضة فى اليوم والليلة إلى نصف مد ، وهو رغيف وشىء مما يكون الأربعة منه منا . ويشبه أن يكون هـذا مقدار ثلث البطن فى حق الأكثرين كما ذكره النبي صلى الله عليه وسلم . وهو فوق اللقيمات ، لأن هـذه الصيغة فى الجمع للقلة. فهو لما دون العشرة . وقد كان ذلك عادة عمر رضي الله عنه ،إذ كان يأكل سبع لقم، أو تسع لقم

الدرجة الثالثة : أن يردها إلى مقدار المد ، وهو رغيفان ونصف . وهذا يزيد على ثلث البطن فى حق الأكثرين ، ويكاد ينتهى إلى ثلثى البطن ، ويبقى ثلث للشراب ، ولا يبقى شيء للذكر . وفى بعض الألفاظ ، ثلث للذكر بدل قوله للنفس

الدرجة الرابعة : أن يزيد على المد إلى المن . ويشبه أن يكون ماوراء المن إسرافا، مخالفا

لقوله تعالى (وَلاَ تُسْرِفُوا[1]) أعنى فى حق الأكثرين . فإن مقدار الحاجة إلى الطعام يختلف بالسن ، والشخص ، والعمل الذى يشتغل به

وههنا طريق خامس لاتقدير فيه ، ولكنه موضع غلط . وهو أن يأكل إذا صدق جوعه ، ويقبض يده وهو على شهوة صادقة بعد . ولكن الأغلب أن من لم يقدر لنفسه رغيفا أو رغيفين ، فلا يتبين له حد الجوع الصادق . ويشتبه عليه ذلك بالشهوة الكاذبة وقد ذكر للجوع الصادق علامات .

إحداها :أن لاتطلب النفس الأدم ، بل تأكل الخبز وحده بشهوة ، أى خبز كان .فمهما طلبت نفسه خبزا بعينه ، أو طلبت أدما ، فليس ذلك بالجوع الصادق

وقد قيل من علامته أن يبصق فلا يقع الذباب عليه . أى لم يبق فيه دهنية ولا دسومة فيدل ذلك على خلو المعدة . ومعرفة ذلك غامض .فالصواب للمريد أن يقدر مع نفسه القدر الذى لايضعفه عن العبادة التي هو بصددها . فإذا انتهى إليه وقف وإن بقيت شهوته

وعلى الجملة فتقدير الطعام لايمكن ، لانه يختلف بالأحوال والأشخاص . نعم قد كان قوت جماعة من الصحابة صاعا من حنطة فى كل جمعة ، فإذا أكلوا التمر اقتاتوا منه صاعا ونصفا وصاع الحنطة أربعة أمداد فيكون كل يوم قريبا من نصف مد . وهو ماذكرناه أنه قدر ثلث البطن . واحتيج فى التمر إلى زيادة لسقوط النوى منه . وقد كان أبو ذر رضي الله عنه يقول : طعامى فى كل جمعة صاع من شعير على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله لاأزيد عليه شيئا حتى ألقاه ، فإنى سمعته يقول[1] « أَقْرَبُكُمْ مِنِّي مَجْلِساً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَحَبُّكُمْ إِلَيَّ مَنْ مَاتَ عَلَى مَاهُوَ عَلَيْهِ الْيَوْمَ » وكان يقول فى إنكاره على بعض الصحابة ، قد غيرتم ، ينخل لكم الشعير ، ولم يكن ينخل . وخبزتم المرقق ، وجمعتم بين إدامين ، واختلف عليكم بألوان الطعام ، وغدا أحدكم فى ثوب وراح فى آخر . ولم تكونوا هكذا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان قوت أهل الصفة[2] مدا من تمر بين اثنين فى كل يوم . والمد رطل وثلث .

---

(١) حديث أبى ذر أقربكم منى مجلسا يوم القيامة وأحبكم الى من مات على ماهو عليه اليوم: أحمد فى كتاب الزهد ومن طريقه أبو نعيم فى الحلية دون قوله وأحبكم الى وهو منقطع

(٢) حديث كان قوت أهل الصفة مدا من تمر بين اثنين فى كل يوم: ك وصحح اسناده من حديث طلحة البصرى

---

(١) الاعراف : ٣١

ويسقط منه النوى . وكان الحسن رحمة الله عليه يقول ، المؤمن مثل العنيزة ، يكفيه الكف من الحشف ، والقبضة من السويق ، والجرعة من الماء . والمنافق مثل السبع الضارى ، بلعا بلعا وسرطا سرطا ، لايطوى بطنه لجاره ، ولا يؤثر أخاه بفضله . وجهوا هذه الفضول أمامكم

وقال سهل : لو كانت الدنيا دما عبيطا ، لكان قوت المؤمن منها حلالا . لأن أكل المؤمن عند الضرورة بقدر القوام فقط

الوظيفة الثانية : فى وقت الأكل ومقدار تأخيره . وفيه أيضا أربع درجات

الدرجة العليا : أن يطوى ثلاثة أيام فما فوقها . وفى المريدين من رد الرياضة إلى الطي لا إلى المقدار ، حتى انتهى بعضهم إلى ثلاثين يوما ، وأربعين يوما . وانتهى إليه جماعة من العلماء يكثر عددهم ، منهم محمد بن عمرو القرنى ، وعبد الرحمن بن ابراهيم ، ورحيم ، وابراهيم التيمى ، وحجاج بن فرافصة ، وحفص العابد المصيصى ، والمسلم بن سعيد ، وزهير ، وسليمان الخواص ، وسهل بن عبد الله التسترى ، وابراهيم بن أحمد الخواص

وقد كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يطوى ستة أيام . وكان عبد الله بن الزبير يطوى سبعة أيام . وكان أبو الجوزاء صاحب ابن عباس يطوى سبعا . وروي أن الثورى وإبراهيم بن أدهم كانا يطويان ثلاثا ثلاثا . كل ذلك كانوا يستعينون بالجوع على طريق الآخرة قال بعض العلماء : من طوى لله أربعين يوما ، ظهرت له قدرة من الملكوت . أى كوشف ببعض الأسرار الإلهية .

وقد حكي أن بعض أهل هذه الطائفة مر براهب ، فذاكره بحاله ، وطمع فى إسلامه وترك ماهو عليه من الغرور . فكلمه فى ذلك كلاما كثيرا ، إلى أن قال له الراهب ، إن المسيح كان يطوى أربعين يوما ، وإن ذلك معجزة لاتكون إلا لنبي أو صديق . فقال له الصوفى ، فإن طويت خمسين يوما تترك ما أنت عليه ؟ وتدخل فى دين الإسلام ؟ وتعلم أنه حق وأنك على باطل ؟ قال نعم . فجلس لايبرح إلا حيث يراه ، حتى طوى خمسين يوما ، ثم قال وأزيدك أيضا . فطوى إلى تمام الستين فتعجب الراهب منه ، وقال ما كنت أظن أن أحدا يجاوز المسيح . فكان ذلك سبب إسلامه

وهذه درجة عظيمة ، قل من يبلغها إلا مكاشف محمول ، شغل بمشاهدة ماقطعه عن طبعه وعادته

واستوفى نفسه فى لذته ، وأنساه جوعته وحاجته

الدرجة الثانية: أن يطوى يومين إلى ثلاثة: وليس ذلك خارجا عن العادة ، بل هو قريب يمكن الوصول إليه بالجد والمجاهدة

الدرجة الثالثة : وهى أدناها ، أن يقتصر فى اليوم والليلة على أكلة واحدة . وهذا هو الأقل . وما جاوز ذلك إسراف ومداومة للشبع ، حتى لا يكون له حالة جوع . وذلك فعل المترفين ، وهو بعيد من السنة . [1] فقد روى أبو سعيد الخدرى رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم ، كان إذا تغذى لم يتعش ، وإذا تعشى لم يتغد . وكان السلف يأكلون فى كل يوم أكلة . [2] وقال النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة « إِيَّاكِ وَالسَّرَفَ فَإِنَّ أَكْلَتَيْنِ فِى يَوْمٍ مِنَ السَّرَفِ وَأَكْلَةً وَاحِدَةً فِى كُلِّ يَوْمَيْنِ إِقْتَارٌ وَأَكْلَةً فِى كُلِّ يَوْمٍ قَوَامٌ بَيْنَ ذَلِكَ وَهُوَ الْمَحْمُودُ فِى كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ »

ومن اقتصر فى اليوم على أكلة واحدة فيستحب له أن يأكلها سحرا ، قبل طلوع الفجر فيكون أكله بعد التهجد وقبل الصبح ، فيحصل له جوع النهار للصيام ، وجوع الليل للقيام وخلو القلب لفراغ المعدة ، ورقة الفكر ، واجتماع الهم ، وسكون النفس إلى المعلوم ، فلا تنازعه قبل وقته . [3] وفى حديث عاصم بن كليب ، عن أبيه ، عن أبى هريرة ، قال ، ماقام رسول الله صلى الله عليه وسلم قيامكم هذا قط ، وإن كان ليقوم حتى تورم قدماه . وما واصل وصالكم هذا قط ، غير أنه قد أخر الفطر إلى السحر . وفى حديث عائشة رضي الله عنها قالت [4] كان النبي صلى الله عليه وسلم يواصل إلى السحر

فإن كان يلتفت قلب الصائم بعد المغرب إلى الطعام ، وكان ذلك يشغله عن حضور القلب

---

(١) حديث أبى سعيد الخدرى كان اذا تغدى لم يتعش واذا تعشى لم يتغد : لم أجد له أصلا

(٢) حديث قال لعائشة إياك والاسراف فان أكلتين فى يوم من السرف : البيهقى فى الشعب من حديث عائشة وقال فى اسناده ضعف

(٣) حديث عاصم بن كليب عن أبيه عن أبى هريرة ماقام رسول الله صلى الله عليه وسلم قيامكم هذا قط وان كان ليقوم حتى تزلع قدماه : رواه ن مختصرا كان يصلى حتى تزلع قدماه واسناده جيد

(٤) حديث عائشة كان يواصل الى السحر : لم أجده من فعله وانما هو من قوله فأيكم أراد أن يواصل فليواصل حتى السحر رواه خ من حديث أبى سعيد وأما هو فكان يواصل وهو من خصائصه

فى التهجد ، فالأولى أن يقسم طعامه نصفين . فإن كان رغيفين مثلا ، أكل رغيفا عند الفطر ورغيفا عند السحر ، لتسكن نفسه ، ويخف بدنه عند التهجد . ولا يشتد بالنهار جوعه لأجل التسحر ، فيستعين بالرغيف الأول على التهجد ، وبالثانى على الصوم . ومن كان يصوم يوما ويفطر يوما ، فلا بأس أن يأكل كل يوم فطره وقت الظهر ، ويوم صومه وقت السحر فهذه الطرق فى مواقيت الأكل وتباعده وتقاربه

الوظيفة الثالثة : فى نوع الطعام ، وترك الأدام . وأعلى الطعام مخ البر . فإن نخل فهو غاية الترفه . وأوسطه شعير منخول . وأدناه شعير لم ينخل وأعلى الأدم اللحم والحلاوة . وأدناه الملح والخل . وأوسطه المزورات بالأدهان من غير لحم

وعادة سالكى طريق الآخرة الامتناع من الأدام على الدوام ، بل الامتناع عن الشهوات فإن كل لذيذ يشتهيه الإنسان فأكله ، اقتضى ذلك بطرا فى نفسه ، وقسوة فى قلبه ، وأنسا له بلذات الدنيا ، حتى يألفها ويكره الموت ولقاء الله تعالى . وتصير الدنيا جنة فى حقه ويكون الموت سجنا له . وإذا منع نفسه عن شهواتها ، وضيق عليها ، وحرمها لذاتها ، صارت الدنيا سجنا عليه ، ومضيقا له ، فاشتهت نفسه الإفلات منها ، فيكون الموت إطلاقها وإليه الإشارة بقول يحيى بن معاذ حيث قال : معاشر الصديقين ، جوّعوا أنفسكم لوليمة الفردوس ، فإن شهوة الطعام على قدر تجويع النفس

فكل ماذكرناه من آفات الشبع فإنه يجرى فى كل الشهوات ، وتناول اللذات . فلا نطول بإعادته . فلذلك يعظم الثواب فى ترك الشهوات من المباحات ، ويعظم الخطر فى تناولها ، حتى قال صلى الله عليه وسلم [1] « شِرَارُ أُمَّتِي الَّذِينَ يَأْكُلُونَ مُخَّ الْحِنْطَةِ » وهذا ليس بتحريم ، بل هو مباح على معنى أن من أكله مرة أو مرتين لم يعص ، ومن داوم عليه أيضا فلا يعصى بتناوله ، ولكن تتربى نفسه بالنعيم ، فتأنس بالدنيا ، وتألف اللذات ، وتسعى فى طلبها ، فيجرها ذلك إلى المعاصى . فهم شرار الأمة ، لأن مخ الحنطة يقودهم إلى اقتحام أمور ، تلك الأمور معاص .

---

(١) حديث شرار أمتى الذين يأكلون مخ الحنطة : لم أجد له أصلا

وقال صلى الله عليه وسلم (١) « شِرَارُ أُمَّتِي الَّذِينَ غُذُّوا بِالنَّعِيمِ وَنَبَتَتْ عَلَيْهِ أَجْسَامُهُمْ وَإِنَّمَا هِمَّتُهُمْ أَلْوَانُ الطَّعَامِ وَأَنْوَاعُ اللِّبَاسِ وَيَتَشَدَّقُونَ فِي الْكَلَامِ » وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام ، اذكر أنك ساكن القبر ، فإن ذلك يمنعك من كثير الشهوات

وقد اشتد خوف السلف من تناول لذيذ الأطعمة ، وتمرين النفس عليها ، ورأوا أن ذلك علامة الشقاوة ، ورأوا منع الله تعالى منه غاية السعادة ، حتى روي أن وهب بن منبه قال التقى ملكان في السماء الرابعة ، فقال أحدهما للآخر ، من أين ؟ قال أمرت بسوق حوت من البحر إشتهاه فلان اليهودي لعنه الله . وقال الآخر ، أمرت بإهراق زيت إشتهاه فلان العابد . فهذا تنبيه على أن تيسير أسباب الشهوات ليس من علامات الخير . ولهذا امتنع عمر رضي الله عنه عن شربة ماء بارد بعسل ، وقال ، اعزلوا عني حسابها . فلا عبادة لله تعالى أعظم من مخالفة النفس في الشهوات وترك اللذات ، كما أوردناه في كتاب رياضة النفس .

(٢) وقد روى نافع ، أن ابن عمر رضي الله عنهما كان مريضا ، فاشتهى سمكة طرية، فالتمست له بالمدينة فلم توجد . ثم وجدت بعد كذا وكذا ، فاشتريت له بدرهم ونصف ، فشويت وحملت إليه على رغيف ، فقام سائل على الباب ، فقال للغلام لفها برغيفها وادفعها إليه . فقال له الغلام ، أصلحك الله ، قد اشتهيتها منذ كذا وكذا فلم نجدها ، فلما وجدتها اشتريتها بدرهم ونصف ، فنحن نعطيه ثمنها فقال لفها وادفعها إليه. ثم قال الغلام للسائل ، هل لك أن تأخذ درهما وتتركها ؟ قال نعم . فأعطاه درهما ، وأخذها وأتى بها ، فوضعها بين يديه وقال ، قد أعطيته درهما وأخذتها منه . فقال لفها وادفعها إليه ، ولا تأخذ منه الدرهم، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «أَيُّمَا امْرِئٍ اشْتَهَى شَهْوَةً فَرَدَّ شَهْوَتَهُ وَآثَرَ بِهَا عَلَى نَفْسِهِ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ»

---

(١) حديث شرار أمتي الذين غذوا بالنعيم ـ الحديث : ابن عدي في الكامل ومن طريقه البيهقي في شعب الايمان من حديث فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى من حديث فاطمة بنت الحسين مرسلا قال الدار قطني في العلل انه أشبه بالصواب ورواه أبو نعيم في الحلية من حديث عائشة باسناد لا بأس به

(٢) حديث نافع ان ابن عمر كان مريضا فاشتهى سمكة ـ الحديث : وفيه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أيما امرىء اشتهى شهوة فرد شهوته وآثر بها على نفسه غفر الله له : ابو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب باسناد ضعيف جدا ورواه ابن الجوزي في الموضوعات

وقال صلى الله عليه وسلم [1] « إِذَا سَدَدْتُ كَلْبَ الْجُوعِ بِرَغِيفٍ وَكُوزٍ مِنَ الْمَاءِ الْقَرَاحِ فَعَلَى الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا الدَّمَارُ » أشار إلى أن المقصود ردُّ ألم الجوع والعطش ودفع ضررهما ، دون التنعم بلذات الدنيا

وبلغ عمر رضي الله عنه أن يزيد بن أبي سفيان يأكل أنواع الطعام فقال عمر لمولى له ، إذا علمت أنه قد حضر عشاؤه فأعلمني . فأعلمه فدخل عليه : فقرب عشاؤه ، فأتوه بثريد لحم ، فأكل معه عمر . ثم قرب الشواء ، وبسط يزيد يده ، وكف عمر يده وقال الله الله يا يزيد بن أبي سفيان ، أطعام بعد طعام ! والذي نفس عمر بيده ، لئن خالفتم عن سنتهم ليخالفن بكم عن طريقهم . وعن يسار بن عمير قال ، ما نخلت لعمر دقيقا قط إلا وأنا له عاص

وروي أن عتبة الغلام كان يعجن دقيقه ، ويجففه في الشمس : ثم يأكله ويقول ، كسرة وملح ، حتى يتهيأ في الآخرة الشواء والطعام الطيب . وكان يأخذ الكوز فيغرف به من حب كان في الشمس نهاره ، فتقول مولاة له ياعتبة ، لو أعطيتني دقيقك فخبزته لك ، وبردت لك الماء ؟ فيقول لها يا أم فلان ، قد شردت عني كلب الجوع

قال شقيق بن ابراهيم ، لقيت ابراهيم بن أدهم بمكة في سوق الليل ، عند مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، يبكي وهو جالس بناحية من الطريق . فعدلت إليه ، وقعدت عنده ، وقلت إيش هذا البكاء يا أبا أسحق ؟ فقال خير . فعاودته مرة واثنتين وثلاثا ، فقال ياشقيق أستر عليّ فقلت يا أخي قل ماشئت . فقال لي ، اشتهت نفسي منذ ثلاثين سنة سكباجا ، فمنعتها جهدي ، حتى إذا كان البارحة ، كنت جالسا وقد غلبني النعاس ، إذ أنا بفتى شاب بيده قدح أخضر يعلو منه بخار ، ورائحة سكباج . قال فاجتمعت بهمتي عنه ، فقربه . وقال يا إبراهيم كل ، فقلت ما آكل ، قد تركته لله عز وجل . فقال لي قد أطعمك الله كل . فما كان لي جواب إلا أني بكيت . فقال لي كل رحمك الله . فقلت قد أمرنا أن لا نطرح في وعائنا إلا من حيث نعلم . فقال كل عافاك الله فإنما أعطيته ، فقيل لي ياخضر

---

(١) حديث اذا سددت كلب الجوع برغيف وكوز من الماء القراح فعلى الدنيا وأهلها الدمار : أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة باسناد ضعيف

إذهب بهذا وأطعمه نفس إبراهيم بن أدهم ، فقد رحمها الله من طول صبرها على مايحملها من منعها ، إعلم ياإبراهيم أنى سمعت الملائكة يقولون، من أعطى فلم يأخذ ، طلب فلم يعط ، فقلت. إن كان كذلك فها أنا بين يديك لأجل العقد مع الله تعالى . ثم التفت فإذا أنا بفتى آخر ، ناوله شيئا وقال ، ياخضر لقمه أنت . فلم يزل يلقمنى حتى نعست. فانتبهت وحلاوته فى فى قال شقيق فقلت أرنى كفك ، فأخذت بكفه فقبلتها . وقلت يامن يطعم الجياع الشهوات إذا صححوا المنع ، يامن يقدح فى الضمير اليقين ، يامن يشفى قلوبهم من محبته ، أترى لشقيق عندك حالا ؟ ثم رفعت يد إبراهيم إلى السماء وقلت ، بقدر هذا الكف عندك ، و بقدر صاحبه ، وبالجود الذى وجد منك ، جد على عبدك الفقير إلى فضلك وإحسانك ورحمتك وإن لم يستحق ذلك . قال فقام إبراهيم ومشى حتى أدركنا البيت

وروي عن مالك بن دينار ، أنه بقى أربعين سنة يشتهى لبنا ، فلم يأكله ، وأهدى إليه يوما رطب فقال لأصحابه كلوا ، فما ذقته منذ أربعين سنة . وقال أحمد بن أبى الحوارى اشتهى أبو سليمان الدارانى رغيفا حارا بملح ، فجئت به إليه ، فعض منه عضة ثم طرحه ، وأقبل يبكى وقال ، عجلت إلى شهوتى بعد إطالة جهدى واشقوتى . قد عزمت على التوبة فأقلنى قال أحمد فما رأيته أكل الملح حتى لقى الله تعالى . وقال مالك بن ضيغم ، مررت بالبصرة فى السوق ، فنظرت إلى البقل ، فقالت لى نفسى لو أطعمتنى الليلة من هذا ؟ فأقسمت أن لا أطعمها إياه أربعين ليلة .

ومكث مالك بن دينار بالبصرة خمسين سنة، ماأكل رطبة لأهل البصرة ولا بسرة قط وقال ياأهل البصرة ، عشت فيكم خمسين سنة ماأكلت لكم رطبة ولا بسرة ، فما زاد فيكم مانقص منى ، ولا نقص منى مازاد فيكم ، وقال: طلقت الدنيا منذ خمسين سنة ، اشتهت نفسى لبنا منذ أربعين سنة ، فو الله لا أطعمها حتى ألحق بالله تعالى

وقال حماد بن أبى حنيفة ، أتيت داود الطائى ، والباب مغلق عليه ، فسمعته يقول ، نفسى اشتهيت جزرا فأطعمتك جزرا . ثم اشتهيت تمرا فآليت أن لا تأكليه أبدا . فسلمت ودخلت ، فإذا هو وحده . ومر أبو حازم يوما فى السوق ، فرأى الفاكهة فاشتهاها . فقال لابنه ، اشتر لنا من هذه الفاكهة المقطوعة الممنوعة ، لعلنا نذهب إلى الفاكهة التى لا مقطوعة

ولا ممنوعة . فلما اشتراها وأتى بها إليه ، قال لنفسه قد خدعتيني حتي نظرت واشتهيت ، وغلبتيني حتى اشتربت . والله لاذقتيه . فبعث بها إلى يتامى من الفقراء

وعن موسى الأشج أنه قال ، نفسي تشتهي ملحا جريشا منذ عشرين سنة . وعن أحمد ابن خليفة قال ، نفسي تشتهي منذ عشرين سنة ، ما طلبت مني إلا الماء حتى تروى ، فما أرويتها . وروى أن عتبة الغلام اشتهى لحما سبع سنين . فلما كان بعد ذلك قال ، استحييت من نفسي أن أدافعها منذ سبع سنين سنة بعد سنة ، فاشتريت قطعة لحم على خبز ، وشويتها وتركتها على رغيف . فلقيت صبيا ، فقلت ألست أنت ابن فلان وقدمات أبوك ؟ قال بلى فناولته إياها . قالوا وأقبل يبكي ، يقرأ (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا[1]) ثم لم يذقه بعد ذلك . ومكث يشتهي تمرا سنين ، فلما كان ذات يوم اشترى تمرا بقيراط ورفعه إلى الليل ليفطر عليه . قال فهبت ريح شديدة ، حتى أظلمت الدنيا . ففزع الناس . فأقبل عتبة على نفسه يقول ، هذا لجراءتى عليك وشرائى التمر بالقيراط . ثم قال لنفسه ، ما أظن أخذ الناس إلا بذنبك ، عَلَيَّ أن لا تذوقيه

واشترى داود الطائى بنصف فلس بقلا ، وبفلس خلا . وأقبل ليلته كلها يقول لنفسه ويلك ياداود ، ما أطول حسابك يوم القيامة . ثم لم يأكل بعده إلا قفارا . وقال عتبة الغلام يوما لعبد الواحد بن زيد إن فلانا يصف من نفسه منزلة ما أعرفها من نفسي . فقال لأنك تأكل مع خبزك تمرا ، وهو لا يزيد على الخبز شيئا . قال فإن أنا تركت أكل التمر عرفت تلك المنزلة ؟ قال نعم وغيرها . فأخذ يبكي . فقال له بعض أصحابه لا أبكى الله عينك ، أعلى التمر تبكي ؟ فقال عبد الواحد دعه ، فإن نفسه قد عرفت صدق عزمه فى الترك ، وهو إذا ترك شيئا لم يعاوده . وقال جعفر بن نصر ، أمرنى الجنيد أن أشترى له التين الوزيرى ، فلما اشتريته ، أخذ واحدة عند الفطور فوضعها فى فمه ، ثم ألقاها وجعل يبكي ثم قال ، احمله فقلت له فى ذلك . فقال هتف بى هاتف أما تستحى ، تركته من أجلى ثم تعود إليه

وقال صالح المرى ، قلت لعطاء السلمى ، إنى متكلف لك شيئا ، فلا ترد علىّ كرامتى . فقال افعل ما تريد . قال فبعثت إليه مع ابني شربة من سويق ، قد لتته بسمن وعسل

---

[1] الدهر : ٨

فقلت لا تبرح حتى بشربها . فلما كان من الغد ، جعلت له نحوها ، فردها ولم بشربها . فعاقبته ولمته على ذلك ، وقلت سبحان الله رددت عليّ كرامتي ، فلما رأى وجدي لذلك ، قال لا يسوؤك هذا . إني قد شربتها أول مرة ، وقد راودت نفسي في المرة الثانية على شربها فلم أقدر على ذلك ، كلما أردت ذلك ذكرت قوله تعالى (يَتَجَرَّعُهُ وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ[1]) الآية . قال صالح ، فبكيت وقلت في نفسي ، أنا في واد وأنت في واد آخر .

وقال السري السقطي ، نفسي منذ ثلاثين سنة تطالبني أن أغمس جزرة في دبس ، فما أطعمتها . وقال أبو بكر الجلاء ، أعرف رجلا تقول له نفسه ، أنا أصبر لك على طي عشرة أيام ، واطعمني بعد ذلك شهوة أشتهيها ، فيقول لها ، لا أريد أن تطوى عشرة أيام ولكن اتركي هذه الشهوة . وروى أن عابدا دعا بعض إخوانه فقرب إليه رغفانا . فجعل أخوه يقلب الأرغفة ليختار أجودها . فقال له العابد ، مه أي شيء تصنع ؟ أما علمت أن في الرغيف الذي رغبت عنه كذا وكذا حكمة ؟ وعمل فيه كذا وكذا صانعا حتى استدار . من السحاب الذي يحمل الماء ، والماء الذي يسقي الأرض ، والرياح ، والأرض ، والبهائم ، وبني آدم ، حتى صار إليك ، ثم أنت بعد هذا تقلبه ولا ترضى به !

وفي الخبر(١) لا يستدير الرغيف ويوضع بين يديك ، حتى يعمل فيه ثلثمائة وستون صانعا . أولهم ميكائيل عليه السلام ، الذي يكيل الماء من خزائن الرحمة ، ثم الملائكة التي تزجي السحاب ، والشمس والقمر ، والأفلاك ، وملائكة الهواء ودواب الأرض ، وآخرهم الخباز (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا[2])

وقال بعضهم أتيت قاسما الجرعي ، فسألته عن الزهد أي شيء هو ؟ فقال أي شيء سمعت فيه ؟ فعددت أقوالا ، فسكت . فقلت وأي شيء تقول أنت ؟ فقال اعلم أن البطن دنيا العبد . فبقدر ما يملك من بطنه يملك من الزهد . وبقدر ما يملكه بطنه ، تملكه الدنيا

وكان بشر بن الحارث قد اعتل مرة ، فأتى عبد الرحمن الطبيب يسأله عن شيء يوافقه من المأكولات . فقال تسألني فإذا وصفت لك لم تقبل مني ؟ قال صف لي حتى أسمع .

---

(١) حديث لا يستدير الرغيف ويوضع بين يديك حتى يعمل فيه ثلثمائة وستون صانعا أولهم ميكائيل ـ الحديث : لم أجد له أصلا

---

[1] ابراهيم : ١٧ [2] ابراهيم : ٣٤ والنحل ١٣

قال تشرب سكنجبينا ، وتمص سفرجلا ، وتأكل بعد ذلك اسفيذباجا . فقال له بشر ، هل تعلم شيئا أقل من السكنجبين يقوم مقامه ؟ قال لا . قال أنا أعرف . قال ماهو ؟ قال الهندبا بالخل . ثم قال ، أتعرف شيئا أقل من السفرجل يقوم مقامه ؟ قال لا . قال أنا أعرف . قال ماهو ؟ قال الخرنوب الشامى . قال فتعرف شيئا أقل من الاسفيذباج يقوم مقامه ؟ قال لا . قال أنا أعرف . ماء الحمص بسمن البقر فى معناه . فقال له عبد الرحمن ، أنت أعلم منى بالطب ، فلمَ تسألنى؟

فقد عرفت بهذا أن هؤلاء امتنعوا من الشهوات ، ومن الشبع من الأقوات . وكان امتناعهم للفوائد التى ذكرناها . وفى بعض الأوقات لأنهم كانوا لا يصفو لهم الحلال ، فلم يرخصوا لأنفسهم إلا فى قدر الضرورة . والشهوات ليست من الضرورات ، حتى قال أبو سليمان: الملح شهوة ، لأنه زيادة على الخبز ، وما وراء الخبز شهوة. وهذا هو النهاية .فمن لم يقدر على ذلك فينبغى أن لا يغفل عن نفسه ،ولا ينهمك فى الشهوات . فكفى بالمرء إسرافا أن يأكل كل مايشتهيه ، ويفعل كل مايهواه . فينبغى أن لا يواظب على أكل اللحم . قال على كرم الله وجهه ، من ترك اللحم أربعين يوما ساء خلقه ، ومن داوم عليه أربعين يوما قسا قلبه . وقيل إن للمداومة على اللحم ضراوة كضراوة الخمر

ومهما كان جائعا ، وتاقت نفسه إلى الجماع ، فلا ينبغى أن يأكل ويجامع، فيعطى نفسه شهوتين ، فتقوى عليه . وربما طلبت النفس الأكل لينشط فى الجماع

ويستحب أن لا ينام على الشبع ، فيجمع بين غفلتين ، فيعتاد الفتور ، ويقسو قلبه لذلك ولكن ليصل ، أو ليجلس فيذكر الله تعالى ، فإنه أقرب إلى الشكر . وفى الحديث [1] « أذِيبُوا طَعَامَكُمْ بِالذِّكْرِ وَالصَّلاَةِ وَلاَ تَنَامُوا عَلَيْهِ فَتَقْسُوَ قُلُوبُكُمْ » وأقل ذلك أن يصلى أربع ركعات ، أو يسبح مائة تسبيحة ، أو يقرأ جزءاً من القرءان عقيب أكله . فقد كان سفيان الثورى إذا شبع ليلة أحياها . وإذا شبع فى يوم واصله بالصلاة والذكر . وكان يقول ، أشبع الزنجى وكدّه ، ومرة يقول ، أشبع الحمار وكده

---

(١) حديث أذيبوا طعامكم بالصلاة والذكر ولا تناموا عليه فتقسو قلوبكم :طس وابن السنى فى اليوم والليلة من حديث عائشة بسند ضعيف

ومهما اشتهى شيئا من الطعام وطيبات الفواكه ، فينبغي أن يترك الخبز ويأكلها بدلا منه ، لتكون قوتا ، ولا تكون تفكها ، لئلا يجمع للنفس بين عادة وشهوة ،نظر سهل إلى ابن سالم وفي يده خبز وتمر ، فقال له ابدأ بالتمر ، فإن قامت كفايتك به ، وإلا أخذت من الخبز بعده بقدر حاجتك

ومهما وجد طعاما لطيفا وغليظا ، فليقدم اللطيف ،فإنه لايشتهي الغليظ بعده . ولو قدم الغليظ لأكل اللطيف أيضا للطافته . وكان بعضهم يقول لأصحابه ، لاتأكلوا الشهوات ، فإن أكلتموها فلا تطلبوها ، فإن طلبتموها فلا تحبوها . وطلبُ بعض أنواع الخبز شهوة . قال عبد الله بن عمر رحمة الله عليهما ، ماتأتينا من العراق فاكهة أحب إلينا من الخبز . فرأى ذلك الخبز فاكهة

وعلى الجملة ، لاسبيل إلى إهمال النفس في الشهوات المباحات ، واتباعها بكل حال . فبقدر مايستوفي العبد من شهوته ، يخشى أن يقال له يوم القيامة أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها . وبقدر مايجاهد نفسه ، ويترك شهوته ، يتمتع في الدار الآخرة بشهواته . قال بعض أهل البصرة ، نازعتني نفسي خبز أرز وسمكا فمنعتها ، فقويت مطالبتها ، واشتدت مجاهدتي لها عشرين سنة . فلما مات قال بعضهم رأيته في المنام ، فقلت ماذا فعل الله بك ؟ قال لاأحسن أن أصف ماتلقاني به ربي من النعم والكرامات . وكان أول شيء استقبلني به خبز أرز وسمكا وقال كل اليوم شهوتك هنياً بغير حساب . وقد قال تعالى (كُلُوا واشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الخَالِيَةِ [1]) وكانوا قد أسلفوا ترك الشهوات . ولذلك قال أبو سليمان ، ترك شهوة من الشهوات أنفع للقلب من صيام سنة وقيامها . وفقنا الله لما يرضيه

بيان

اختلاف حكم الجوع وفضيلته واختلاف أحوال الناس فيه

اعلم أن المطلوب الأقصى في جميع الأمور والأخلاق الوسط . إذ خير الأمور أوساطها . وكلا طرفي قصد الأمور ذميم . وما أوردناه في فضائل الجوع ربما يومىء إلى أن الإفراط

---

(١) الحاقة : ٢٤

فيه مطلوب . وهيهات ، ولكن من أسرار حكمة الشريعة ، أن كل مايطلب الطبع فيه الطرف الأقصى ، وكان فيه فساد ، جاء الشرع بالمبالغة فى المنع منه ، على وجه يومىء عند الجاهل إلى أن المطلوب مضادة مايقتضيه الطبع بغاية الإمكان، والعالم يدرك أن المقصود الوسط ، لأن الطبع إذا طلب غاية الشبع ، فالشرع ينبغى أن يمدح غاية الجوع، حتى يكون الطبع باعثا ، والشرع مانعا ، فيتقاومان ، ويحصل الاعتدال . فإن من يقدر على قمع الطبع بالكلية بعيد ، فيعلم أنه لا ننتهى إلى الغاية ، فإنه إن أسرف مسرف فى مضادة الطبع ، كان فى الشرع أيضا مايدل على إساءته . كما أن الشرع بالغ فى الثناء على قيام الليل ، وصيام النهار ، ثم لما علم النبي صلى الله عليه وسلم من حال بعضهم أنه يصوم الدهر كله ، ويقوم الليل كله نهى عنه[1]

فإذا عرفت هذا ، فاعلم أن الأفضل بالإضافة إلى الطبع المعتدل ، أن يأكل بحيث لا يحس بثقل المعدة ، ولا يحس بألم الجوع . بل ينسى بطنه ، فلا يؤثر فيه الجوع أصلا . فإن مقصود الأكل بقاء الحياة ، وقوة العبادة . وثقل المعدة يمنع من العبادة . وألم الجوع أيضا يشغل القلب ويمنع منها . فالمقصود أن يأكل أكلا لا يبقى للمأكول فيه أثر ، ليكون متشبها بالملائكة ، فإنهم مقدسون عن ثقل الطعام وألم الجوع ، وغاية الإنسان الاقتداء بهم . وإذا لم يكن للإنسان خلاص من الشبع والجوع ، فأبعد الأحوال عن الطرفين الوسط ، وهو الاعتدال .

ومثال طلب الآدمى البعد عن هذه الأطراف المتقابلة ، بالرجوع إلى الوسط ، مثال نملة ألقيت فى وسط حلقة محمية على النار ، مطروحة على الأرض . فإن النملة تهرب من حرارة الحلقة ، وهى محيطة بها لا تقدر على الخروج منها ، فلا تزال تهرب حتى تستقر على المركز الذى هو الوسط . فلو ماتت ماتت على الوسط . لأن الوسط هو أبعد المواضع عن الحرارة التى فى الحلقة المحيطة . فكذلك الشهوات محيطة بالإنسان إحاطة تلك الحلقة بالنملة ، والملائكة خارجون عن تلك الحلقة ، ولا مطمع للإنسان فى الخروج ، وهو يريد أن يتشبه بالملائكة

(١) حديث النهى عن صوم الدهر كله وقيام الليل كله تقدم

فى الخلاص . فأشبه أحواله بهم البعد ، وأبعد المواضع عن الأطراف الوسط . فصار الوسط مطلوبا فى جميع هذه الأحوال المتقابلة . وعنه عبر بقوله صلى الله عليه وسلم[٢] «خَيْرُ الأُمُورِ أَوْسَاطُهَا » وإليه الإشارة بقوله تعالى(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا[١])

ومهما لم يحس الإنسان بجوع ولا شبع ، تيسرت له العبادة والفكر ، وخف فى نفسه وقوى على العمل مع خفته . ولكن هذا بعد اعتدال الطبع . أما فى بداية الأمر ، إذا كانت النفس جموحا ، متشوقة إلى الشهوات ، مائلة إلى الإفراط ، فالاعتدال لا ينفعها بل لابد من المبالغة فى إيلامها بالجوع ، كما يبالغ فى إيلام الدابة التى ليست مروضة بالجوع والضرب وغيره ، إلى أن تعتدل . فإذا ارتاضت واستوت ورجعت إلى الاعتدال ، ترك تعذيبها وإيلامها . ولأجل هذا السر ، يأمر الشيخ مريده بما لا يتعاطاه هو فى نفسه . فيأمره بالجوع وهو لا يجوع . ويمنعه الفواكه والشهوات وقد لا يمتنع هو منها . لأنه قد فرغ من تأديب نفسه ، فاستغنى عن التعذيب . ولما كان أغلب أحوال النفس الشره والشهوة والجماح ، والامتناع عن العبادة ، كان الأصلح لها الجوع ، الذى تحس بألمه فى أكثر الأحوال لتنكسر نفسه . والمقصود أن تنكسر حتى تعتدل ، فترد بعد ذلك فى الغذاء أيضا إلى الاعتدال وإنما يمتنع من ملازمة الجوع من سالكى طريق الآخرة ، إما صديق ، وإما مغرور أحمق

أما الصديق ، فلا ستقامة نفسه على الصراط المستقيم ، واستغنائه عن أن يساق بسياط الجوع إلى الحق

وأما المغرور ، فلظنه بنفسه أنه الصديق المستغنى عن تأديب نفسه ، الظان بها خيرا ، وهذا غرور عظيم ، وهو الأغلب . فإن النفس قلما تتأدب تأدبا كاملا ، وكثيرا ما تغتر فتنظر إلى الصديق ومسامحته نفسه فى ذلك ، فيسامح نفسه . كالمريض ينظر إلى من قد صح من مرضه ، فيتناول ما يتناوله ، ويظن بنفسه الصحة فيهلك

والذى يدل على أن تقدير الطعام بمقدار يسير ، فى وقت مخصوص ، ونوع مخصوص ، ليس مقصودا فى نفسه ، وإنما هو مجاهدة نفس متنائية عن الحق ، غير بالغة رتبة الكمال ،

---

(٢) حديث خير الامور أوساطها : البيهقى فى الشعب مرسلا وقد تقدم

(١) الاعراف : ٣١

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن له تقدير وتوقيت لطعامه . قالت عائشة رضى الله عنها [١] ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم حتى نقول لايفطر ،ويفطر حتى نقول لايصوم . [٢] وكان يدخل على أهله فيقول « هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ شَيْءٍ » فإن قالوا نعم أكل ، وإن قالوا لا قال « إِنِّي إِذاً صَائِمٌ » [٣] وكان يقدم إليه الشيء فيقول « أَمَا إِنِّي قَدْ كُنْتُ أَرَدْتُ الصَّوْمَ » ثم يأكل . [٤] وخرج صلى الله عليه وسلم يوما وقال « إِنِّي صَائِمٌ » فقالت له عائشة رضى الله عنها ،قدأهدى إلينا حيس ،فقال « كُنْتُ أَرَدْتُ الصَّوْمَ وَلَكِنْ قَرِّبِيهِ »

ولذلك حكى عن سهل أنه قيل له ، كيف كنت فى بدايتك ؟ فأخبر بضروب من الرياضات منها أنه كان يقتات ورق النبق مدة . ومنها أنه أكل دقاق التين مدة ثلاث سنين . ثم ذكر أنه اقتات بثلاثة دراهم فى ثلاث سنين . فقيل له فكيف أنت فى وقتك هذا ؟ فقال آكل بلا حد ولا توقيت . وليس المراد بقوله بلا حد ولا توقيت أنى آكل كثيرا ، بل أنى لاأقدر بمقدار واحد ما آكله

وقد كان معروف الكرخى يهدى إليه طيبات الطعام فيأكل . فقيل له إن أخاك بشرا لا يأكل مثل هذا . فقال إن أخى بشرا قبضه الورع ، وأنا بسطتنى المعرفة . ثم قال ، إنما أنا ضيف فى دار مولاى ، فإذا أطعمنى أكلت ، وإذا جوعنى صبرت . مالى والاعتراض والتمييز . ودفع إبراهيم بن أدهم إلى بعض إخوانه دراهم وقال ، خذ لنا بهذه الدراهم زبدا وعسلا وخبزا حواريا . فقيل ياأبا إسحق ، بهذا كله ؟ قال ويحك ،إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال . وإذا عدمنا صبرنا صبر الرجال . وأصلح ذات يوم طعاما كثيرا ، ودعا إليه نفرا

---

(١) حديث عائشة كان يصوم حتى نقول لايفطر ويفطر حتى نقول لايصوم: متفق عليه

(٢) حديث كان يدخل على أهله فيقول هل عندكم من شيء فان قالوا نعم أكل وان قالوا لا قال انى صائم :د ت وحسنه و ن من حديث عائشة وهو عند م بنحوه كما سيأتى

(٣) حديث كان يقدم اليه الشيء فيقول اما انى كنت أريد الصوم :البيهقى من حديث عائشة بلفظ وان كنت قد فرضت الصوم وقال اسناده صحيح وعند م قد كنت أصبحت صائما

(٤) حديث خرج وقال انى صائم فقالت عائشة يارسول الله قد اهدى الينا حيس فقال كنت أردت الصوم ولكن قربيه م بلفظ قد كنت أصبحت صائما وفى رواية له أدنيه فلقد أصبحت صائما فأكل وفى لفظ للبيهقى انى كنت أريد الصوم ولكن قربيه

يسيرا ، فيهم الأوزاعى ، والثورى . فقال له الثورى ، ياأبا إسحق ، أماتخاف أن يكون هذا إسرافا ، فقال ليس فى الطعام إسراف ، إنما الإسراف فى اللباس والأثاث

فالذى أخذ العلم من السماع والنقل تقليدا ، يرى هـذا من إبراهيم بن أدهم ، ويسمع عن مالك بن دينار أنه قال مادخل بيتى الملح منذ عشرين سنة ، وعن سرى السقطى أنه منذ أربعين سنة يشتهى أن يغمس جزرة فى دبس فمافعل ، فيراه متناقضا ، فيتحير ، أو يقطع بأن أحدهما مخطىء . والبصير بأسرار القول ، يعلم أن كل ذلك حق ، ولكن بالإضافة إلى اختلاف الأحوال .

ثم هذه الأحوال المختلفة ، يسمعها فطن محتاط ، أو غبى مغرور . فيقول المحتاط ، ماأنا من جملة العارفين حتى أسامح نفسي . فليس نفسى أطوع من نفس سرى السقطى ، ومالك ابن دينار ، وهؤلاء من الممتنعين عن الشهوات ، فيقتدى بهم : والمغرور يقول ، مانفسى بأعصى علىّ من نفس معروف الكرخى ، وإبراهيم بن أدهم ، فأقتدى بهم ، وأرفع التقدير فى مأكولى . فأنا أيضا ضيف فى دار مولاى ، فمالى وللاعتراض . ثم إنه لو قصر أحد فى حقه وتوقيره ، أو فى ماله وجاهه بطريقة واحدة ، قامت القيامة عليه ، واشتغل بالاعتراض . وهذا مجال رحب للشيطان مع الحمق . بل رفع التقدير فى الطعام ، والصيام ، وأكل الشهوات ، لايسلم إلا لمن ينظر من مشكاة الولاية والنبوة . فيكون بينه وبين الله عـلامة فى استرساله وانقباضه . ولا يكون ذلك إلا بعد خروج النفس عن طاعة الهوى والعادة بالكلية ، حتى يكون أكله إذا أكل على نية ، كما يكون إمساكه بنية ، فيكون عاملا لله فى أكله وإفطاره

فينبغى أن يتعلم الحزم من عمر رضى الله عنه ، فإنه كان يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] يحب العسل ويأكله ، ثم لم يقس نفسه عليه ، بل لما عرضت عليه شربة باردة ممزوجة بعسل ، جعل يدير الإناء فى يده ويقول ، أشربها وتذهب حلاوتها وتبقى تبعتها ، اعزلوا عنى حسابها وتركها

وهذه الأسرار لا يجوز لشيخ أن يكاشف بها مريده . بل يقتصر على مدح الجوع فقط ، ولا يدعوه إلى الاعتدال ، فإنه يقصر لا محالة عما يدعوه إليه . فينبغى أن يدعوه

(١) حديث كان يحب العسل ويأكله : متفق عليه من حديث عائشة كان يحب الحلواء والعسل ـ الحديث : وفيه قصة شربه العسل عند بعض نسائه

إلى غاية الجوع ، حتى يتيسر له الاعتدال . ولا يذكر له أن العارف الكامل يستغنى عن الرياضة . فإن الشيطان يجد متعلقا من قلبه ، فيلقى إليه كل ساعة إنك عارف كامل ، وماالذى فاتك من المعرفة والكمال ؟ بل كان من عادة ابراهيم الخواص ، أن يخوض مع المريد فى كل رياضة كان يأمره بها ، كيلا يخطر بباله أن الشيخ لم يأمره بما لم يفعل ، فينفره ذلك من رياضته . والقوى إذا اشتغل بالرياضة وإصلاح الغير ، لزمه النزول إلى حد الضعفاء تشبها بهم وتلطفا فى سياقتهم إلى السعادة . وهذا ابتلاء عظيم للأنبياء والأولياء . وإذا كان حد الاعتدال خفيا فى حق كل شخص ، فالحزم والاحتياط ينبغى أن لا يترك فى كل حال

ولذلك أدب عمر رضى الله عنه ولده عبد الله ، إذ دخل عليه فوجده يأكل لحما مأدوما بسمن ،فعلاه بالدِّرة وقال ، لاأم لك ، كُلْ يوما خبزا ولحما ، ويوما خبزا ولبنا ، ويوما خبزا وسمنا ، ويوما خبزا وزيتا ، ويوما خبزا وملحا ، ويوما خبزا قفارا . وهذا هو الاعتدال فأما المواظبة على اللحم والشهوات فإفراط وإسراف . ومهاجرة اللحم بالكلية إقتار . وهذا قوام بين ذلك . والله تعالى أعلم

بيان

آفة الرياء المتطرق إلى من ترك أكل الشهوات وقلل الطعام

اعلم أنه يدخل على تارك الشهوات آفتان عظيمتان ، هما أعظم من أكل الشهوات

إحداهما : أن لا تقدر النفس على ترك بعض الشهوات فتشتهيها ، ولكن لا يريد أن يُعْرَفَ بأنه يشتهيها ، فيخفى الشهوة ، ويأكل فى الخلوة مالا يأكل مع الجماعة . وهذا هو الشرك الخفى — سئل بعض العلماء عن بعض الزهاد ، فسكت عنه .فقيل له هل تعلم به بأسا؟ قال يأكل فى الخلوة ما لا يأكل مع الجماعة . وهذه آفة عظيمة : بل حق العبد إذا ابتلى بالشهوات وحبها أن يظهرها . فإن هذا صدق الحال ، وهو يدل عن فوات المجاهدات بالأعمال . فإن إخفاء النقص ، وإظهار ضده من الكمال ، هو نقصانان متضاعفان . والكذب مع الإخفاء كذبان . فيكون مستحقا لمقتين ، ولا يرضى منه إلا بتوبتين صادقتين ولذلك

شدد أمر المنافقين ، فقال تعالى (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ [١]) لأن الكافر كفر وأظهر ، وهذا كفر وستر . فكان ستره لكفره كفراً آخر . لأنه استخف بنظر الله سبحانه وتعالى إلى قلبه ، وعظم نظر المخلوقين . فحا الكفر عن ظاهره . والعارفون يبتلون بالشهوات بل بالمعاصي ، ولا يبتلون بالرياء والغش والإخفاء . بل كمال العارف أن يترك الشهوات لله تعالى ، ويظهر من نفسه الشهوة ، إسقاطا لمنزلته من قلوب الخلق . وكان بعضهم يشترى الشهوات ويعلقها فى البيت ، وهو فيها من الزاهدين ، وإنما يقصد به تلبيس حاله ، ليصرف عن نفسه قلوب الغافلين ، حتى لا يشوشون عليه حاله

فنهاية الزهد ، الزهد فى الزهد بإظهار ضده . وهذا عمل الصديقين . فإنه جمع بين صدقين . كما أن الأول جمع بين كذبين . وهذا قد حمل على النفس ثقلين ، وجرعها كأس الصبر مرتين . مرة بشربه ، ومرة برميه . فلا جرم أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا . وهذا يضاهى طريق من يُعْطَى جهرا فيأخذ ، ويَرُدُّ سرا ، ليكسر نفسه بالذل جهرا ، وبالفقر سرا . فمن فاته هذا فلا ينبغى أن يفوته إظهار شهوته ونقصانه ، والصدق فيه : ولا ينبغى أن يغره قول الشيطان ، إنك إذا أظهرت اقتدى بك غيرك ، فاستره إصلاحا لغيرك . فإنه لو قصد إصلاح غيره لكان إصلاح نفسه أهم عليه من غيره . فهذا إنما يقصد الرياء المجرد ، ويروجه الشيطان عليه فى معرض إصلاح غيره . فلذلك ثقل عليه ظهور ذلك منه ، وإن علم أن من اطلع عليه ليس يقتدى به فى الفعل ، أو لا ينزجر باعتقاده أنه تارك للشهوات

الآفة الثانية : أن يقدر على ترك الشهوات ، لكنه يفرح أن يعرف به : فيشتهر بالتعفف عن الشهوات . فقد خالف شهوة ضعيفة ، وهى شهوة الأكل . وأطاع شهوة هى شر منها وهى شهوة الجاه . وتلك هي الشهوة الخفية . فمهما أحس بذلك من نفسه ، فكسر هذه الشهوة آكد من كسر شهوة الطعام . فليأكل . فهو أولى له

قال أبو سليمان ، إذا قدمت إليك شهوة ، وقد كنت تاركا لها ، فأصب منها شيئا يسيرا ولا تعط نفسك مناها ، فتكون قد أسقطت عن نفسك الشهوة ، وتكون قد نغصت عليها إذ لم تعطها شهوتها — وقال جعفر بن محمد الصادق ، إذا قدمت إلىّ شهوة ، نظرت

(١) النساء : ١٤٥

إلى نفسي ، فإن هي أظهرت شهوتها ، أطعمتها منها . وكان ذلك أفضل من منعها . وإن أخفت شهوتها ، وأظهرت العزوب عنها ، عاقبتها بالترك ، ولم أنلها منها شيئا . وهذا طريق في عقوبة النفس على هذه الشهوة الخفية .

وبالجملة من ترك شهوة الطعام ، ووقع في شهوة الرياء . كان كمن هرب من عقرب ، وفزع إلى حية . لأن شهوة الرياء أضر كثيرا من شهوة الطعام . والله ولي التوفيق

القول في شهوة الفرج

اعلم أن شهوة الوقاع سلطت على الإنسان لفائدتين . إحداهما : أن يدرك لذته ، فيقيس به لذات الآخرة ، فإن لذة الوقاع لو دامت لكانت أقوى لذات الأجساد ، كما أن النار وآلامها أعظم آلام الجسد: والترغيب والترهيب يسوق الناس إلى سعادتهم . وليس ذلك إلا بألم محسوس ، ولذة محسوسة مدركة . فإن ما لا يدرك بالذوق لا يعظم إليه الشوق

الفائدة الثانية : بقاء النسل ، ودوام الوجود . فهذه فائدتها . ولكن فيها من الآفات ما يهلك الدين والدنيا ، إن لم تضبط ولم تقهر ، ولم ترد إلى حد الاعتدال . وقد قيل في تأويل قوله تعالى (رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ [1]) معناه شدة الغلمة . وعن ابن عباس [1] في قوله تعالى (وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ [2]) قال هو قيام الذكر . وقد أسنده بعض الرواة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلا أنه قال في تفسيره الذكر إذا دخل . وقد قيل إذا قام ذكر الرجل ذهب ثلثا عقله . [2] وكان صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه « أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ سَمْعِي وَبَصَرِي وَقَلْبِي وَهَنِي وَمَنِيِّي » وقال عليه السلام [3] « النِّسَاءُ حَبَائِلُ الشَّيْطَانِ » ولولا هذه الشهوة ، لما كان للنساء سلطنة على الرجال

---

(١) حديث ابن عباس موقوفا ومسندا في قوله تعالى ومن شر غاسق اذا وقب قال هو قيام الذكر وقال الذي أسنده الذكر اذا دخل هذا حديث لا أصل له

(٢) حديث اللهم اني أعوذ بك من شر سمعي وبصري وقلبي ودينى تقدم في الدعوات

(٣) حديث النساء حبائل الشيطان : الاصفهاني في الترغيب والترهيب من حديث خالد بن زيد الجهني باسناد فيه جهالة

---

(١) البقرة : ٢٨٦ (٢) الفلق : ٣

روى أن موسى عليه السلام ، كان جالسا فى بعض مجالسه ، إذ أقبل إليه إبليس وعليه برنس يتلون فيه ألوانا . فلما دنا منه ، خلع البرنس فوضعه ، ثم أتاه ، فقال السلام عليك ياموسى . فقال له موسى مَن أنت ؟ فقال أنا إبليس . فقال لاحياك الله . ماجاء بك ؟ قال جئت لأسلم عليك لمنزلتك من الله ، ومكانتك منه . قال فما الذى رأيت عليك؟ قال برنس أختطف به قلوب بنى آدم . قال فما الذى إذا صنعه الإنسان استحوذت عليه ؟ قال إذا أعجبته نفسه ، واستكثر عمله ، ونسى ذنوبه . وأحذرك ثلاثا ، لاتخل بامرأة لاتحل لك، فإنه ماخلا رجل بامرأة لاتحل له إلا كنت صاحبه دون أصحابى ،حتى أفتنه بها ، وأفتنها به . ولا تعاهد الله عهدا إلا وفيت به . ولا تخرجن صدقة إلا أمضيتها . فإنه ماأخرج رجل صدقة فلم يمضها إلا كنت صاحبه دون أصحابى ،حتى أحول بينه وبين الوفاء بها . ثم ولى وهو يقول ،ياويلتاه علم موسى مايحذر به بنى آدم

وعن سعيد بن المسيب قال : ما بعث الله نبيا فيما خلا إلا لم ييأس إبليس أن يهلكه بالنساء . ولا شيء أخوف عندى منهن . ومابالمدينة بيت أدخله إلا بيتى وبيت ابنتى، أغتسل فيه يوم الجمعة ، ثم أروح . وقال بعضهم ، إن الشيطان يقول للمرأة أنت نصف جندى ، وأنت سهمى الذى أرمى به فلا أخطىء ، وأنت موضع سرى ، وأنت رسولى فى حاجتى . فنصف جنده الشهوة . ونصف جنده الغضب . وأعظم الشهوات شهوة النساء

وهذه الشهوة أيضا لها إفراط وتفريط واعتدال . فالإفراط ما يقهر العقل حتى يصرف همة الرجال إلى الاستمتاع بالنساء والجوارى ، فيحرم عن سلوك طريق الآخرة ، أو يقهر الدين حتى يجر إلى اقتحام الفواحش . وقد ينتهى إفراطها بطائفة إلى أمرين شنيعين

أحدهما: أن يتناولوا ما يقوى شهواتهم على الاستكثار من الوقاع ، كما قد يتناول بعض الناس أدوية تقوى المعدة ، لتعظم شهوة الطعام . وما مثال ذلك إلا كمن ابتلى بسباع ضارية ، وحيات عادية ، فتنام عنه فى بعض الأوقات ، فيحتال لإثارتها وتهييجها ، ثم يشتغل بإصلاحها وعلاجها . فإن شهوة الطعام والوقاع على التحقيق آلام يريد الإنسان الخلاص منها ، فيدرك لذة بسبب الخلاص،

فإن قلت: فقد روى فى غريب الحديث ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] قال شكوت إلى جبرائيل ضعف الوقاع ، فأمرنى بأكل الهريسة

فاعلم: أنه صلى الله عليه وسلم كان تحته تسع نسوة ، ووجب عليه تحصينهن بالإمتاع ، وحرم على غيره نكاحهن وإن طلقهن . فكان طلبه القوة لهذا لا للتمتع

والأمر الثانى : أنه قد تنتهى هذه الشهوة ببعض الضلال إلى العشق ، وهو غاية الجهل بما وضع له الوقاع ، وهو مجاوزة فى البهيمية لحد البهائم . لأن المتعشق ليس يقنع بإراقة شهوة الوقاع ، وهى أقبح الشهوات ، وأجدرها أن يستحيا منه ، حتى اعتقد أن الشهوة لا تنقضى إلا من محل واحد . والبهيمة تقضى الشهوة أين اتفق ، فتكتفى به ، وهذا لا يكتفى إلا بشخص واحد معين ، حتى يزداد به ذلا إلى ذل ، وعبودية إلى عبودية . وحتى يستسخر العقل لخدمة الشهوة . وقد خلق ليكون مطاعا ، لا ليكون خادما للشهوة ، ومحتالا لأجلها وما العشق إلا سعة إفراط الشهوة . وهو مرض قلب فارغ لا هم له . وإنما يجب الاحتراز من أوائله ، بترك معاودة النظر والفكر ، وإلا فإذا استحكم عسر دفعه . فكذلك عشق المال ، والجاه ، والعقار ، والأولاد ، حتى حب اللعب بالطيور ، والنرد ، والشطرنج ، فإن هذه الأمور قد تستولى على طائفة بحيث تنغص عليهم الدين والدنيا ، ولا يصبرون عنها ألبتة

ومثال من يكسر سورة العشق فى أول انبعاثه مثال من يصرف عنان الدابة عند توجهها إلى باب لتدخله . وما أهون منعها بصرف عنانها . ومثال من يعالجها بعد استحكامها مثال من يترك الدابة حتى تدخل وتجاوز الباب ، ثم يأخذ بذنبها ويجرها إلى ورائها . وما أعظم التفاوت بين الأمرين فى اليسر والعسر . فليكن الاحتياط فى بدايات الأمور فأما فى أواخرها ، فلا تقبل العلاج إلا بجهد جهيد ، يكاد يؤدى إلى نزع الروح . فإن إفراط الشهوة أن يغلب العقل إلى هذا الحد ، وهو مذموم جدا

وتفريطها بالعنة ، أو بالضعف عن إمتاع المنكوحة ، وهو أيضا مذموم . وإنما المحمود

---

(١) حديث شكوت الى جبريل ضعف الوقاع فأمرنى بأكل الهريسة : العقيلى فى الضعفاء طس من حديث حذيفة وقد تقدم وهو موضوع .

أن تكون معتدلة .ومطيعة للعقل والشرع فى انقباضها وانبساطها .ومهما أفرطت ، فكسرها بالجوع والنكاح .قال صلى الله عليه وسلم[١] « مَعَاشِرَ الشَّبَابِ عَلَيْكُمْ بِالْبَاءَةِ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَالصَّوْمُ لَهُ وِجَاءٌ »

بيان

ما على المريد فى ترك التزويج وفعله

اعلم أن المريد فى ابتداء أمره ، ينبغى أن لا يشغل نفسه بالتزويج . فإن ذلك شغل شاغل يمنعه من السلوك ، ويستجره إلى الأنس بالزوجة . ومن أنس بغير الله تعالى شغل عن الله . ولا يغرنه كثرة نكاح رسول الله صلى الله عليه وسلم ،[٢] فإنه كان لا يشغل قلبه جميع مافى الدنيا عن الله تعالى ، فلا تقاس الملائكة بالحدادين . ولذلك قال أبو سليمان الدارانى من تزوج فقد ركن إلى الدنيا ، وقال ، مارأيت مريدا تزوج فثبت على حاله الأول ، وقيل له مرة ، ماأحوجك إلى امرأة تأنس بها ، فقال لا آنسنى الله بها ، أى أن الأنس بها يمنع الأنس بالله تعالى ، وقال أيضا ، كل ماشغلك عن الله من أهل ، ومال ، وولد ، فهو عليك مشؤم فكيف يقاس غير رسول الله صلى الله عليه وسلم به ، وقد كان استغراقه بحب الله تعالى ، بحيث كان يجد احترافه فيه إلى حد كان يخشى منه فى بعض الأحوال أن يسرى ذلك إلى قالبه فيهدمه ، فلذلك[٣] كان يضرب بيده على فخذ عائشة أحيانا ويقول « كَلِّمِينِى يَاعَائِشَةُ » لتشغله بكلامها عن عظيم ماهو فيه ، لقصور طاقة قالبه عنه ، فقد كان طبعه الأنس بالله عز وجل ، وكان أنسه بالخلق عارضا ، رفقا ببدنه ، ثم أنه كان لا يطيق الصبر مع الخلق إذا جالسهم. فإذا ضاق صدره قال[٤] « أَرِحْنَا بِهَا يَابِلَالُ » حتى يعود إلى ماهو قرة عينه[٥] فالضعيف إذا لاحظ أحواله فى مثل هذه الأمور فهو مغرور ، لأن الأفهام تقصر عن الوقوف على أسرار أفعاله صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث معاشر الشباب من استطاع منكم النكاح فليتزوج ـ الحديث : تقدم فى النكاح

(٢) حديث كان لا يشغل قلبه عن الله تعالى جميع ما فى الدنيا : تقدم

(٣) حديث كان يضرب بيده على فخذ عائشة أحيانا ويقول كلمينى ياعائشة : لم أجد له أصلا

(٤) حديث أرحنا بها يابلال : تقدم فى الصلاة

(٥) حديث أن الصلاة كانت قرة عينه تقدم أيضا

فشرط المريد العزبة فى الابتداء إلى أن يقوى فى المعرفة. هذا إذا لم تغلبه الشهوة. فإن غلبته الشهوة فليكسرها بالجوع الطويل، والصوم الدائم. فإن لم تنقمع الشهوة بذلك، وكان بحيث لا يقدر على حفظ العين مثلا، وإن قدر على حفظ الفرج، فالنكاح له أولى، لتسكن الشهوة. وإلا فمهما لم يحفظ عينه، لم يحفظ عليه فكره، ويتفرق عليه همه، وربما وقع فى بلية لا يطيقها، وزنا العين من كبار الصغائر، وهو يؤدى على القرب إلى الكبيرة الفاحشة وهى زنا الفرج. ومن لم يقدر على غض بصره لم يقدر على حفظ فرجه

قال عيسى عليه السلام، إياكم والنظرة، فإنها تزرع فى القلب شهوة، وكفى بها فتنة وقال سعيد بن جبير، إنما جاءت الفتنة لداود عليه السلام من قبل النظرة، ولذلك قال لابنه عليه السلام، يابنى، امش خلف الأسد والأسود، ولا تمش خلف المرأة. وقيل ليحيى عليه السلام، مابدء الزنا؟ قال النظر والتمنى. وقال الفضيل، يقول إبليس هو قوسى القديمة وسهمى الذى لا أخطىء به. يعنى النظر

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] « النَّظْرَةُ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ فَمَنْ تَرَكَهَا خَوْفًا مِنَ اللهِ تَعَالَى أَعْطَاهُ اللهُ تَعَالَى إِيمَانًا يَجِدُ حَلَاوَتَهُ فِي قَلْبِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم[2] « مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ » وقال صلى الله عليه وسلم[3] « اتَّقُوا فِتْنَةَ الدُّنْيَا وَفِتْنَةَ النِّسَاءِ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ مِنْ قِبَلِ النِّسَاءِ » وقال تعالى (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ[1]) الآية. وقال عليه السلام[4] « لِكُلِّ ابْنِ آدَمَ حَظٌّ مِنَ الزِّنَا فَالْعَيْنَانِ تَزْنِيَانِ وَزِنَاهُمَا النَّظَرُ وَالْيَدَانِ تَزْنِيَانِ وَزِنَاهُمَا الْبَطْشُ وَالرِّجْلَانِ تَزْنِيَانِ وَزِنَاهُمَا الْمَشْيُ وَالْفَمُ يَزْنِي وَزِنَاهُ الْقُبْلَةُ وَالْقَلْبُ يَهُمُّ أَوْ يَتَمَنَّى وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ أَوْ يُكَذِّبُهُ »

---

(١) حديث النظرة سهم مسموم من سهام ابليس ـ الحديث : تقدم أيضا

(٢) حديث ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء : متفق عليه من حديث أسامة بن زيد

(٣) حديث اتقوا فتنة الدنيا وفتنة النساء فان أول فتنة بنى اسرائيل كانت فى النساء : م من حديث أبى سعيد الخدرى

(٤) حديث لكل ابن آدم حظه من الزنا فالعينان تزنيان ـ الحديث : م هو واللفظ له من حديث أبى هريرة واتفق عليه الشيخان من حديث ابن عباس بنحوه

---

(١) النور : ٣٠

(١) وقالت أم سلمة ، استأذن ابن أم مكتوم الأعمى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا وميمونة جالستان . فقال عليه السلام « احتَجِبَا » فقلنا أوليس بأعمى لا يبصرنا ؟ فقال « وأنتُمَا لاَتُبْصِرَانِهِ » ؟ وهذا يدل على أنه لا يجوز للنساء مجالسة العميان ، كما جرت به العادة فى المآتم والولائم ، فيحرم على الأعمى الخلوة بالنساء ، ويحرم على المرأة مجالسة الأعمى وتحديق النظر إليه لغير حاجة. وإنما جوز للنساء محادثة الرجال والنظر إليهم، لأجل عموم الحاجة

وإن قدر على حفظ عينه عن النساء ، ولم يقدر على حفظها عن الصبيان ، فالنكاح أولى به . فإن الشر فى الصبيان أكثر . فإنه لو مال قلبه إلى امرأة ، أمكنه الوصول إلى استباحتها بالنكاح . والنظر إلى وجه الصبي بالشهوة حرام. بل كل من يتأثر قلبه بجمال صورة الأمرد بحيث يدرك التفرقة بينه وبين الملتحى ، لم يحل له النظر إليه

فإن قلت : كل ذى حس يدرك التفرقة بين الجميل والقبيح لا محالة، ولم تزل وجوه الصبيان مكشوفة

فأقول: لست أعنى تفرقة العين فقط . بل ينبغى أن يكون إدراكه التفرقة كإدراكه التفرقة بين شجرة خضراء وأخرى يابسة ، وبين ماء صاف وماء كدر . وبين شجرة عليها أزهارها وأنوارها وشجرة تساقطت أوراقها . فإنه يميل إلى إحداهما بعينه وطبعه، ولكن ميلا خاليا عن الشهوة . ولأجل ذلك لا يشتهى ملامسة الأزهار والأنوار وتقبيلها ، ولا تقبيل الماء الصافى . وكذلك الشيبة الحسنة قد تميل العين إليها ، وتدرك التفرقة بينها وبين الوجه القبيح ، ولكنها تفرقة لا شهوة فيها. ويعرف ذلك بميل النفس إلى القرب والملامسة فمهما وجد ذلك الميل فى قلبه، وأدرك تفرقة بين الوجه الجميل ،وبين النبات الحسن ، والأثواب المنقشة ، والسقوف المذهبة ، فنظره نظر شهوة ، فهو حرام . وهذا مما يتهاون به الناس ويجرهم ذلك إلى المعاطب وهم لا يشعرون

قال بعض التابعين . ما أنا بأخوف من السبع الضارى على الشاب الناسك ، من غلام أمرد يجلس إليه . وقال سفيان ، لو أن رجلا عبث بغلام بين أصبعين من أصابع رجله، يريد الشهوة ، لكان لواطا . وعن بعض السلف قال :سيكون فى هذه الأمة ثلاثة أصناف لوطيون

---

(١) حديث أم سلمة استأذن ابن أم مكتوم الاعمى وانا وميمونة جالستان فقال احتجبا ـ الحديث : د ن ت وقال حسن صحيح .

صنف ينظرون ، وصنف يصافحون ، وصنف يعملون

فإذاً آفة النظر إلى الأحداث عظيمة فمهما عجز المريد عن غض بصره ، وضبط فكره فالصواب له أن يكسر شهوته بالنكاح ، فرب نفس لا يسكن توقانها بالجوع

وقال بعضهم : غلبت عليّ شهوتي في بدء إرادتي عالم أطق : فأكثرت الضجيج إلى الله تعالى . فرأيت شخصا في المنام ، فقال مالك ؟ فشكوت إليه ، فقال تقدم إلى ، فتقدمت إليه . فوضع يده على صدري ، فوجدت بردها في فؤادي وجميع جسدي . فأصبحت وقد زال ما بي . فبقيت مُعافى سنة . ثم عاودني ذلك ، فأكثرت الاستغاثة ، فأتاني شخص في المنام فقال لي أتحب أن يذهب ما تجده وأضرب عنقك ؟ قلت نعم . فقال مد رقبتك ، فمددتها فجرد سيفا من نور ، فضرب به عنقي ، فأصبحت وقد زال ما بي ، فبقيت مُعافى سنة . ثم عاودني ذلك أو أشد منه ، فرأيت كأن شخصا فيما بين جنبي وصدري يخاطبني ويقول ، ويحك كم تسأل الله تعالى رفع مالا يحب رفعه ! قال فتزوجت ، فانقطع ذلك عني ، وولد لي

ومهما احتاج المريد إلى النكاح ، فلا ينبغي أن يترك شرط الإرادة في ابتداء النكاح ودوامه . أما في ابتدائه ، فبالنية الحسنة . وفي دوامه بحسن الخلق ، وسداد السيرة ، والقيام بالحقوق الواجبة ، كما فصلنا جميع ذلك في كتاب آداب النكاح ، فلا نطول بإعادته وعلامة صدق إرادته ، أن ينكح فقيرة متدينة ، ولا يطلب الغنية .

قال بعضهم . من تزوج غنية كان له منها خمس خصال ، مغالاة الصداق ، وتسويف الزفاف ، وفوت الخدمة ، وكثرة النفقة ، وإذا أراد طلاقها لم يقدر خوفا على ذهاب مالها والفقيرة بخلاف ذلك . وقال بعضهم ، ينبغي أن تكون المرأة دون الرجل بأربع ، وإلا استحقرته ، بالسن ، والطول ، والمال ، والحسب ، وأن تكون فوقه بأربع ، بالجمال ، والأدب ، والورع ، والخلق . وعلامة صدق الإرادة في دوام النكاح الخلق

تزوج بعض المريدين بامرأة ، فلم يزل يخدمها حتى استحيت المرأة ، وشكت ذلك إلى أبيها ، وقالت قد تحيرت في هذا الرجل . أنا في منزله منذ سنين ، ما ذهبت إلى الخلاء قط ، إلا وحمل الماء قبلي إليه

وتزوج بعضهم امرأة ذات جمال . فلما قرب زفافها ، أصابها الجدري . فاشتد حزن

أهلها لذلك ، خوفا من أن يستقبحها . فأراهم الرجل أنه قد أصابه رمد ، ثم أراهم أن بصره قد ذهب ، حتى زفت إليه ، فزال عنهم الحزن . فبقيت عنده عشرين سنة ثم توفيت . ففتح عينيه حين ذلك . فقيل له في ذلك ، فقال تعمدته لأجل أهلها حتى لا يحزنوا . فقيل له قد سبقت إخوانك بهذا الخلق

وتزوج بعض الصوفية امرأة سيئة الخلق . فكان يصبر عليها . فقيل له لمَ لاتطلقها ؟ فقال أخشى أن يتزوجها من لا يصبر عليها ، فيتأذى بها

فإن تزوج المريد فهكذا ينبغي أن يكون . وإن قدر على الترك فهو أولى له، إذا لم يمكنه الجمع بين فضل النكاح وسلوك الطريق ، وعلم أن ذلك يشغله عن حاله

كما روى أن محمدا بن سليمان الهاشمي ، كان يملك من غلة الدنيا ثمانين ألف درهم في كل يوم . فكتب إلى أهل البصرة وعلمائها في امرأة يتزوجها . فأجمعوا كلهم على رابعة العدوية رحمها الله تعالى . فكتب إليها ، بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد . فإن الله تعالى قد ملكني من غلة الدنيا ثمانين ألف درهم في كل يوم ، وليس تمضي الأيام والليالي حتى أتمها مائة ألف وأنا أصير لك مثلها ومثلها . فأجيبيني . فكتبت إليه ، بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : فإن الزهد في الدنيا راحة القلب والبدن ، والرغبة فيها تورث الهم والحزن . فإذا أتاك كتابي هذا ، فهيء زادك ، وقدم لمعادك ، وكن وصي نفسك ، ولا تجعل الرجال أوصياءك ، فيقتسموا تراثك . فصم الدهر ، وليكن فطرك الموت . وأما أنا ، فلو أن الله تعالى خولني أمثال الذي خولك وأضعافه ، ما سرني أن أشتغل عن الله طرفة عين . وهذه إشارة إلى أن كل ما يشغل عن الله تعالى فهو نقصان

فلينظر المريد إلى حاله وقلبه . فإن وجده في العزوبة ، فهو الأقرب . وإن عجز عن ذلك فالنكاح أولى به . ودواء هذه العلة ثلاثة أمور ، الجوع ، وغض البصر ، والاشتغال بشغل يستولي على القلب . فإن لم تنفع هذه الثلاثة ، فالنكاح هو الذي يستأصل مادتها فقط . ولهذا كان السلف يبادرون إلى النكاح ، وإلى تزويج البنات . قال سعيد بن المسيب، ما أيس إبليس من أحد إلا وأتاه من قبل النساء ، وقال سعيد أيضا ، وهو ابن أربع وثمانين سنة وقد ذهبت إحدى عينيه ، وهو يعشو بالأخرى ، ما شيء أخوف عندي من النساء

وعن عبد الله بن أبي وداعة ، قال كنت أجالس سعيد بن المسيب ، فتفقدنى أياما ؛ فلما أتيته ، قال ، أين كنت ؟ قلت توفيت أهلى فاشتغلت بها . فقال هلا أخبرتنا فشهدناها قال ثم أردت أن أقوم ، فقال هل استحدثت امرأة ؟ فقلت يرحمك الله تعالى ، ومَن يزوجنى وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة ؟ فقال أنا ، فقلت وتفعل ؟ قال نعم . فحمد الله تعالى ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، وزوجنى على درهمين أو قال ثلاثة . قال فقمت وما أدرى ما أصنع من الفرح . فصرت إلى منزلى ، وجعلت أفكر ممن آخذ ، وممن أستدين ، فصليت المغرب ، وانصرفت إلى منزلى ، فأسرجت ، وكنت صائما ، فقدمت عشائى لأفطر وكان خبزا وزيتا ، وإذا بابى يقرع . فقلت . مَن هذا؟ قال سعيد . قال فأفكرت فى كل إنسان اسمه سعيد ، إلا سعيد بن المسيب . وذلك أنه لم ير أربعين سنة إلا بين داره والمسجد قال فخرجت إليه ، فإذا به سعيد بن المسيب . فظننت أنه قد بداله . فقلت . يا أبا محمد ، لو أرسلت إلىّ لأتيتك . فقال . لا ، أنت أحق أن تؤتى . قلت فما تأمر ؟ قال إنك كنت رجلا عزبا فتزوجت ، فكرهت أن أبيتك الليلة وحدك ، وهذه امرأتك . وإذا هى قائمة خلفه فى طوله . ثم أخذ بيدها ، فدفعها فى الباب ورده . فسقطت المرأة من الحياء . فاستوثقت من الباب ، ثم تقدمت إلى القصعة التى فيها الخبز والزيت ، فوضعتها فى ظل السراج لكيلا تراه . ثم صعدت السطح ، فرميت الجيران ، فجاؤنى . وقالوا ما شأنك ؟ قلت ويحكم ! زوجنى سعيد بن المسيب ابنته اليوم ، وقد جاء بها الليلة على غفلة . فقالوا أو سعيد زوجك ؟ قلت نعم . قالوا وهى فى الدار ؟ قلت نعم . فنزلوا إليها . وبلغ ذلك أمى فجاءت وقالت ، وجهى من وجهك حرام إن مسستها قبل أن أصلحها إلى ثلاثة أيام . قال فأقمت ثلاثا ؟ ثم دخلت بها ، فإذا هى من أجمل النساء . وأحفظ الناس لكتاب الله تعالى وأعلمهم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأعرفهم بحق الزوج . قال فمكثت شهرا لا يأتينى سعيد ولا آتيه . فلما كان بعد الشهر أتيته وهو فى حلقته ، فسلمت عليه ، فرد علىّ السلام ، ولم يكلمنى حتى تفرق الناس من المجلس . فقال : ما حال ذلك الإنسان . فقلت : بخير يا أبا محمد ، على ما يحب الصديق ويكره العدو ، وقال إن رابك منه أمر فدونك والعصا . فانصرفت إلى منزلى ، فوجه إلىّ بعشرين ألف درهم

قال عبد الله بن سليمان ، وكانت بنت سعيد بن المسيب هذه قد خطبها منه عبد الملك ابن مروان ، لابنه الوليد ، حين ولاه العهد . فأبى سعيد أن يزوجه . فلم يزل عبدالملك يحتال على سعيد ، حتى ضربه مائة سوط فى يوم بارد ، وصب عليه جرة ماء ، وألبسه جبة صوف

فاستعجال سعيد فى الزفاف تلك الليلة ، يعرفك غائلة الشهوة ، ووجوب المبادرة فى الدين إلى تطفئة نارها بالنكاح ، رضى الله تعالى عنه ورحمه

بيان

فضيلة من يخالف شهوة الفرج والعين

اعلم أن هـذه الشهوة هى أغلب الشهوات على الإنسان ، وأعصاها عند الهيجان على العقل ، إلا أن مقتضاها قبيح يستحيا منه ، ويخشى من اقتحامه . وامتناع أكثر الناس عن مقتضاها إما لعجز ، أو لخوف ، أو لحياء ، أو لمحافظة على جسمه ، وليس فى شيء من ذلك ثواب ، فإنه إيثار حظ من حظوظ النفس على حظ آخر . نعم من العصمة أن لا يقدر ، ففى هـذه العوائق فائدة ، وهى دفع الإثم ، فإن من ترك الزنا اندفع عنه إثمه بأى سبب كان تركه . وإنما الفضل والثواب الجزيل ، فى تركه خوفا من الله تعالى مع القدرة وارتفاع الموانع وتيسر الأسباب ، لاسيما عند صدق الشهوة . وهـذه درجة الصديقين . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [1] « مَنْ عَشِقَ فَعَفَّ فَكَتَمَ فَمَاتَ فَهُوَ شَهِيدٌ » وقال عليه السلام [2] « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي ظِلِّ عَرْشِهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إلاَّ ظِلُّهُ » وعد منهم رجل دعته امرأة ذات جمال وحسب إلى نفسها ، فقال إنى أخاف الله رب العالمين .

وقصة يوسف عليه السلام ، وامتناعه من زليخا ، مع القدرة ، ومع رغبتها ، معروفة . وقد أثنى الله تعالى عليه بذلك فى كتابه العزيز ، وهو إمام لكل من وفق لمجاهدة الشيطان فى هذه الشهوة العظيمة

---

(١) حديث من عشق فعف فكتم فمات فهو شهيد : الخطيب فى التاريخ من حديث ابن عباس وقال أنكر على سويد ابن سعيد ثم قال يقال إن يحيى لما ذكر له هذا الحديث قال لو كان لى فرس ورمح غزوت سويدا رواه الخرائطى من غير طريق سويد بسند فيه نظر

(٢) حديث سبعة يظلهم الله فى ظله ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبى هريرة وقد تقدم

وروى أن سليمان بن يسار ، كان من أحسن الناس وجها . فدخلت عليه امرأة ، فسألته نفسه ، فامتنع عليها ، وخرج هاربا من منزله وتركها فيه ، قال سليمان ، فرأيت تلك الليلة فى المنام يوسف عليه السلام ، وكأنى أقول له أنت يوسف ؟ قال نعم ، أنا يوسف الذى هممت ، وأنت سليمان الذى لم تهم . أشار إلى قوله تعالى(وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ [1]) وعنه أيضا ماهو أعجب من هذا ، وذلك أنه خرج من المدينة حاجا ، ومعه رفيق له ، حتى نزلا بالإيواء ، فقام رفيقه وأخذ السفرة ، وانطلق إلى السوق ليبتاع شيئا . وجلس سليمان فى الخيمة، وكان من أجمل الناس وجها ، وأورعهم .فبصرت به أعرابية من قلة الجبل ، وانحدرت إليه ، حتى وقفت بين يديه ، وعليها البرقع والقفازان . فأسفرت عن وجه لها كأنه فلقة قمر . وقالت أهنئى . فظن أنها تريد طعاما . فقالت لست أريد هذا إنما أريد مايكون من الرجل إلى أهله . فقال جهزك إلىّ إبليس. ثم وضع رأسه بين ركبتيه وأخذ فى النحيب . فلم يزل يبكى. فلما رأت منه ذلك ، سدلت البرقع على وجهها، وانصرفت راجعة حتى بلغت أهلها . وجاء رفيقه فرآه وقد انتفخت عيناه من البكاء ، وانقطع حلقه . فقال مايبكيك ؟ قال خير ، ذكرت صبيتى قال لا والله ، إلا أن لك قصة . إنما عهدك بصبيتك منذ ثلاث أو نحوها . فلم يزل به حتى أخبره خبر الأعرابية . فوضع رفيقه السفرة، وجعل يبكى بكاء شديدا. فقال سليمان ، وأنت مايبكيك ؟ قال أنا أحق بالبكاء منك ، لأنى أخشى أن لو كنت مكانك لما صبرت عنها ، فلم يزالا يبكيان ، فلما انتهى سليمان إلى مكة ، فسعى وطاف ثم أتى الحجر . فاحتبى بثوبه ، فأخذته عينه فنام ، وإذا رجل وسيم طوال له إشارة حسنة ، ورائحة طيبة ، فقال له سليمان رحمك الله ، مَن أنت ؟ قال له أنا يوسف الصديق ؟ قال نعم ، قال ان فى شأنك وشأن امرأة العزيز لعجبا، فقال له يوسف شأنك وشأن صاحبة الإيواء أعجب

وروى عن عبد الله بن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] يقول « انْطَلَقَ ثَلاَثَةُ نَفَرٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى آوَاهُمُ الْمَبِيتُ إِلَى غَارٍ فَدَخَلُوا فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الْغَارَ فَقَالُوا إِنَّهُ لاَ يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلاَّ أَنْ

(١) حديث ابن عمر انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت الى غار فذكر الحديث بطوله: رواه خ

(١) يوسف : ٢٤

تدعُوا اللهَ تعالَى بصالحِ أعمالِكُمْ . فقالَ رجلٌ منهُمْ : اللَّهُمَّ إنَّكَ تعلَمُ أنَّهُ كانَ لِي أبوانِ شيْخانِ كبيرانِ وكُنْتُ لا أَغْبِقُ قبلَهُما أهلاً ولا مالاً فنأَى بِي طلَبُ الشَّجرِ يوْماً فلَمْ أُرِحْ عليْهِما حتَّى ناما فحلَبْتُ لهُما غبُوقَهُما فوجدْتُهُما نائِمَيْنِ فكرِهْتُ أنْ أَغْبِقَ قبلَهُما أهلاً ومالاً فلبِثْتُ والقدحُ في يدِي أنتظِرُ استيقاظَهُما حتَّى طلَعَ الفجْرُ والصِّبْيةُ يتضاغَوْنَ حولَ قدَمِي فاستيْقظا فشرِبا غبُوقَهُما ، اللَّهُمَّ إنْ كُنْتُ فعلْتُ ذلِكَ ابتغاءَ وجهِكَ ففرِّجْ عنَّا ما نحْنُ فيهِ منْ هذهِ الصَّخْرةِ فانفرجَتْ شيْئاً لا يستطيعُونَ الخُرُوجَ منْهُ

وقالَ الآخرُ : اللَّهُمَّ إنَّكَ تعلَمُ أنَّهُ كانَ لِي ابنةُ عمٍّ منْ أحبِّ النَّاسِ إلَيَّ فراودْتُها عنْ نفسِها فامتنعَتْ مِنِّي حتَّى ألمَّتْ بهاسَنَةٌ منَ السِّنِينَ فجاءتْنِي فأعطيْتُها مائةً وعشْرِينَ دينارًا علَى أنْ تُخلِّيَ بيْنِي وبيْنَ نفسِها ففعلَتْ حتَّى إذا قدرْتُ عليْها قالَتْ اتَّقِ اللهَ ولا تفُضَّ الخاتَمَ إلَّا بحقِّهِ . فتحرَّجْتُ منَ الوُقُوعِ عليْها فانصرفْتُ عنْها وهِيَ منْ أحبِّ النَّاسِ إلَيَّ وترَكْتُ الذَّهبَ الَّذِي أعطيْتُها . اللَّهُمَّ إنْ كُنْتُ فعلْتُهُ ابتغاءَ وجهِكَ ففرِّجْ عنَّا ما نحْنُ فيهِ فانفرجَتِ الصَّخْرةُ عنْهُمْ غيْرَ أنَّهُمْ لا يستطيعُونَ الخُرُوجَ منْها

وقالَ الثَّالثُ : اللَّهُمَّ إنِّي استأجرْتُ أُجراءَ وأعطيْتُهُمْ أُجُورَهُمْ غيْرَ رجُلٍ واحِدٍ فإنَّهُ ترَكَ الأجْرَ الَّذِي لهُ وذهَبَ فنمَّيْتُ لهُ أجرَهُ حتَّى كثُرَتْ منْهُ الأموالُ فجاءَنِي بعْدَ حِينٍ فقالَ يا عبْدَ اللهِ أعطِنِي أجرِي فقُلْتُ كُلُّ ما ترَى منْ أجرِكَ منَ الإبِلِ والبقَرِ والغنَمِ والرَّقِيقِ فقالَ يا عبْدَ اللهِ أتستهزِئُ بِي ؟ فقُلْتُ لا أستهزِئُ بِكَ فخُذْهُ فاستاقَهُ وأخذَهُ كُلَّهُ ولَمْ يترُكْ منْهُ شيْئاً اللَّهُمَّ إنْ كُنْتُ فعلْتُ ذلِكَ ابتغاءَ وجهِكَ . ففرِّجْ عنَّا ما نحْنُ فيهِ فانفرجَتِ الصَّخْرةُ فخرَجُوا يمْشُونَ »

فهذا فضل من تمكن من قضاء هذه الشهوات فعف . وقريب منه من تمكن من قضاء شهوة العين . فإن العين مبدأ الزنا . فحفظها مهم : وهو عسر ، من حيث إنه قد يستهان به ولا يعظم الخوف منه . والآفات كلها منه تنشأ . والنظرة الأولى إذا لم تقصد لا يؤاخذ بها، والمعاودة يؤاخذ بها. قال صلى الله عليه وسلم[1] « لكَ الأُولَى وعلَيْكَ الثَّانيةُ » أي النظرة .

(١) حديث لك الاولى وليست لك الثانية : أي النظرة د ت من حديث بريدة قاله لعلي قال ت حديث غريب

وقال العلاء بن زياد : لا تتبع بصرك رداء المرأة فإن النظر يزرع فى القلب شهوة .

وقلما يخلو الإنسان فى تردده عن وقوع البصر على النساء والصبيان . فمهما تخايل إليه الحسن تقاضى الطبع المعاودة . وعنده ينبغى أن يقرر فى نفسه أن هذه المعاودة عين الجهل فإنه إن حقق النظر فاستحسن ، ثارت الشهوة ، وعجز عن الوصول ، فلا يحصل له إلا التحسر وإن استقبح ، لم يلتذ وتألم لأنه قصد الالتذاذ ، فقد فعل ما آلمه . فلا يخلو فى كلتا حالتيه عن معصية ، وعن تألم ، وعن تحسر . ومهما حفظ العين بهذا الطريق ، اندفع عن قلبه كثير من الآفات . فإن أخطأت عينه ، وحفظ الفرج مع التمكن ، فذلك يستدعى غاية القوة ، ونهاية التوفيق

فقد يروى عن أبى بكر بن عبد الله المزنى ، أن قصابا أولع بجارية لبعض جيرانه ، فأرسلها أهلها فى حاجة لهم إلى قرية أخرى ، فتبعها ، وراودها عن نفسها ، فقالت له: لا تفعل لأنا أشد حبا لك منك لى ، ولكنى أخاف الله . قال فأنت تخافينه وأنا لا أخافه ! فرجع تائبا . فأصابه العطش حتى كاد يهلك . فإذا هو برسول لبعض أنبياء بنى اسرائيل ، فسأله ، فقال مالك ؟ قال العطش . قال تعال حتى ندعو الله بأن تظلنا سحابة حتى ندخل القرية . قال مالى من عمل صالح فأدعو ؛ فادع أنت . قال أنا أدعو وأمّن أنت على دعائى . فدعا الرسول ، وأمّنَ هو ؛ فأظلتهما سحابة حتى انتهيا إلى القرية . فأخذ القصاب إلى مكانه ، فمالت السحابة معه . فقال له الرسول ، زعمت أن ليس لك عمل صالح ، وأنا الذى دعوت وأنت الذى أمنت ، فأظلتنا سحابة ، ثم تبعتك . لتخبرنى بأمرك . فأخبره فقال الرسول إن التائب عند الله تعالى بمكان ليس أحد من الناس بمكانه

وعن أحمد بن سعيد العابد ، عن أبيه ، قال . كان عندنا بالكوفة شاب متعبد ، لازم المسجد الجامع ، لا يكاد يفارقه . وكان حسن الوجه ، حسن القامة ، حسن السمت. فنظرت إليه امرأة ذات جمال وعقل ، فشغفت به ، وطال عليها ذلك . فلما كان ذات يوم ، وقفت له على الطريق ، وهو يريد المسجد. فقالت له يافتى ، اسمع منى كلمات أكلمك بها ، ثم اعمل ماشئت . فمضى ولم يكلمها . ثم وقفت له بعد ذلك على طريقه ، وهو يريد منزله . فقالت له يافتى ، اسمع منى كلمات أكلمك بها . فأطرق مليا وقال لها ، هذا موقف تهمة ، وأنا أكره

أن أكون للتهمة موضعا. فقالت له: والله ماوقفت موقفى هذا جهالة منى بأمرك ، ولكن معاذ الله أن يتشوف العباد إلى مثل هذا منى . والذى حملنى على أن لقيتك فى مثل هذا الأمر بنفسى ، لمعرفتى أن القليل من هذا عند الناس كثير ، وأنتم معاشر العباد على مثال القوارير أدنى شىء يعيبها . وجملة ماأقول لك : أن جوارحى كلها مشغولة بك . فالله الله فى أمرى وأمرك . قال فمضى الشاب إلى منزله ، وأراد أن يصلى، فلم يعقل كيف يصلى . فأخذ قرطاسا وكتب كتابا ، ثم خرج من منزله ، وإذا بالمرأة واقفة فى موضعها . فألقى الكتاب إليها ورجع إلى منزله ، وكان فيه ، بسم الله الرحمن الرحيم ، إعلمى أيتها المرأة ، أن الله عز وجل إذا عصاه العبد حلم ، فإذا عاد إلى المعصية مرة أخرى ستره ، فإذا لبس لها ملابسها غضب الله تعالى لنفسه ، غضبة تضيق منها السموات والأرض والجبال والشجر والدواب . فمن ذا يطيق غضبه ؟ فإن كان ماذكرت باطلا ، فإنى أذكرك يوما تكون السماء فيه كالمهل ، وتصير الجبال كالعهن ، وتجثو الأمم لصولة الجبار العظيم . وإنى والله قد ضعفت عن إصلاح نفسى فكيف بإصلاح غيرى . وإن كان ماذكرت حقا ، فإنى أدلك على طبيب هدى ، يداوى الكلوم المرضة ، والأوجاع المرمضة . ذلك الله رب العالمين . فاقصديه بصدق المسألة ، فإنى مشغول عنك بقوله تعالى (وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ[١]) فأين المهرب من هذه الآية ، ثم جاءت بعد ذلك بأيام ، فوقفت له على الطريق ، فلما رآها من بعيد ، أراد الرجوع إلى منزله كيلا يراها . فقالت يافتى لاترجع ، فلا كان الملتقى بعد هذا اليوم أبدا إلا غدا بين يدى الله تعالى . ثم بكت بكاء شديدا ، وقالت أسأل الله الذى بيده مفاتيح قلبك ، أن يسهل ما قد عسر من أمرك . ثم إنها تبعته ، وقالت امنن علىّ بموعظة أحملها عنك ، وأوصنى بوصية أعمل عليها . فقال لها أوصيك بحفظ نفسك ، من نفسك ، وأذكرك قوله تعالى (وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ[٢]) قال فأطرقت وبكت بكاء شديدا أشد من بكائها الأول ، ثم أنها أفاقت ، ولزمت بيتها ، وأخذت

---

[١] غافر : ١٨ [٢] الانعام : ٥٩

في العبادة ، فلم تزل على ذلك حتى ماتت كمدا . فكان الفتى بعد موتها يبكي ، فيقال له : تبكي وأنت قد أيأستها من نفسك ؟ فيقول : إني قد ذبحت طمعها في أول أمرها ، وجعلت قطيعتها ذخيرة لي عند الله تعالى ، فأنا أستحيي منه أن أسترد ذخيرة ادخرتها عنده تعالى .

تم كتاب كسر الشهوتين بحمد الله تعالى وكرمه

يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب آفات اللسان ، والحمد لله أولا وآخرا ، وظاهرا وباطنا ، وصلاته على سيدنا محمد خير خلقه ، وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء ، وسلم تسليما كثيرا .

کتاب آفات اللسان

كتاب آفات اللسان

وهو الكتاب الرابع من ربع المهلكات

من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أحسن خلق الإنسان وعدّله ، وألهمه نور الإيمان فزينه به وجمله ، وعلمه البيان فقدمه به وفضله ، وأفاض على قلبه خزائن العلوم فأكمله ، ثم أرسل عليه سترا من رحمته وأسبله ، ثم أمده بلسان يترجم به عما حواه القلب وعقله ، ويكشف عنه ستره الذى أرسله ، وأطلق بالحق مقوله ، وأفصح بالشكر عما أولاه وخوله : من علم حصله ، ونطق سهله ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله الذى أكرمه وبجله ، ونبيه الذى أرسله بكتاب أنزله ، وأسمى فضله ، وبين سبله ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن قبله ، ما كبر الله عبد وهلله

أما بعد: فإن اللسان من نعم الله العظيمة ، ولطائف صنعه الغريبة . فإنه صغير جرمه ، عظيم طاعته وجرمه . إذ لا يستبين الكفر والإيمان إلا بشهادة اللسان ، وهما غاية الطاعة والعصيان . ثم إنه مامن موجود أو معدوم ، خالق أو مخلوق ، متخيل أو معلوم ، مظنون أو موهوم ، إلا واللسان يتناوله ، ويتعرض له بإثبات أو نفى . فإن كل مايتناوله العلم ، يعرب عنه اللسان ، إما بحق أو باطل . ولا شيء إلا والعلم متناول له . وهذه خاصية لاتوجد فى سائر الأعضاء ، فإن العين لاتصل إلى غير الألوان والصور ، والآذان لاتصل إلى غير الأصوات واليد لاتصل إلى غير الأجسام ، وكذا سائر الأعضاء . واللسان رحب الميدان ، ليس له مرد ، ولا لمجاله منتهى وحد ، له فى الخير مجال رحب ، وله فى الشر ذيل سحب . فمن أطلق عذبة اللسان ، وأهمله مرخى العنان ، سلك به الشيطان فى كل ميدان ، وساقه إلى شفا جرف هار ، إلى أن يضطره إلى البوار . ولا يكب الناس فى النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ولا ينجو من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرع ، فلا يطلقه إلا فيما ينفعه فى الدنيا والآخرة

ويكفه عن كل مايخشى غائلته فى عاجله وآجله

وعلم مايحمد فيه إطلاق اللسان أو يذم ، غامض عزيز ، والعمل بمقتضاه على من عرفه ثقيل عسير . وأعصى الأعضاء على الإنسان اللسان ، فإنه لاتعب فى إطلاقه ، ولا مؤنة فى تحريكه وقد تساهل الخلق فى الاحتراز عن آفاته وغوائله ، والحذر من مصائده وحبائله. وأنه أعظم آلة الشيطان فى استغواء الإنسان . ونحن بتوفيق الله وحسن تدبيره ، نفصل مجامع آفات اللسان ، ونذكرها واحدة واحدة ، بحدودها وأسبابها وغوائلها ، ونعرف طريق الاحتراز عنها ، ونورد ما ورد من الأخبار والآثار فى ذمها ، فنذكر أولا فضل الصمت . ونردفه بذكر آفة الكلام فيما لا يعنى ، ثم آفة فضول الكلام ثم آفة الخوض فى الباطل ، ثم آفة المراء والجدال ثم آفة الخصومة ثم آفة التقعر فى الكلام ، بالتشدق وتكلف السجع والفصاحة ، والتصنع فيه ، وغير ذلك مما جرت به عادة المتفاصحين المدعين للخطابة ، ثم آفة الفحش والسب وبذاءة اللسان ، ثم آفة اللعن ، إما لحيوان أو جماد أو إنسان ، ثم آفة الغناء بالشعر ، وقد ذكرنا فى كتاب السماع مايحرم من الغناء ومايحل فلا نعيده ، ثم آفة المزاح ، ثم آفة السخرية والاستهزاء ، ثم آفة إفشاء السر ، ثم آفة الوعد الكاذب ، ثم آفة الكذب فى القول واليمين ، ثم بيان التعاريض فى الكذب ، ثم آفة الغيبة ، ثم آفة النميمة ، ثم آفة ذى اللسانين ، الذى يتردد بين المتعاديين فيكلم كل واحد بكلام يوافقه ، ثم آفة المدح ، ثم آفة الغفلة عن دقائق الخطأ فى فحوى الكلام لاسيما فيما يتعلق بالله وصفاته ويرتبط بأصول الدين ، ثم آفة سؤال العوام عن صفات الله عز وجل ، وعن كلامه ، وعن الحروف أهى قديمة أو محدثة ، وهى آخر الآفات ، ومايتعلق بذلك ، وجملتها عشرون آفة ، ونسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه

بيان

عظيم خطر اللسان وفضيلة الصمت

اعلم أن خطر اللسان عظيم . ولا نجاة من خطره إلا بالصمت . فلذلك مدح الشرع الصمت وحث عليه ، فقال صلى الله عليه وسلم [1] « مَنْ صَمَتَ نَجَا » وقال عليه السلام

---

(١) حديث من صمت نجا: ت من حديث عبد الله بن عمرو بسند فيه ضعف وقال غريب وهو عند الطبرانى بسند جيد

[١] « الصَّمْتُ حُكْمٌ وَقَلِيلٌ فَاعِلُهُ » أى حكمة وحزم . [٢] وروى عبد الله بن سفيان ، عن أبيه قال: قلت يارسول الله ، أخبرنى عن الإسلام بأمر لا أسأل عنه أحدا بعدك قال « قُلْ آمَنْتُ بِاللهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ » قال قلت فما أتقى ؟ فأومأ بيده إلى لسانه . [٣] وقال عقبة بن عامر ، قلت يارسول الله ما النجاة ؟ قال « أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ » [٤] وقال سهل بن سعد الساعدى ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ يَتَكَفَّلُ لِي بِمَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَرِجْلَيْهِ أَتَكَفَّلُ لَهُ بِالْجَنَّةِ »

وقال صلى الله عليه وسلم [٥] « مَنْ وُقِيَ شَرَّ قَبْقَبِهِ وَذَبْذَبِهِ وَلَقْلَقِهِ فَقَدْ وُقِيَ الشَّرَّ كُلَّهُ » القبقب هو البطن ، والذبذب الفرج ، واللقلق اللسان . فهذه الشهوات الثلاث بها يهلك أكثر الخلق ، ولذلك اشتغلنا بذكر آفات اللسان ، لما فرغنا من ذكر آفة الشهوتين البطن والفرج [٦] وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكبر ما يدخل الناس الجنة ، فقال « تَقْوَى اللهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ » وسئل عن أكبر ما يدخل النار فقال « الْأَجْوَفَانِ الْفَمُ وَالْفَرْجُ » فيحتمل أن يكون المراد بالفم آفات اللسان لأنه محله ، ويحتمل أن يكون المراد به البطن لأنه منفذه ، فقد قال [٧] معاذ بن جبل ، قلت يارسول الله ، أنؤاخذ بما نقول؟ فقال « ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا ابْنَ جَبَلٍ وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ »

---

(١) حديث الصمت حكمة وقليل فاعله: أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عمر بسند ضعيف والبيهقى فى الشعب من حديث أنس بلفظ حكم بدل حكمة وقال غلط فيه عثمان بن سعد والصحيح رواية ثابت قال والصحيح عن أنس ان لقمان قال ورواه كذلك هو وابن حبان فى كتاب روضة العقلاء بسند صحيح الى أنس

(٢) حديث سفيان الثقفى اخبرنى عن الاسلام بامر لا أسأل عنه أحدا بعدك ـ الحديث: ت وصححه و ن ه وهو عند م دون آخر الحديث الذى فيه ذكر اللسان

(٣) حديث عقبة بن عامر قلت يارسول الله ما النجاة قال أملك عليك لسانك ـ الحديث : ت وقال حسن

(٤) حديث سهل بن سعد من يتوكل لى بما بين لحييه ورجليه أتوكل له بالجنة رواه خ

(٥) حديث من وقى شر قبقبه وذبذبه ولقلقه ـ الحديث: أبو منصور الديلمى من حديث انس بسند ضعيف بلفظ فقد وجبت له الجنة

(٦) حديث سئل عن أكثر ما يدخل الجنة ـ الحديث : ت وصححه و ه من حديث أبى هريرة

(٧) حديث معاذ قلت يارسول الله انؤخذ بما نقول فقال ثكلتك أمك وهل يكب الناس على مناخرهم الا حصائد ألسنتهم : ت وصححه و ه ك وقال صحيح على شرط الشيخين

(١) وقال عبد الله الثقفي : قلت يارسول الله ، حدثني بأمر أعتصم به ، فقال « قُلْ رَبِّيَ اللهُ ثُمَّ اسْتَقِمْ » قلت يارسول الله ، ماأخوف ماتخاف عليّ ؟ فأخذ بلسانه وقال « هَذَا »

(٢) وروى أن معاذا قال .يارسول الله ، أي الأعمال أفضل ؟ فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لسانه ، ثم وضع عليه أصبعه . (٣) وقال أنس بن مالك ، قال صلى الله عليه وسلم « لاَ يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ الْعَبْدِ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ وَلاَ يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ وَلاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ رَجُلٌ لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ » وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْلَمَ فَلْيَلْزَمِ الصَّمْتَ » وعن سعيد بن جبير مرفوعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال (٥) « إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ أَصْبَحَتِ الْأَعْضَاءُ كُلُّهَا تُذَكِّرُ اللِّسَانَ أَيْ تَقُولُ اتَّقِ اللهَ فِينَا فَإِنَّكَ إِنِ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا وَإِنِ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا

(٦) وروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، رأى أبا بكر الصديق رضي الله عنه وهو يمد لسانه بيده ، فقال له ماتصنع ياخليفة رسول الله ؟ قال هذا أوردني الموارد . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الْجَسَدِ إِلاَّ يَشْكُو إِلَى اللهِ اللِّسَانَ عَلَى حِدَّتِهِ »

---

(١) حديث عبد الله الثقفي قلت يارسول الله حدثني بامر اعتصم به ـ الحديث : رواه ن قال ابن عساكر وهو خطأ والصواب سفيان بن عبد الله الثقفي كما رواه ت وصححه ه وقد تقدم قبل هذا بخمسة أحاديث

(٢) حديث ان معاذا قال يارسول الله أي الاعمال أفضل فاخرج لسانه ثم وضع يده عليه : الطبراني وابن أبي الدنيا في الصمت وقال أصبعه مكان يده

(٣) حديث أنس لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتي يستقيم لسانه ـ الحديث : ابن أبي الدنيا في الصمت والخرائطي في مكارم الاخلاق بسند فيه ضعف

(٤) حديث من سره أن يسلم فليلزم الصمت : ابن أبي الدنيا في الصمت وأبو الشيخ في فضائل الاعمال والبيهقي في الشعب من حديث أنس باسناد ضعيف

(٥) حديث إذا أصبح ابن آدم أصبحت الاعضاء كلها تذكر اللسان ـ الحديث : ت من حديث أبي سعيد الخدري رفعه ووقع في الاحياء عن سعيد بن جبير مرفوعا وانما هو عن سعيد بن جبير عن أبي سعيد رفعه ورواه ت موقوفا على حماد بن زيد وقال هذا أصح

(٦) حديث ان عمر اطلع على أبي بكر وهو يمد لسانه فقال ما تصنع ياخليفة رسول الله قال ان هذا أوردني الموارد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ليس شيء من الجسد الا يشكو إلى الله عز وجل اللسان على حدته ابن أبي الدنيا في الصمت وأبو يعلى في مسنده والدارقطني في العلل والبيهقي في الشعب من رواية أسلم مولى عمر وقال الدارقطني ان المرفوع وهم على الدار وردي قال وروى هذا الحديث عن قيس بن أبي حازم عن أبي بكر ولا علة له

(١) وعن ابن مسعود أنه كان على الصفا يلبي ويقول ، يالسان قل خيرا تغنم ، واسكت عن شر تسلم ، من قبل أن تندم . فقيل له ياأبا عبد الرحمن ، أهذا شيء تقوله أو شيء سمعته؟ فقال لا ، بل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إِنَّ أَكْثَرَ خَطَايَا ابْنِ آدَمَ فِي لِسَانِهِ » (٢) وقال ابن عمر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ كَفَّ لِسَانَهُ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ وَمَنْ مَلَكَ غَضَبَهُ وَقَاهُ اللهُ عَذَابَهُ وَمَنِ اعْتَذَرَ إِلَى اللهِ قَبِلَ اللهُ عُذْرَهُ »

(٣) وروى أن معاذ بن جبل قال يارسول الله أوصني. قال « اعْبُدِ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ وَعُدَّ نَفْسَكَ فِي الْمَوْتَى وَإِنْ شِئْتَ أَنْبَأْتُكَ بِمَا هُوَ أَمْلَكُ لَكَ مِنْ هٰذَا كُلِّهِ » وأشار بيده إلى لسانه (٤) وعن صفوان بن سليم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَيْسَرِ الْعِبَادَةِ وَأَهْوَنِهَا عَلَى الْبَدَنِ الصَّمْتُ وَحُسْنُ الْخُلُقِ » (٥) وقال أبو هريرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْراً أَوْ لِيَسْكُتْ » (٦) وقال الحسن ، ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « رَحِمَ اللهُ عَبْداً تَكَلَّمَ فَغَنِمَ أَوْ سَكَتَ فَسَلِمَ »

وقيل لعيسى عليه السلام ، دلنا على عمل ندخل به الجنة . قال لاتنطقوا أبدا . قالوا لانستطيع ذلك ، فقال فلا تنطقوا إلا بخير . وقال سليمان بن داود عليهما السلام ، إن كان الكلام من فضة ، فالسكوت من ذهب

---

(١) حديث ابن مسعود انه كان على الصفا يلبي ويقول يالسان قل خيرا تغنم وفيه مرفوعا ان أكثر خطايا ابن آدم فى لسانه : الطبراني وابن أبي الدنيا فى الصمت والبيهقي فى الشعب بسند حسن

(٢) حديث ابن عمر من كف لسانه ستر الله عورته ـ الحديث : ابن أبي الدنيا فى الصمت بسند حسن

(٣) حديث ان معاذا قال أوصني قال اعبدالله كانك تراه ـ الحديث : ابن ابي الدنيا فى الصمت وطب ورجاله ثقات وفيه انقطاع

(٤) حديث صفوان بن سليم مرفوعا ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن الصمت وحسن الخلق ابن أبي الدنيا هكذا مرسلا ورجاله ثقات ورواه أبو الشيخ فى طبقات المحدثين من حديث أبي ذر وأبي الدرداء أيضا مرفوعا

(٥) حديث أبي هريره من كان يؤمن بالله واليوم الآخرة فليقل خيرا أو ليسكت متفق عليه

(٦) حديث الحسن ذكر لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رحم الله عبدا تكلم فغنم أو سكت فسلم : ابن أبي الدنيا فى الصمت والبيهقي فى الشعب من حديث أنس بسند فيه ضعف فانه من رواية اسماعيل بن عياش عن الحجازيين

(١) وعن البراء بن عازب قال ، جاء أعرابى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ، دلنى على عمل يدخلنى الجنة . قال « أَطْعِمِ الْجَائِعَ وَاسْقِ الظَّمْآنَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ فَإِنْ لَمْ تُطِقْ فَكُفَّ لِسَانَكَ إِلَّا مِنْ خَيْرٍ » وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « أُخْزُنْ لِسَانَكَ إِلَّا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّكَ بِذَلِكَ تَغْلِبُ الشَّيْطَانَ » وقال صلى الله عليه وسلم « إِنَّ اللَّهَ عِنْدَ لِسَانِ كُلِّ قَائِلٍ فَلْيَتَّقِ اللَّهَ امْرُؤٌ عَلِمَ مَا يَقُولُ » وقال عليه السلام (٣) « إِذَا رَأَيْتُمُ الْمُؤْمِنَ صَمُوتاً وَقُوراً فَادْنُوا مِنْهُ فَإِنَّهُ يُلَقَّنُ الْحِكْمَةَ » (٤) وقال ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « النَّاسُ ثَلَاثَةٌ غَانِمٌ وَسَالِمٌ وَشَاجِبٌ فَالْغَانِمُ الَّذِي يَذْكُرُ اللَّهَ تَعَالَى وَالسَّالِمُ السَّاكِتُ وَالشَّاجِبُ الَّذِي يَخُوضُ فِي الْبَاطِلِ » وقال عليه السلام (٥) « إِنَّ لِسَانَ الْمُؤْمِنِ وَرَاءَ قَلْبِهِ فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِشَيْءٍ تَدَبَّرَهُ بِقَلْبِهِ ثُمَّ أَمْضَاهُ بِلِسَانِهِ وَإِنَّ لِسَانَ الْمُنَافِقِ أَمَامَ قَلْبِهِ فَإِذَا هَمَّ بِشَيْءٍ أَمْضَاهُ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَتَدَبَّرْهُ بِقَلْبِهِ »

وقال عيسى عليه السلام ، العبادة عشرة أجزاء ، تسعة منها فى الصمت ، وجزء فى الفرار من الناس

وقال نبينا صلى الله عليه وسلم (٦) « مَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ كَثُرَ سَقَطُهُ وَمَنْ كَثُرَ سَقَطُهُ كَثُرَتْ ذُنُوبُهُ وَمَنْ كَثُرَتْ ذُنُوبُهُ كَانَتِ النَّارُ أَوْلَى بِهِ

الآثار : كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، يضع حصاة فى فيه ، يمنع بها نفسه عن الكلام

---

(١) حديث البراء جاء اعرابى فقال دلنى على عمل يدخلنى الجنة قال أطعم الجائع ـ الحديث : ابن ابى الدنيا باسناد جيد

(٢) حديث اخزن لسانك الا من خير ـ الحديث : طص من حديث أبى سعيد وله فى المعجم الكبير ولابن حبان فى صحيحه نحوه من حديث أبى ذر

(٣) حديث إذا رأيتم المؤمن صموتا وقورا فادنوا منه فانه يلقى الحكمة : ه من حديث أبى خلاد بلفظ إذا رأيتم الرجل قد أعطى زهدا فى الدنيا وقلة منطق فاقتربوا منه فانه يلقى الحكمة وقد تقدم

(٤) حديث ابن مسعود الناس ثلاثة غانم وسالم وشاحب ـ الحديث : الطبرانى وأبو يعلى من حديث أبى سعيد الخدرى بلفظ المجالس وضعفه ابن عدى ولم أجده ثلاثة من حديث ابن مسعود

(٥) حديث ان لسان المؤمن وراء قلبه فاذا أراد أن يتكلم بشىء تدبره بقلبه ـ الحديث : لم أجده مرفوعا وانما رواه الخرائطى فى مكارم الاخلاق من رواية الحسن البصرى قال كانوا يقولون

(٦) حديث من كثر كلامه كثر سقطه ـ الحديث : أبو نعيم فى الحلية من حديث ابن عمر بسند ضعيف وقد رواه أبو حاتم بن حبان فى روضة العقلاء والبيهقى فى الشعب موقوفا على عمر بن الخطاب

وكان يشير إلى لسانه ويقول ، هذا الذى أوردنى الموارد . وقال عبد الله بن مسعود والله الذى لا إله إلا هو ، ماشىء أحوج إلى طول سجن من لسان . وقال طاوس ، لسانى سبع ، إن أرسلته أكلنى . وقال وهب بن منبه فى حكمة آل داود ، حق على العاقل أن يكون عارفا بزمانه، حافظا للسانه، مقبلا على شانه. وقال الحسن: ما عقل دينه من لم يحفظ لسانه

وقال الأوزاعى ، كتب إلينا عمر بن عبد العزيز رحمه الله، أما بعد ، فإن من أكثر ذكر الموت ، رضى من الدنيا باليسير ، ومن عد كلامه من عمله ، قل كلامه إلا فيما يعنيه . وقال بعضهم ، الصمت يجمع للرجل فضيلتين ، السلامة فى دينه ، والفهم عن صاحبه . وقال محمد بن واسع لمالك بن دينار ، ياأبا يحيى ، حفظ اللسان أشد على الناس من حفظ الدينار والدرهم . وقال يونس بن عبيد ، ما من الناس أحد يكون منه لسانه على بال ، إلا رأيت صلاح ذلك فى سائر عمله

وقال الحسن : تكلم قوم عند معاوية رحمه الله ، والأحنف بن قيس ساكت . فقال له مالك يا أبا بحر لا تتكلم ؟ فقال له ، أخشى الله إن كذبت وأخشاك إن صدقت

وقال أبو بكر بن عياش ، اجتمع أربعة ملوك ، ملك الهند، وملك الصين ، وكسرى، وقيصر . فقال أحدهم ، أنا أندم على ما قلت ، ولا أندم على مالم أقل . وقال الآخر ، إنى إذا تكلمت بكلمة ملكتنى ولم أملكها ، وإذا لم أتكلم بها ملكتها ولم تملكنى . وقال الثالث ،عجبت للمتكلم إن رجعت عليه كلمته ضرته ، وإن لم ترجع لم تنفعه . وقال الرابع ، أنا على ردمالم أقل أقدر منى على رد ما قلت

وقيل أقام المنصور بن المعتز لم يتكلم بكلمة بعد العشاء الآخرة أربعين سنة . وقيل ماتكلم الربيع بن خيثم بكلام الدنيا عشرين سنة . وكان إذا أصبح وضع دواة وقرطاسا وقلما . فكل ما تكلم به كتبه ، ثم يحاسب نفسه عند المساء

فإن قلت :فهذا الفضل الكبير للصمت ماسببه ؟

فاعلم أن سببه كثرة آفات اللسان ، من الخطأ ، والكذب ، والغيبة ، والنميمة ، والرياء والنفاق ، والفحش ، والمراء ، وتزكية النفس ، والخوض فى الباطل، والخصومة ، والفضول والتحريف ، والزيادة ، والنقصان ، وإيذاء الخلق ، وهتك العورات.

فهذه آفات كثيرة ، وهى سباقة إلى اللسان ، لا تثقل عليه ، ولها حلاوة فى القلب ، وعليها بواعث من الطبع ومن الشيطان ، والخائض فيها قلما يقدر أن يمسك اللسان، فيطلقه بما يحب ويكفه عما لا يحب ، فإن ذلك من غوامض العلم كما سيأتى تفصيله فنى الخوض خطر ، وفى الصمت سلامة . فلذلك عظمت فضيلته . هذا مع ما فيه من جمع الهم ، ودوام الوقار ، والفراغ للفكر والذكر والعبادة ، والسلامة من تبعات القول فى الدنيا ، ومن حسابه فى الآخرة، فقد قال تعالى (مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ [1])

ويدلك على فضل لزوم الصمت أمر ، وهو أن الكلام أربعة أقسام، قسم هو ضرر محض ،وقسم هو نفع محض وقسم فيه ضرر ومنفعة ، وقسم ليس فيه ضرر ولا منفعة

أما الذى هو ضرر محض ، فلا بد من السكوت عنه،وكذلك ما فيه ضرر ومنفعة لا تفى بالضرر وأما ما لا منفعة فيه ولا ضرر ،فهو فضول ، والاشتغال به تضييع زمان،وهو عين الخسران

فلا يبقى إلا القسم الرابع . فقد سقط ثلاثة أرباع الكلام ، وبقى ربع . وهذا الربع فيه خطر ، إذ يمتزج بما فيه إثم من دقائق الرياء ، والتصنع ، والغيبة ، وتزكية النفس ، وفضول الكلام ، امتزاجا يخفى دركه ، فيكون الإنسان به مخاطرا

ومن عرف دقائق آفات اللسان على ما سنذكره ، علم قطعا أن ما ذكره صلى الله عليه وسلم هو فصل الخطاب ، حيث قال [1] «مَنْ صَمَتَ نَجَا » [2] فلقد أوتى والله جواهر الحكم قطعا ، وجوامع الكلم ، ولا يعرف ما تحت آحاد كلماته من بحار المعانى إلا خواص العلماء ، وفيما سنذكره من الآفات ، وعسر الاحتراز عنها ، ما يعرفك حقيقة ذلك إن شاء الله تعالى . ونحن الآن نعد آفات اللسان ، ونبتدىء بأخفها ، ونترقى إلى الأغلظ قليلا ونأخر الكلام فى الغيبة والنميمة والكذب . فإن النظر فيها أطول ، وهى عشرون آفة ، فاعلم ذلك ترشد بعون الله تعالى

---

(١) حديث من صمت نجا : تقدم

(٢) حديث انه صلى الله عليه وسلم أوتى جوامع الكلم : م من حديث أبى هريرة وقد تقدم

---

[1] ق : ١٨

الآفة الأولى

الكلام فيما لا يعنيك

اعلم أن أحسن أحوالك أن تحفظ ألفاظك من جميع الآفات التى ذكرناها ، من الغيبة والنميمة ، والكذب ، والمراء ، والجدال ، وغيرها ، وتتكلم فيما هو مباح لاضرر عليك فيه ولا على مسلم أصلا ، إلا أنك تتكلم بما أنت مستغن عنه ، ولا حاجة بك إليه ، فإنك مضيع به زمانك ، ومحاسب على عمل لسانك ، وتستبدل الذى هو أدنى بالذي هو خير . لأنك لو صرفت زمان الكلام إلى الفكر ، ربما كان ينفتح لك من نفحات رحمة الله عند الفكر مايعظم جدواه ، ولو هللت الله سبحانه ، وذكرته ، وسبحته ، لكان خيرا لك . فكم من كلمة يبنى بها قصر فى الجنة ومن قدر على أن يأخذ كنزا من الكنوز ، فأخذ مكانه مدرة لاينتفع بها ، كان خاسرا خسرانا مبينا . وهذا مثال من ترك ذكر الله تعالى ، واشتغل بمباح لايعنيه فإنه وإن لم يأثم ، فقد خسر حيث فاته الربح العظيم بذكر الله تعالى [1] فإن المؤمن لايكون صمته إلا فكرا ، ونظره إلا عبرة ، ونطقه إلا ذكرا . هكذا قال النبي صلى الله عليه وسلم

بل رأس مال العبد أوقاته . ومهما صرفها إلى مالا يعنيه ، ولم يدخر بها ثوابا فى الآخرة ، فقد ضيع رأس ماله . ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم [2] « مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَالَا يَعْنِيهِ » بل ورد ماهو أشد من هذا . قال أنس [3] استشهد غلام منا يوم أحد ، فوجدنا على بطنه حجرا مربوطا من الجوع . فمسحت أمه عن وجهه التراب ، وقالت : هنيئا لك الجنة يابني

{ الآفة الأولى الكلام فيما لا يعنيك }

(١) حديث المؤمن لا يكون صمته إلا فكرا ونظره إلا عبرة ونطقه إلا ذكرا : لم أجد له أصلا وروى محمد بن زكريا العلائى أحد الضعفاء عن ابن عائشة عن أبيه قال خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان الله أمرنى أن يكون نطقى ذكرا وصمتى فكرا ونظرى عبرة

(٢) حديث من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه : ت وقال غريب وهو من حديث أبى هريرة

(٣) حديث استشهد منا غلام يوم أحد فوجد على بطنه صخرة مربوطة من الجوع ـ الحديث : وفيه لعله كان يتكلم بما لا يعنيه ويمنع مالا يضره : ت من حديث أنس مختصرا وقال غريب ورواه ابن أبى الدنيا فى الصمت بلفظ المصنف بسند ضعيف

فقال صلى الله عليه وسلم « وَمَا يُدْرِيكِ ؟ لَعَلَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ وَيَمْنَعُ مَالَا يَضُرُّهُ » وفى حديث آخر ، [١] أن النبي صلى الله عليه وسلم فقد كعبا ، فسأل عنه ، فقالوا مريض . فخرج يمشي حتى أتاه ، فلما دخل عليه قال « أَبْشِرْ يَا كَعْبُ » فقالت أمه ، هنيئا لك الجنة يا كعب . فقال صلى الله عليه وسلم « مَنْ هَذِهِ الْمُتَأَلِّيَةُ عَلَى اللهِ ؟ » قال هى أمى يارسول الله . قال « وَمَا يُدْرِيكِ يَا أُمَّ كَعْبٍ لَعَلَّ كَعْباً قَالَ مَالَا يَعْنِيهِ أَوْ مَنَعَ مَالَا يُغْنِيهِ » ومعناه أنه إنما تتهيأ الجنة لمن لا يحاسب ، ومن تكلم فيما لا يعنيه حوسب عليه ، وإن كان كلامه فى مباح ، فلا تتهيأ الجنة مع المناقشة فى الحساب ، فإنه نوع من العذاب

وعن محمد بن كعب [٢] ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ مِنْ هَذَا الْبَابِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ » فدخل عبد الله بن سلام ، فقام إليه ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبروه بذلك ، وقالوا أخبرنا بأوثق عمل فى نفسك ترجو به ، فقال إنى لضعيف وإن أوثق ما أرجو به الله سلامة الصدر ، وترك مالا يعنينى . وقال أبو ذر ، [٣] قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَلَا أُعَلِّمُكَ بِعَمَلٍ خَفِيفٍ عَلَى الْبَدَنِ ثَقِيلٍ فِي الْمِيزَانِ » قلت بلى يارسول الله ، قال « هُوَ الصَّمْتُ وَحُسْنُ الْخُلُقِ وَتَرْكُ مَالَا يَعْنِيكَ »

وقال مجاهد ، سمعت ابن عباس يقول ، خمس لهن أحب إلى من الدهم* الموقوفة ، لا تتكلم فيما لا يعنيك ، فإنه فضل ولا آمن عليك الوزر . ولا تتكلم فيما يعنيك حتى تجد له موضعا ، فإنه رب متكلم فى أمر يعنيه ، قد وضعه فى غير موضعه ، فعنت ، ولا تمار حليما ولا سفيها فإن الحليم يقليك ، والسفيه يؤذيك . واذكر أخاك إذا غاب عنك بما تحب أن يذكرك به

---

(١) حديث إن النبي صلى الله عليه وسلم فقد كعبا فسأل عنه فقالوا مريض ـ الحديث : وفيه لعل كعبا قال مالا يعنيه أومنع مالا يغنيه : ابن أبى الدنيا من حديث كعب بن عجرة باسناد جيد إلا أن الظاهر انقطاعه بين الصحابى وبين الراوى عنه

(٢) حديث محمد بن كعب ان أول من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة فدخل عبد الله بن سلام الحديث : وفيه ان أوثق ما أرجوه سلامة الصدر وترك مالا يعنينى : ابن ابى الدنيا هكذا مرسلا وفيه أبو نجيح اختلف فيه

(٣) حديث أبى ذر ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن ـ الحديث : وفيه هو الصمت وحسن الخلق وترك مالا يعنيك : ابن أبى الدنيا بسند منقطع

* الدهم : العدد الكثير من الابل أو الخيل .

واعفه مما تحب أن يعفيك منه، وعامل أخاك بما تحب أن يعاملك به، واعمل عمل رجل يعلم أنه مجازى بالإحسان مأخوذ بالاجترام . وقيل للقمان الحكيم ، ما حكمتك ؟ قال لا أسأل عما كفيت، ولا أتكلف ما لا يعنيني . وقال مورق العجلي ، أمر أنا في طلبه منذ عشرين سنة ، لم أقدر عليه، ولست بتارك طلبه . قالوا وما هو ؟ قال السكوت عما لا يعنيني . وقال عمر رضي الله عنه لا تتعرض لما لا يعنيك ، واعتزل عدوك ، واحذر صديقك من القوم إلا الأمين ، ولا أمين إلا من خشي الله تعالى . ولا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره ، ولا تطلعه على سرك ، واستشر في أمرك الذين يخشون الله تعالى

وحد الكلام فيما لا يعنيك ، أن تتكلم بكلام لو سكت عنه لم تأثم ، ولم تستضر به في حال ، ولا مال . مثاله أن تجلس مع قوم ، فتذكر لهم أسفارك . وما رأيت فيها من جبال وأنهار ، وما وقع لك من الوقائع ، وما استحسنته من الأطعمة والثياب ، وما تعجبت منه من مشايخ البلاد ووقائعهم . فهذه أمور لو سكت عنها لم تأثم ولم تستضر . وإذا بالغت في الجهاد ، حتى لم يمتزج بحكاياتك زيادة ولا نقصان ، ولا تزكية نفس ، من حيث التفاخر بمشاهدة الأحوال العظيمة ، ولا اغتياب لشخص ، ولا مذمة لشيء مما خلقه الله تعالى ، فأنت مع ذلك كله مضيع زمانك . وأنى تسلم من الآفات التي ذكرناها !

ومن جملتها أن تسأل غيرك عما لا يعنيك . فأنت بالسؤال مضيع وقتك ، وقد ألجأت صاحبك أيضا بالجواب إلى التضييع . هذا إذا كان الشيء مما لا يتطرق إلى السؤال عنه آفة وأكثر الأسئلة فيها آفات ، فإنك تسأل غيرك عن عبادته مثلا فتقول له ، هل أنت صائم؟ فإن قال نعم ، كان مظهرا لعبادته ، فيدخل عليه الرياء ، وإن لم يدخل سقطت عبادته من ديوان السر ، وعبادة السر تفضل عبادة الجهر بدرجات . وإن قال لا ، كان كاذبا . وإن سكت ، كان مستحقرا لك ، وتأذيت به . وإن احتال لمدافعة الجواب ، افتقر إلى جهد ، وتعب فيه . فقد عرضته بالسؤال إما للرياء ، أو للكذب ، أو للاستحقار ، أو للتعب في حيلة الدفع وكذلك سؤالك عن سائر عباداته ، وكذلك سؤالك عن المعاصي ، وعن كل ما يخفيه ويستحي منه ، وسؤالك عما حدث به غيرك . فتقول له ماذا تقول ؟ وفيم أنت ؟ وكذلك ترى إنسانا في الطريق ، فتقول من أين؟ فربما يمنعه مانع من ذكره، فإن ذكره تأذى به واستحيى

وإن لم يصدق وقع فى الكذب ، وكنت السبب فيه . وكذلك تسأل عن مسألة لاحاجة بك إليها ، والمسئول ربما لم تسمح نفسه بأن يقول لاأدرى ، فيجيب عن غير بصيرة

ولست أعنى بالتكلم فيما لا يعنى هذه الأجناس ، فإن هذا يتطرق إليه إثم أو ضرر . وإنما مثال مالا يعنى ماروى أن لقمان الحكيم ، دخل على داود عليه السلام ، وهو يسرد درعا ، ولم يكن رآها قبل ذلك اليوم . فجعل يتعجب مما رأى . فأرادأن يسأله عن ذلك ، فمنعته حكمته ، فأمسك نفسه ولم يسأله . فلما فرغ ، قام داود ولبسه ، ثم قال نعم الدرع للحرب . فقال لقمان ، الصمت حكم وقليل فاعله . أى حصل العلم بهمن غيرسؤال ، فاستغنى عن السؤال . وقيل إنه كان يتردد إليه سنة ، وهو يريد أن يعلم ذلك من غير سؤال

فهذا وأمثاله من الأسئلة ، إذا لم يكن فيه ضرر ، وهتك ستر ، وتوريط فى رياء وكذب وهو مما لا يعنى ، وتركه من حسن الإسلام ، فهذاحده

وأما سببه الباعث عليه ، فالحرص على معرفة مالا حاجة به إليه ، أوالمباسطة بالكلام على سبيل التودد ، أوتزجية الأوقات بحكايات أحوال لا فائدة فيها . وعلاج ذلك كله أن يعلم أن الموت بين يديه ، وأنه مسئول عن كل كلمة ، وأن أنفاسه رأس ماله ، وأنلسانه شبكة يقدر على أن يقتنص بها الحور العين ، فإهماله ذلك وتضييعه خسران مبين . هذاعلاجه من حيث العلم ، وأما من حيث العمل ، فالعزلة ، أو أن يضع حصاة فى فيه ، وأن يلزم نفسه السكوت بها عن بعض ما يعنيه ، حتى يعتاد اللسان ترك مالا يعنيه ، وضبط اللسان فى هذا على غير المعتزل شديد جدا

الآفة الثانية

فضول الكلام

وهو أيضا مذموم . وهذا يتناول الخوض فيمالا يعني ، والزيادة فيمايعنى على قدر الحاجة فإن من يعنيه أمر ، يمكنهأن يذكره بكلام مختصر ، ويمكنهأن يجسمه ، ويقرره ، ويكرره ومهما تأدى مقصوده بكلمة واحدة ، فذكر كلمتين ، فالثانية فضول . أى فضل عن الحاجة

وهو أيضامذموم لما سبق . وإن لم يكن فيه إثم ولا ضرر . قال عطاء بن أبي رباح : إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام ، وكانوا يعدّون فضول الكلام ماعدا كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أوأمرا بمعروف ، أونهيا عن منكر ،أوأن تنطق بحاجتك فى معيشتك التى لابدلك منها . أتنكرون أن عليكم حافظين ، كراما كاتبين ، عن اليمين وعن الشمال قعيد ، مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد! أما يستحي أحدكم إذا نشرت صحيفته التى أملاها صدرنهاره ، كان أكثر مافيها ليس من أمر دينه ولا دنياه

وعن بعض الصحابة قال إن الرجل ليكلمنى بالكلام، لجوابه أشهى إلىّ من الماء البارد إلى الظمآن ، فأترك جوابه ، خيفة أن يكون فضولا . وقال مطرف ، ليعظم جلال الله فى قلوبكم ، فلاتذكروه عند مثل قول أحدكم للكلب والحمار ، اللهم أخزه ؛ وماأشبه ذلك

واعلم أن فضول الكلام لا ينحصر . بل المهم محصور فى كتاب الله تعالى . قال الله عز وجل (لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ [1]) وقال صلى الله عليه وسلم [1] « طُوبَى لِمَنْ أَمْسَكَ الْفَضْلَ مِنْ لِسَانِهِ وَأَنْفَقَ الْفَضْلَ مِنْ مَالِهِ » فانظر كيف قلب الناس الأمر فى ذلك ، فأمسكوا فضل المال ، وأطلقوا فضل اللسان ! وعن مطرف بن عبد الله ، عن أبيه ، قال [2] قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رهط من بنى عامر ، فقالوا أنت والدنا ، وأنت سيدنا؟ وأنت أفضلنا علينا فضلا وأنت أطولنا علينا طولا ، وأنت الجفنة الغراء ، وأنت وأنت ، فقال « قُولُوا قَوْلَكُمْ وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ » إشارة إلى أن اللسان إذا أطلق بالثناء ، ولو بالصدق ، فيخشى أن يستهويه الشيطان إلى الزيادة المستغنى عنها وقال ابن مسعود ، أنذركم فضول كلامكم.

﴿ الآفة الثانية فضول الكلام ﴾

(١) حديث طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه وأنفق الفضل من ماله : البغوى وابن قانع فى معجمى الصحابة والبيهقى من حديث ركب المصرى وقال ابن عبد البر انه حديث حسن وقال البغوى لاأدرى سمع من النبى صلى الله عليه وسلم أم لا وقال ابن منده مجهول لانعرف له صحبة ورواه البزار من حديث أنس بسند ضعيف

(٢) حديث مطرف بن عبد الله عن أبيه قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رهط من بنى عامر فقالوا أنت والدنا وأنت سيدنا ـ الحديث : د ن فى اليوم والليلة بلفظ آخر ورواه ابن أبى الدنيا بلفظ المصنف

---

(١) النساء : ١١٤

حسب امرىء من الكلام ما بلغ به حاجته. وقال مجاهد: إن الكلام ليكتب، حتى أن الرجل ليُسكتُ ابنه فيقول، أبتاع لك كذا وكذا، فيكتب كذابا. وقال الحسن: ياابن آدم، بسطت لك صحيفة وو كل بها ملكان كريمان يكتبان أعمالك، فاعمل ماشئت، وأكثر أو أقل.

وروى أن سليمان عليه السلام، بعث بعض عفاريته، وبعث نفرا ينظرون ما يقول ويخبرونه. فأخبروه بأنه مرّ في السوق، فرفع رأسه إلى السماء، ثم نظر إلى الناس وهزّ رأسه. فسأله سليمان عن ذلك. فقال عجبت من الملائكة على رءوس الناس، ما أسرع ما يكتبون! ومن الذين أسفل منهم، ما أسرع ما يملون.

وقال إبراهيم التيمى: إذا أراد المؤمن أن يتكلم نظر، فإن كان له تكلم، وإلا أمسك والفاجر إنما لسانه رسلا رسلا. وقال الحسن: من كثر كلامه كثر كذبه، ومن كثر ماله كثرت ذنوبه، ومن ساء خلقه عذب نفسه

وقال عمرو بن دينار [1] تكلم رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم، فأكثر فقال له صلى الله عليه وسلم «كَمْ دُونَ لِسَانِكَ مِنْ حِجَابٍ؟» فقال شفتاى وأسنانى، قال «أَفَمَا كَانَ لَكَ فِي ذَلِكَ مَا يَرُدُّ كَلَامَكَ؟» وفى رواية، أنه قال ذلك فى رجل أثنى عليه، فاستهتر فى الكلام، ثم قال «مَا أُوتِيَ رَجُلٌ شَرًّا مِنْ فَضْلٍ فِي لِسَانِهِ»

وقال عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه، إنه ليمنعنى من كثير من الكلام خوف المباهاة

وقال بعض الحكماء، إذا كان الرجل فى مجلس، فأعجبه الحديث، فليسكت. وإن كان ساكتا، فأعجبه السكوت، فليتكلم. وقال يزيد بن أبى حبيب: من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع فإن وجد من يكفيه، فإن فى الاستماع سلامة، وفى الكلام تزيين، وزيادة ونقصان. وقال ابن عمر: إن أحق ما طهر الرجل لسانه. ورأى أبو الدرداء امرأة سليطة، فقال لو كانت هذه خرساء كان خيرا لها. وقال إبراهيم يهلك الناس خلتان، فضول المال، وفضول الكلام

فهذه مذمة فضول الكلام وكثرته وسببه الباعث عليه، وعلاجه ماسبق فى الكلام فيما لا يعنى

(١) حديث عمرو بن دينار تكلم رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فأكثر فقال كم دون لسانك من باب ــ الحديث: ابن أبى الدنيا هكذا مرسلا ورجاله ثقات

فهرست الجزء الثـامن

كتاب آفات اللسان ١٥٣٦